تاريخ مصر السياسى والحضارى من الفتح الإسلامى حتى عهد الأيوبيين

٢١ هـ .... ٦٤٨ هـ

د / صبحى عبد المنعم

العربى للنشر والتوزيع

٦٠ شارع القصر العينى أمام روزاليوسف
(١١٤٥١) القاهرة
ت . ٣٥٥٤٥٢٩ فاكس . ٣٥٤٧٥٦٦

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن تاريخ مصر الإسلامية تاريخ عظيم . ملئ بمواقف العظيمة والمجد ، وعلينا ونحن نقرأ هذا التاريخ أن نعيه ونوظفه ليكون فى خدمة الحاضر ، وبناء المستقبل المشرق للأمة . فقد حاول أعداؤنا التشكيك فى تاريخنا ، وتفسير أحداثه بما يلائم أغراضهم ويناسب أهواءهم ، كى يستطيعوا تحقيق مآربهم المنشودة من تشويه هذا التاريخ . لأنهم يعلمون أن أبناء مصر قوة ضخمة ، وأنهم إذا عرفوا حقيقة أنفسهم صاروا سداً منيعاً يحول بين المعتدين وبين أطماعهم فى السيطرة والاستغلال .

لذا علينا أن نلقى نظرة فاحصة وواعية على هذا التراث الكبير ، والمجيد من تاريخ مصر . لنعرف كيف بدأت ؟ وكيف نهضت ؟ وكيف تفانى المصريون فى خدمة الحضارة الإسلامية ونشر رسالتها ؟

فالتاريخ هو أحداث الماضى ووقائعه ، وهذه الأحداث والوقائع إذا جمعت ودرست واستخرجت منها الظواهر المتشابهة التى وجهت الحياة البشرية فى مختلف العصور . أمكن عن طريقها فهم الكثير من مشكلات الإنسان وغوامض حياته .

وهذه الدراسات التى أقدمها فى تاريخ مصر الإسلامية ، ستلقى الضوء على بعض الأحداث البارزة والمهمة فى تاريخ وطننا المجيد والعتيد كى يأخذ الشباب منه العظة والعبرة فيستقيم لهم الطريق ويعرفوا كيف يواجهون الحياة التى يستقبلونها ، وهى صفحات أملى كتابتها شعور جارف وفياض بالحب لهذا الوطن ومستقبله الكبير والعظيم الذى نتمناه له على الدوام .

وأسأل الله تعالى أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم ، وأن ينفع به ، إنه سميع مجيب .

د . صبحى عبد المنعم محمد

تمهيد

إن دراستنا لتاريخ مصر الإسلامية سوف تتناول الفترة الممتدة من سنة (٢١ هـ/٦٤١م) عقب فتح مصر على يد القائد العربى المسلم عمرو بن العاص ، وحتى نهاية عصر الأيوبيين سنة (٦٤٨هـ / ١٢٥٠) .

ونظراً لأنها فترة زمنية طويلة لا نستطيع من خلال هذا الكتاب حصرها وتناولها بإسهاب فسوف نكتفى بإبراز الأحداث المؤثرة والمهمة التى شهدتها مصر . ومدى تفاعلها معها ، ثم دورها فى خدمة الحضارة العربية الإسلامية ونشر رسالتها .

وقد رجعت فى استخراج هذه الدراسات إلى مادة غزيرة من آثار ذلك التراث العظيم الذى انتهى إلينا فى تاريخ مصر الإسلامية ، وهو تراث يحق لشبابنا أن يعرف قيمته ونفاسته ليدرك مدى عظمة أمته ، وتقدمها ، وحضارتها الكبيرة .

لذا فقد حرصت علي استعراض هذه المصادر والتنويه بأهميتها وقيمتها التاريخية لنتعرف على مناهج وأساليب مؤرخى مصر الإسلامية ، وفى طليعتهم :

ابن عبد الحكم (أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم بن أعين بن الليث بن رافع المالكى القرشى المصرى ت ٢٥٧هـ/٨٧١م) (١) وهو صاحب كتاب « فتوح مصر والمغرب » وهو من أقدم الكتب التى كتبت فى تاريخ مصر الإسلامية ، ويحوى هذا الكتاب أخبار الصحابة والتابعين وغيرهم ممن لهم شأن فى فتوح مصر والمغرب ، وبيان اقطاعاتهم ، والإصلاحات التى تمت على أيديهم وأوضح تاريخ الإدارة العربية فى مصر ، وبين كيف أنها سارت على أسس راسخة منذ أيامها الأولى(٢) ، كما تناول تاريخ الإدارة القضائية فى مصر منذ نشأتها على عهد الخليفة عمر بن الخطاب إلى القرن الثالث الهجرى ، ونجح فى بيان مدى التشابه بين هذه الإدارة وغيرها من الإدارات المماثلة لها فى سائر

---

(١) ابن حجر العسقلانى : تهذيب التهذيب ج ٦ ص ٢٠٨ ، الزركلى · الأعلام ج ٤ ص ٨٥ ، كحالة معجم المؤلفين ج ٥/ ص ١٥٠ ، جورجى زيدان تاريخ آداب اللغة العربية ج ٢ ص ١٩٦

(٢) د . إبراهيم العدوى . ابن عبد الحكم رائد المؤرخين العرب ص ١٥٨ - ١٥٩ .

بلاد الدولة الإسلامية ، كما أفاض فى وصف الخطط الأولى لمصر الإسلامية ، وتعيين مواضع الدور والأمكنة التى اختطها الزعماء والقبائل (١) .

ويمكن القول ان روايته في ذلك هى أقرب الروايات إلى الحقيقة نظراً لأنه ولد فى الفسطاط ، ونشأ على أرضها ، وأدرك معظم معالمها القديمة ، وأدركت أسرته ما اندثر من هذه المعالم ، وما تعاقب بشأنها من الروايات ، وتلقى ابن عبد الحكم هذا التراث عن أبيه وإخوته (٢) .

والمنهج الذى سار عليه ابن عبد الحكم فى تأليفه هو المنهج العام الذى اتبعه المعاصرون له من مؤرخى القرن الثالث الهجرى ، ويعرف بطريقة « الإسناد » التى سار عليها رواة الحديث وحرص ابن عبد الحكم علي الدقة فى تحرى أسانيده ، ولا سيما أنه كان محدثاً غلبت عليه طريقة المحدثين من حيث القدرة على تتبع الرواة المشهود لهم بالأمانة (٣) .

واستطاع ابن عبد الحكم بفضل إجادته للمنهج التاريخى العام الذى اتبعه كل المعاصرين له من المشتغلين بالتاريخ أن يجعل مؤلفه مرجعاً لا يستغنى عنه أحد من الراغبين فى الدراسات العلمية المتعلقة بالمرحلة المبكرة من تاريخ انتشار العروبة والإسلام ، وفى الوقت نفسه ضمن ابن عبد الحكم لاسمه أن يقف على رأس قائمة المعاصرين له من كبار المؤرخين أمثال الطبرى والبلاذرى ، وابن قتيبة ، ويسهم معهم فى بناء النهضة التاريخية التى اتسم بها القرن الثالث الهجرى (٤) .

ويعد ابن الداية (أبو جعفر أحمد بن يوسف بن ابراهيم المصرى المتوفى سنة ٣٤٠هـ/٩٥١م) من طليعة مؤرخى مصر الأولين ومن أهم مؤلفاته :

« سيرة ابن طولون » وقد اقتبس منها كثيراً المؤرخ المغربى ابن سعيد (على بن موسى بن محمد بن عبد الملك المتوفى سنة ٦٧٣ هـ / ١٢٧٥ م) وضمها كتابه « المُغْرِب فى حُلَى المَغْرِب » قسم الفسطاط ، وبهذه الطريقة بقى القسم الأكبر من هذه السيرة ومن كتبه أيضا « سيرة خمارويه بن أحمد ابن طولون » ولم يتبق من هذا الكتاب إلا أجزاء يسيرة نقلها ابن سعيد فى كتابه « المغرب فى حلى المغرب » (٥) .

---

(١) محمد عبد الله عنان ٠ مصر الإسلامية ص ١٣ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) د . إبراهيم العدوى : ابن عبد الحكم ص ٥٦ .

(٤) المرجع السابق ص ٥٧ .

(٥) شاكر مصطفى ٠ التاريخ العربى والمؤرخون ج ٢ / ص ١٨٤ .

أما كتابه « المكافأة » فقد أشرفت وزارة المعارف على طبعه سنة ١٩٤١ ويحتوى على إحدى وسبعين قصة من القصص التى حدثت فى مصر والعراق وغيرهما من البلدان الإسلامية الأخرى وترجع أهمية هذا الكتاب فى أنه يعطينا صورة واضحة للحياة الاجتماعية والاقتصادية فى مصر فى عصر الطولونيين (١) .

ولقد كتب البلوى (أبو محمد عبد الله بن عمير بن محفوظ المدنى ، من رجال القرن الرابع الهجرى) كتاباً أسماه « سيرة ابن طولون » ومن المتفق عليه أنه وضع هذا الكتاب حوالى سنة ٣١٢هـ/٩٢٤م أى بعد زوال الدولة الطولونية سنة ٢٩٢هـ/٩٠٥م لذا فإنه اعتمد على ما كتبه ابن الدايه(٢) ، وإن انفرد عنه بأن أورد نصوصاً ومراسلات مأخوذة من ديوان الرسائل بمصر ، منها الرسائل المتبادلة بين أحمد بن طولون ، والموفق طلحة شقيق الخليفة العباسى وولى عهده وبين ابن طولون وولده العباس الذى خرج عليه فى برقة ، ثم بعض الرسائل بينه وبين بقية أولاده وقواده ، مما يعنى أن المؤلف كان من كتاب الديوان بمصر ولهذا استطاع الاستفادة من محفوظات الدولة ووثائقها وضمنها كتابه (٣) .

والكتاب يتناول نشأة ابن طولون ، وأخبار حروبه ، وحسن سياسته ، وصفاته ، وعدله ورحمته ، ومفاخره ، ومكارمه ، ويؤخذ عى البلوى غلوه فى الدفاع عن مساوئ ابن طولون ومحاولة تبرير أعماله التى جانبه التوفيق فيها ، كما أسرف فى ذكر بعض الحوادث الخيالية التى يستحيل على العقل تصديقها (٤) ، وقد نشر هذا الكتاب بدمشق سنة ١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م بتحقيق الأستاذ محمد كرد على .

أما الكندى (أبو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب الكندى التجيبى ت ٣٥٠هـ/ ٩٦١م) فله كتاب « تسمية ولاة مصر » وهو يتناول الولاة الذين تعاقبوا على حكم مصر منذ الفتح الإسلامى حتى وفاة الإخشيد سنة ٣٣٤هـ/٩٤٥م (٥) ، ففى مقدمة كتابه يقول : « قال أبو عمر : هذا كتاب تسمية ولاة

---

(١) د. على إبراهيم حسن · استخدم المصادر وطرق البحث ص ١٣٥ .

(٢) المرجع السابق ص ١٣٦ .

(٣) شاكر مصطفى: التاريخ العربى والمؤرخون ج ٢/ ص ١٩٩ .

(٤) على إبراهيم حسن : استخدام المصادر وطرق البحث ص ١٣٧ .

(٥) محمد عبد الله عنان · مصر الإسلامية ص ٣٧ .

مصر ، ومن ولى الصلاة ، ومن ولى الحرب والشرطة منذ فتحت إلى زماننا هذا ومن جمع له الصلاة والخراج على اسم الله وعونه ، وصلى الله على محمد وآله » ثم بدأ بالحديث عن عمرو بن العاص (١) .

وللكندى كتاب ثان هو كتاب « تسمية قضاة مصر » وفيه يعرض لتاريخ القضاة ، وهو موضوع تناوله ابن عبد الحكم من قبل ، وكانت روايته مادة خصبة انتفع بها الكندى ، بل إن الكندى وقف فى روايته حيثما وقف ابن عبد الحكم عند ولاية القاضى بكار بن قتيبة لقضاء مصر سنة ٢٤٦هـ/٨٦٠م ، وفى الكتابين نبذ يسيرة عن بعض خطط مصر ، ومنشآتها الأولى ترد فى سياق الكلام ، وقد طبع الكتابان فى مجلد واحد بعنوان « تاريخ ولاة مصر ، ويليه كتاب تسمية قضاتها » وأصدرته مؤسسة الكتب الثقافية فى بيروت سنة ١٤٠٧هـ/١٩٨٧ .

وكتب بعد الكندى المؤرخ الفقيه ابن زولاق (أبو محمد الحسن بن إبراهيم بن الحسين بن الحسن بن على بن راشد بن عبد الله بن سليمان بن زولاق الليثى المصرى ت ٣٨٧هـ/ ٩٩٨ (٢) وهو معاصر للكندى غير أنه عاش بعده فترة ، فقد عاصر الدولة الإخشيدية وشاهد بنفسه ما تعاقب عليها من حوادث ، وأدرك قيام الدولة الفاطمية بمصر ، ولذلك فقد كتب فى تاريخ هاتين الدولتين خير ما يكتب مؤرخ عن تحقيق ومشاهدة ، ولكن مؤلفاته التاريخية لم تصل إلينا ، بل كل ما وصلنا موضوعات مقتبسة فى كتب متعددة ومن أهم مؤلفاته :

« سيرة الإخشيد » وقد أورد ابن سعيد جزءاً كبيراً منها فى كتابه « المغرب فى حلى المغرب » وعنون له بـ « العيون الدُعْج فى دولة بنى طُغْج » (٣) و « سيرة المعز لدين الله » وقد اقتبس المقريزى منها شذوراً كثيرة فى كتابه « اتعاظ الحنفا بأخبار الآئمة الفاطميين الخلفا » (٤) ، وكتاب « أخبار سيبويه المصرى » وهو (محمد بن موسى بن عبد العزيز الكندى الصيرفى المتوفى سنة ٣٥٨هـ/٩٦٧م) وكان زميلاً فى الدرس لابن زولاق ، لذا فقد عنى بنوادره وأخباره الأدبية الطريفة مع الملوك والوزراء والأمراء والعلماء (٥) ، وتوجد نسخة من هذا الكتاب فى دارالكتب المصرية ، قام على تحقيقها الأستاذان :

---

(١) الكندى : تاريخ ولاة مصر ص ١٣ .

(٢) كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربى ج ٣ / ص٨٢ .

(٣) د على إبراهيم حسن : استخدام المصادر وطرق البحث ص ١٤٠ - ١٤١ .

(٤) محمد عبد الله عنان : مصر الإسلامية ص ٤٠ .

(٥) الحسن بن زولاق ، كتاب أخبار سيبويه المصرى ص ١٠ .

محمد إبراهيم سعد وحسين الديب ، وقد صدرت الطبعة الأولى منه ستة ١٣٥٢هـ/١٩٣٣م .

أما الفرغاني (أحمد بن عبد الله بن أحمد ت ٣٩٨هـ/ ١٠٠٨م) فقد كتب لنا سيرة كافور الإخشيدي ، وسيرة الخليفة الفاطمي العزيز ، ومن خلال الكتابين يسجل ما يرى من الأحداث التي عاشتها مصر زمن الإخشيديين والفاطميين (١) .

ويأتي المُسبّحي (الأمير المختار عز الملك محمد بن عبيد الله بن أحمد الحراني ت ٤٢٠هـ/١٠٢٩م) وهو من المؤرخين الذين عاصروا الأحداث في مصر زمن الفاطميين (٢) ، فقد كان من رجال الدولة ، وكبارها ، تولى الوزارة للخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله ، وتقلد الأعمال والولايات ، وديوان الترتيب (ديوان الرواتب الذي تنظم فيه الرواتب ، وتدفع لمستحقيها) (٣)

وقد ألف المُسبّحي كتباً كثيرة في موضوعات مختلفة أكثرها في التاريخ والأدب ، وعلم النجوم ، وغير ذلك ، ولم يصلنا منها إلا القليل ، ومن أهم كتبه : « كتاب أخبار مصر » ، وقد ذكر فيه من نزل مصر من الولاة والأمراء والأئمة والخلفاء وما فيها من العجائب والأبنية ، واختلاف أصناف الأطعمة ، وذكر نيلها وأحوال أهلها إلى سنة ٤١٥هـ/ ١٠٢٥م ويتخلل ذلك أشعار الشعراء ، وأخبار المغنين ، ومجالس القضاة والحكام والأدباء وغيرهم (٤) ، وتتفق أغلب المصادر القديمة على أنه كان يتكون أصلاً من ثلاثة عشر ألف ورقة وقد نقل عنه كثير من المؤرخين مثل ابن منجب ، وابن مُيسّر ، وابن خلكان ، والمقريزي وابن تغرى بردى ، والسيوطي ، ولقد ضاع هذا الكتاب ، ولا يوجد منه سوى الجزء الأربعون وقد أخرجته الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٠ م بتحقيق وليم . ج . ميلورد وأعاد نشره المعهد الفرنسي للغات الشرقية بتحقيق د. أيمن فؤاد سيد .

ومن المعاصرين للمُسبّحي المؤرخ القضاعي (أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر ، القاضي الفقيه الشافعي توفي ٤٥٤هـ/ ١٠٦٢م) (٥) وكان إماماً في الفقه والحديث ، تولى القضاء بمصر ،

---

(١) شاكر مصطفى . التاريخ العربي والمؤرخون ج٢ / ص ٢٠٤

(٢) السيوطي . حسن المحاضرة ج١ / ص ٣٢٩ ، ابن تغرى بردى النجوم الزاهره ج ٤ ص ٢٧١ ، الذهبي : العبر ج٢/ ص ٢٤١ ، اليافعي : مرآة الجنان ج ٣ / ص ٣٦ ، ابن العماد شذرات الذهب ج ٣ / ص ٢١٥ .

(٣) د . على إبراهيم حسن . استخدام المصادر وطرق البحث ص ١٠٧ .

(٤) جورجي زيدان . تاريخ آداب اللغة العربية ج ٢ / ص ٣٢٣ .

(٥) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٨/ ص ٣٥٩ ، اليافعي : مرآة الجنان ج ٣ / ص ٧٥ ، الذهبي : العبر ج٢/ ص٣٠٢ ، ابن العماد . شذرات الذهب ج ٣ / ص ٢٩٣ .

وغيره من مهام الدولة في عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمي (٤٢٧ هـ - ٤٨٧ هـ/ ١٠٣٦ - ١٠٩٤ م) وله عدة مؤلفات في التاريخ منها كتاب في خطط مصر واسمه « المختار في ذكر الخطط والآثار » لكنه فقد ولم يبق منه الا ما اقتبسه بعض المؤرخين كالقلقشندي والمقريزي ، ويتضح من هذه المقتطفات أنه تناول فيه خطط مصر وآثارها وتاريخها منذ الفتح الاسلامي بصورة مفصلة ، وانتفع في ذلك بمجهودات من سبقه من المؤرخين كابن عبد الحكم والكندي وابن زولاق ، وأضاف ما انتهت إليه أحوال القاهرة في عصره (١) .

ثم جاء أبو صالح الأرمني (ت ٦٠٦ هـ/ ١٢٠٨ م) من أرمينيا إلى مصر عقب سقوط الفاطميين بقليل ، وشاهد أديرتها ، وكنائسها ، ووقف على أخبار الدولة الفاطمية في أواخرأيامها عن طريق ما سمعه من الرهبان والقسس ، أو رآه هو بنفسه في زياراته للكنائس والأديرة في القاهرة وضواحيها .

وقد كتب أبو صالح كتاباً في التاريخ عُرِف باسم « كنائس وأديرة مصر » يتناول فيه تاريخ الكنائس والأديرة المصرية ، وأحياء النصارى ، وتاريخ القديسين والبطاركة ، وبعض أعمال الدولة الأيوبية ، وإقطاعاتها وخَرَاجها ، ويضم معلومات طريفة عن حالة مصر الاجتماعية زمن الفاطميين ، وعن المعاملة الحسنة التي ينالها المسيحيون من المسلمين في مصر (٢) .

وقد تزامن مع أبي صالح الأرمني « ابن مماتي » (شرف الدين الأسعد بن المهذب بن زكريا ت ٦٠٦ هـ / ١٢٠٨ م) وكان من كبار موظفي المال الأقباط في زمن الفاطميين والأيوبيين (٣) ، وقد كتب « قوانين الدواوين » وهو من الكتب المهمة لمعرفة النظام المالي في مصر ، وقد طبع سنة ١٩٤٣ في مصر ، وعلّق عليه د . عزيز سوريال عطية .

أما البغدادي (موفق الدين أبو محمد عبد اللطيف بن يوسف بن محمد بن علي ت ٦٢٩هـ/ ١٢٣١م) والمعروف باسم ابن اللباد وابن نُقْطه ، والمُطْجِن ، فهو طبيب لغوي نحوي دارس للفلسفة

---

(١) المقريزي . الخطط ج ١ / ص ٥ ، القلقشندي : صبح الأعشى ج٣ / ص ٢٩٤ ، ص ٤٠٧ ، محمد عبد الله عنان : مصر الإسلامية ص ٤٣ ، جورجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ج٢ / ص ٢٢٥ .

(٢) د . علي إبراهيم حسن : استخدام المصادر وطرق البحث ص ١٤٧ .

(٣) شاكر مصطفى : التاريخ العربي والمؤرخون ج ٢ ص ٢١٤ .

والعلوم ، وله كثير من الكتب والرسائل (١) ومعظمها فى عداد المفقود ، ويغلب على تأليفه سعة الاطلاع والتمكن من المادة مع الدراسة والمقارنة والاستشهاد مع بحث وتقصى ينمان عن معرفة ودقة وفهم ، ومن مؤلفاته التى وصلتنا كتابه فى التاريخ المسمى « كتاب الإفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينه بأرض مصر » وقد قدم هذا الكتاب إلى الخليفة العباسى الناصر لدين الله (٥٧٥ - ٦٢٢هـ/ ١١٧٩ - ١٢٢٥م) لإطلاعه على أحوال مصر وأوصافها ، وعلى أخبار المجاعة والزلازل التى حدثت فى أواخر القرن السادس الهجرى (٢) والكتاب طبع فى مصر عدة مرات ، ويحتوى على العديد من الفوائد التاريخية والعلمية ، ومن ذلك وصفه المثير فى القسم الأخير من الكتاب لمجاعة مصر ، ووبائها المروع سنة ٥٩٧ هـ وسنة ٥٩٨ هـ ، والكتاب له أهمية كبيرة حيث يقدم لنا وصف شاهد عيان لمصر وأحوالها الاجتماعية والاقتصادية ، وحالتها العمرانية وآثارها ومعالمها وطيورها ونباتاتها ونيلها .

وكتب ابن مُنْجب الصيرفى (أبو القاسم عل بن منجب بن سليمان ت ٦٤١ هـ / ١١٤٧ م) كتاب « الإشارة إلى من نال الوزارة وهو الكتاب الوحيد الذى وصلنا منه ، نَشَرَهُ عبد الله مخلص (عن النسخة الوحيدة المحفوظة فى خزانة الكتب الخالدية ببيت المقدس) طبع المعهد العلمى الفرنسى بالقاهرة سنة ١٩٢٣م ، ولهذا الكتاب قيمة خاصة فى بحث تاريخ الفاطميين لأن الرجل كان من أعيان زمانه ومن المقربين للبلاط الفاطمى ، وقد تقلد ديوان الرسائل فى عهد الخليفة الفاطمى الآمر من سنة ٤٩٥ هـ / ١١٠١م واستمر فيه الى سنة ٥٣٦ هـ / ١١٤٢م ، وهو يترجم لوزراء الدولة الفاطمية منذ الوزير يعقوب بن كِلِّس زمن الخليفة العزيز بالله حتى أبى عبد الله محمد بن أبى شجاع الآمرى زمن الخليفة الآمر بأحكام الله (٣) .

ومن المؤرخين الذين كتبوا عن الفاطميين ابن مُيَسَّر (تاج الدين محمد بن على بن يوسف بن جلب راغب ت ٦٧٧ هـ/ ١٢٧٨م) (٤) وله كتاب « أخبار مصر » وقد صدر الجزء الثانى من هذا الكتاب سنة ١٩١٩ م بالقاهرة عن المعهد العلمى الفرنسى وقد عنى بإخراجه هنرى ماسيه ، والكتاب يشمل

---

(١) الذهبى · العبر ج ٢ / ص ٢٠٤ ، اليافعى : مرآة الجنان ج ٤ / ص ٦٨ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٦ / ص ٢٧٩ ابن العماد : شذرات الذهب ج ٥ / ص ص ١٣٢ .

(٢) عبد اللطيف البغدادى · الإفادة والاعتبار ص ٥ - ٧ .

(٣) شاكر مصطفى· التاريخ العربى والمؤرخون ج٢/ ص ١٩١ .

(٤) د على إبراهيم حسن . استخدام المصادر وطرق البحث ص ١٥٤ .

الكلام على تاريخ مصر مبتدئاً بسنة ٤٣٩هـ/ ١٠٤٧م وينتهى بسنة ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م وهى السنة التى ينتهى فيها حكم الخليفة الفائز ، ولم يتعرض لخلافة العاضد ، وقد صدر هذا الكتاب مرة أخرى عن المعهد العلمى الفرنسى بمصر ، بعنوان « المنتقى من أخبار مصر » تحقيق د . أيمن فؤاد سيد .

وكان ابن عبد الظاهر (محى الدين عبد الله ت ٦٩٢هـ/ ١٢٩٢م) قاضياً واتصل بالبلاط السلطانى ، وتولى ديوان الرسائل للملك الظاهر (١) ، وقد حاكى القاضى الفاضل فى أسلوبه ، وكتب لنا فى التاريخ كتابه المشهور « الروضة البهية الزاهرة فى خطط المعزية القاهرة » (٢) وهو يتناول خطط القاهرة وآثارها ومعاهدها ومجتمعاتها وقد استقى منه المقريزى فى تأليف خططه وأشار الى أهميته فى مواضع كثيرة من كتابه « الخطط المقريزية »

وممن كتب فى تاريخ مصر ابن دقماق (صارم الدين إبراهيم ابن محمد بن أيدمر العلائى ت ٨٠٩هـ/ ١٤٠٦م) طلب العلم وأحب الأدب واشتغل به ، ثم حبب إليه التاريخ فكتب فيه كثيراً من المؤلفات (٣) ، وعلى الرغم من غزارة كتابات ابن دقماق فى التاريخ وغيره ، فإنه لم يبق لدينا من مؤلفاته إلا القليل ، ومنها كتاب « الانتصار لواسطة عقد الأمصار » وقد ذكره حاجى خليفة فى كتابه « كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون » مشيراً إلى أنه فى عشر مجلدات ، نشر منها المجلدين الرابع والخامس عن نسخة بخط مؤلفها تحتفظ بها دار الكتب المصرية تحت رقم ١٢٤٤ تاريخ ، وهذا الكتاب يتضمن استعراضاً واضحاً لخطط مصر منذ نشأتها ، وذكر أحيائها وأسواقها ، ورحابها ، ومساجدها ومعاهدها وأبنيتها ، وأديارها ، وكنائسها ، كما يتضمن الحديث عن كثير من كور مصر وأعمالها الأخرى فى الوجهين القبلى والبحرى غير أنه لايتضمن كثيراً عن خطط القاهرة (٤) .

أما كتاب « الجوهر الثمين فى سير الخلفاء والملوك والسلاطين » ففيه يعطى بعض الخطوط العريضة لحال الدولة الإسلامية فى أطوارها المختلفة ، وعلى مدى ثمانية قرون من الزمان ، ولكن بصورة موجزة للغاية مع عرض لتراجم الخلفاء الراشدين وخلفاء الدولة الأموية والعباسية والفاطمية ، ثم سلاطين الأيوبيين والمماليك ، وقد قام بتحقيق هذا الكتاب الأستاذ محمد كمال الدين عز الدين على ،

---

(١) الذهبى : العبر ج ٣ / ص ٣٧٨ ، ابن العماد . شذرات الذهب ج ٥ / ص ٤٢١ .

(٢) محمد عبد الله عنان : مصر الإسلامية ص ٤٦ .

(٣) ابن دقماق : الجوهر الثمين ج ١ / ص ٧ .

(٤) انظر . ابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الامصار – طبعة دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، وهى طبعة غير محققة .

وصدرت طبعته الأولى عن عالم الكتب سنة ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م .

وفى طليعة مؤرخى مصر فى القرن التاسع الهجرى يأتى المقريزى (تقى الدين أحمد بن على ابن عبد القادر بن محمد بن إبراهيم بن تميم بن عبد الصمد (٧٦٦ - ٨٤٥ هـ/ ١٣٦٤ - ١٤٤١م) قد اشتهر بالمقريزى نسبة إلى حارة فى بعلبك تعرف بحارة المقارزة ، ولى حسبة القاهرة سنة ٨٠١ هـ/ ١٣٩٩م ثم عزل عنها وتولاها بدر الدين العينى ، ثم أعيد إليها مرة أخرى سنة ٨٠٧ هـ/ ١٤٠٥م رغماً عنه بعد مراجعة السلطان له ثلاث مرات ، وقد ولى خطابة جامع عمرو بن العاص . ونظر جامع الحاكم والإمامة به ، ودخل دمشق مع الناصر سنة ٨١٠ هـ/ ١٤٠٨م وعاد معه ، ثم زهد فى الوظائف العامة ، واستقرّ فى القاهرة وتفرغ إلى البحث والكتابة ، وخصّ مصر وأخبارها وآثارها بأعظم قسط من جهوده ومباحثه ، وكتب فى ذلك عدة مؤلفات جليلة وكتب فى نواحٍ أخرى من تاريخ الإسلام (١) ومن أهم مؤلفاته التى كتب فيها عن مصر الاسلامية نذكر ما يلى : -

كتاب « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » المعروف بالخطط المقريزية ، وقد بين الغرض من تأليف هذا الكتاب فقال إنه « جمع فيه ما تفرّق من أخبار أرض مصر وأحوال سكانها كى يلتئم من مجموعها معرفة أخبار إقليم مصر » وأورد فيه الكثير من التراجم والأخبار وقسمه سبعة أجزاء : (٢) .

الجزء الأول : يشتمل على أخبار مصر وأحوال نيلها وخَرَاجها وجبالها .

الجزء الثانى : يشتمل على الكثير من مدن مصر وأجناس أهلها .

أجزاء الثالث : يشتمل على أخبار فسطاط مصر ، ومن ملكها .

الجزء السادس : يتضمن ذكر القلعة وملوكها .

الجزء السابع : يذكر فيه الأسباب التى نشأ عنها خراب إقليم مصر

وقد طبعت خطط المقريزى فى مصر سنة ١٢٧٠ فى مجلدين كبيرين ، وأعيد طبعه بعد ذلك ، وللمقريزى كتاب « عقد جواهر الأسفاط فى أخبار مدينة الفسطاط » ويتناول فيه تاريخ مصر من الفتح العربى سنة ٢١هـ/ ٦٤١م إلى سقوط الإخشيديين سنة ٣٥٨هـ/ ٩٦٩م (٣) . وتلاه بكتاب « اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا » وقد نشره المجلس الأعلى للشئون الإسلامية فى ثلاثة أجزاء .

---

(١) ابن فهد : معجم الشيوخ ص ٦٣ ، السيوطى : حسن المحاضرة ج١/ ص ٥٧٧ السخاوى : الضوء اللامع ج٢/ ص ٢١ ، الشوكانى . البدر الطالع ج١/ ص ٧٩ .

(٢) المقريزى . الخطط ج١/ ص ٤ .

(٣) د . على إبراهيم حسن : استخدم المصادر وطرق البحث ص ١٧٤ .

الجزء الأول : يبدأ فيه بذكر ثبت كامل لأولاد على بن أبى طالب من نسل الحسن والحسين وعرض بعد هذا لمشكلة النسب الفاطمى ، ثم انتقل إلى الحديث عن قيام الدولة الفاطمية فى المغرب ، وذكر جهود الدعاة الأوائل من أمثال أبى سفيان والحلوانى ، ورحلة أبى عبد الله الشيعى من اليمن إلى المغرب ثم انتقال عبيد الله المهدى من سلميه بالشام إلى المغرب ثم تناول تاريخ الخلفاء الفاطميين الأربعة الذين حكموا فى المغرب وتحدث بعد هذا عن الفتح الفاطمى لمصر وتأسيس مدينة القاهرة وبناء الجامع الأزهر . وعرض لخطر القرامطة الذى كان يهدد مصر آنذاك ، وأفرد فصلاً لكل من الخليفتين الأولين فى مصر - المعز والعزيز - تحدث فيه عن شخصية كل واحد منهما وعصره ، وأهم الأحداث الداخلية والخارجية فى عهده وبانتهاء عهد العزيز ينتهى هذا الجزء الذى قام على تحقيقه الدكتور جمال الدين الشيال .

الجزء الثانى : ويتناول هذا الجزء تاريخ الدولة الفاطمية على امتداد فترة زمنية طويلة منذ تولى الحاكم بأمر الله الخلافة فى أواخر شهر رمضان سنة ٣٨٦ هـ/ ٩٩٦ م إلى نهاية سنة ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م وهى السنة التى توفى فى أواخر شهورها الخليفة الفاطمى المستنصر بالله وقد شهدت هذه السنوات تعاقب ثلاثة من الخلفاء الفاطميين على عرش الخلافة فى مصر الحاكم بأمر الله ، والظاهر لإعزاز دين الله ، والمستنصر بالله . ولا تحظى هذه السنوات الطوال من المقريزى برعاية متعادلة ، فهو يختص بعضها بحديث مسهب مطول بينما بعضها الآخر يتناوله فى إيجاز واختصار وقام على تحقيق هذا الجزء الدكتور محمد حلمى محمد أحمد .

الجزء الثالث : ويشمل الأحداث التى وقعت بمصر زمن الفاطميين من سنة ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م إلى سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧٢ وتولى الخلافة فيها ستة من الخلفاء الضعاف الذين تركوا مركز الصدارة للوزراء العظام الذين صاروا يتحكمون فى الأمور تحكماً مستبداً لا يبالون برأى الخليفة ، ولا يقيمون له وزناً . وقد حقق هذا الجزء أيضا الدكتور محمد حلمى محمد أحمد .

وبعد أن أتمّ المقريزى الحديث عن الفاطميين ، وضع كتابه « السلوك لمعرفة دول الملوك » وهو يحتوى تاريخاً مفصلاً لدولتى الأيوبيين والمماليك فى مصر منذ سنة ٥٧٧ هـ/ ١١٨٨م إلى سنة ٨٤٤ هـ/ ١٤٤١م كتبه بطريقة الحوليات ، وقام بنشر الجزأين الأول والثانى والتعليق عليهما الدكتور محمد مصطفى زيادة وقد صدر كل جزء فى ثلاثة أقسام ، وأتمّ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور نشر بقية أجزاء الكتاب وقد صدر فى جزأين ، وكل جزء ينقسم إلى ثلاثة أقسام .

وقد كتب المقريزى هذا الكتاب ليكون خاتمة مؤلفاته فى تاريخ مصر . فيقول فى مقدمته : « أما بعد ، فإنه لما يسّر الله ، وله الحمد ، بإكمال كتاب عقد جواهر الأسفاط من أخبار مدينة الفسطاط ، وكتاب اتعاظ الحنفا بأخبار الخلفاء ، وهما يشتملان على ذكر من ملك مصر من الأمراء والخلفاء ، وما كان فى أيامهم من الحوادث والأنباء منذ فتحت ، وإلى أن زالت الدولة الفاطمية وانقرضت ، أحببت أن أصل ذلك بذكر من ملك مصر بعدهم من الملوك الأكراد الأيوبية والسلاطين المماليك التركية والجركسية فى كتاب يحصر أخبارهم الشائعة ، ويستقصى أعلامهم الذائعة » (١) .

وللمقريزى كتاب التاريخ الكبير المقفى فى تراجم أهل مصر والواردين اليها « وهو عبارة عن تراجم مستوفاة لمشاهير الرجال وبعض النساء من المسلمين والنصارى ، وقد رتبه على حروف المعجم ، والكتاب لا يقتصر على أبناء مصر المقيمين بها ولا على من دخلها فاستقر بها ، ففيه من نشأوا بمصر، وتحولوا عنها ، ورجال عبروها عبورا كمئات الأندلسيين والمغاربة الذين مروا بها فى طريقهم الى الحج، وتوقفوا بها مدة لسماع حديث أو نسخ كتاب ، ويلاحظ أن تراجم الفقهاء والصالحين تفوق فى العدد تراجم الحكام والأمراء والقواد ، ومما هو جدير بالذكر أن المقريزى مات قبل أن يتم هذا الكتاب وقد قام على تحقيق الأجزاء الباقية منه الأستاذ محمد اليعلاوى ، وصدرت الطبعة الأولى عن دار الغرب الإسلامى بيروت ١٤١١ هـ/ ١٩٩١ م فى ثمانية أجزاء يتناول التراجم مرتبة ترتيباً أبجدياً من حرف الهمزة إلى حرف الميم .

أما كتاب « إغاثة الأمة بكشف الغمة » فهو يتناول تاريخ المجاعات التى نزلت منذ أقدم العصور إلى سنة ٨٠٨ هـ/ ١٤٠٦م وهى السنة التى وضع المقريزى فيها كتابه هذا ، وقد عنى فيه بأسباب المحن والمجاعات التى مرت بها مصر ، وباستقصاء الناحيتين الاقتصادية والاجتماعيه من تاريخ مصر فى ذلك العصر وقد قام على تحقيق هذا الكتاب لأول مرة الدكتور جمال الدين الشيال بالاشتراك د ع الدكتور محمد مصطفى زيادة وصدرت الطبعة الأولى منه سنة ١٩٤٠م وطبع ثانية سنة ١٩٥٧م .

والحقيقة أن المقريزى يعد بحق رائد المدرسة التاريخية المصرية التى ازدهرت خلال القرن التاسع الهجرى ، واهتمت بتاريخ مصر الإسلامية ، وبذلت فيه أروع جهودها وتخرج منها كثير من المؤرخين من أمثال بدر الدين العينى ، وابن تغرى بردى ، والسخاوى وابن إياس .

أما ابن حجر العسقلانى (شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن عل بن محمد ت ٨٥٢ هـ/

---

(١) المقريزى السلوك ج ١ ق ١ ص ٩ .

١٤٤٩م)(١) فله كتاب « رفع الإصر عن قضاة مصر » وقد ترجم فيه لبعض قضاة مصر الإسلامية ترجمة وافية كشفت عن كثير من نواحي النظام القضائي في مصر ، ورتبه على حسب حروف المعجم وقد استقى معلوماته من كتابي « تاريخ الولاة والقضاة » للكندي ، و« تاريخ قضاة مصر » لابن زولاق وقد ورد في هذا الكتاب أسماء قضاة مصر الإسلامية من القرن الأولى الهجري إلى منتصف القرن التاسع ، والكتاب إلى جانب تأريخه للقضاء يلقي الضوء على الحياة الاجتماعية في مصر آنذاك ، ويصور جوانب مختلفة من الحياة العامة في تلك العصور وقد أخرج قسم نشر التراث بدار الكتب المصرية هذا الكتاب سنة ١٩٥٦م .

وكتب ابن الجيعان (شرف الدين يحيى بن علم الدين شاكر ت ٨٥٥ هـ/ ١٤٥١م) كتاب « التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية » وهو عبارة عن ثبت بالأقاليم المصرية ومواضعها وأنواع أراضيها وفيه ذكر أسماء البلدان ، ومساحتها بالفدان مرتبة على حروف الهجاء حتى سنة ٧٧٧ هـ/ ١٢٧٥م ويكاد يكون هذا الكتاب أوفى مصدر في هذا الموضوع (٢) .

وممن عاصر المقريزي وساهم بمجهود وافر في التاريخ لمصر الإسلامية بدر الدين العيني (محمود بن أحمد بن موسى ، قاضي القضاة ت ٨٥٥/١٤٥١م) كان مقرباً من الملك الظاهر وتولى الحسبة خلفاً للمقريزي ، ثم أخذها المقريزي ، ويروي المؤرخون أنهما قد تناوباها أكثر من مرة ، وقد تولى العيني قضاء الحنيفة ثم اعتزل الأعمال وتفرغ للتأليف ولا سيما التاريخ (٣) وله مؤلفات عدة وصلتنا منها « عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان » وهو موسوعة حافلة بحوادث التاريخ الإسلامي بوجه عام وتاريخ مصر الإسلامية بوجه خاص ، وهو يشتمل على فترة زمنية طويلة تبلغ ثمانية قرون ونصف من الهجرة حيث وصل فيه إلى سنة ٨٥٠ هـ ، ورغم أهمية المعلومات التي ذكرها العيني عن الفترة السابقة لعصره ، فإن المعلومات التي عاصرها لها أهمية كبرى حيث يؤرخ للأحداث عن مشاهدة ومشاركة ومعاينة ، وقد أصدرت الهيئة المصرية العامة للكتاب أربعة أجزاء من هذا الكتاب قام على تحقيقها الدكتور محمد محمد أمين ، كما قام الدكتور عبد الرازق الطنطاوي بتحقيق جزء يحتوي على الحوادث والتراجم من سنة ٨١٥ هـ الى سنة ٨٢٤ هـ .

وللعيني كتاب « السيف المهند في سيرة الملك المؤيد ، شيخ المحمودي » ورغم أن هذا الكتاب عنوانه سيرة الملك المؤيد لكن دور المؤيد في أكثر فصوله لا يعدو أن يكون مدخلاً لعديد من الدراسات

---

(١) السيوطي : نظم العقيان ص ٤٥ – ٥١

(٢) د . علي إبراهيم حسن : استخدام المصادر وطرق البحث ص ١٨٣ .

(٣) السيوطي : نظم العقيان ص ١٧٤ ، ابن فهد : معجم الشيوخ ص ٦٥

يمكن أن يضمها كتاب واحد ، وقد يشعر القارئ أنها بعيدة كل البعد عن حياة هذا السلطان ، ولقد قام بتحقيق هذا الكتاب الأستاذ فهيم محمد شلتوت ، وراجعه الدكتور محمد مصطفى زيادة ، وصدر عن المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٦٧م .

ومن تلامذة المقريزى المؤرخ ابن تغرى بردى (أبو المحاسن جمال الدين يوسف ت سنة ٨٧٤هـ/ ١٤٦٩) (١) وقد تلقى العلم فى القاهرة على المقريزى وغيره (٢) ، وقد ترك عدة مؤلفات اقتفى أثر أستاذه فيها ومن أهمها كتابه « النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » وهو تاريخ مصر من الفتح الإسلامى إلى الدولة الأشرفية سنة ٨٥٧ هـ ، وقد تناول فيه أخبار البلاد المجاورة لمصر والحوادث المهمة فيها . وترجم لولاتها وخلفائها وسلاطينها وحكامها ، وقد جاء مرتباً على السنين ، وفى آخر كل سنة تراجم من مات فيها واهتم ببحث منسوب النيل وسجل الزيادة أو النقصان فيه .

ويعد هذا الكتاب من أمتع كتب التاريخ وأعظمها نظراً لكثرة المعلومات التى وردت فيه والمستقاة من مصادر كثير من المؤرخين الذين سبقوه وكثير منهم ضاعت مؤلفاتهم ولأهمية هذا الكتاب فقد أمر السلطان سليم الأول العثمانى عندما فتح مصر بترجمته إلى التركية ، وتولى ذلك شمس الدين أحمد بن سليمان قاضى العسكر فى الأناضول آنذاك وقد نشرت دار الكتب المصرية أجزاء كثيرة من هذا المؤلف الضخم فى عدة مجلدات (٣) .

أما كتاب ابن تغرى بردى المسمى « المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى » فهو معجم لمشاهير الرجال . جمع فيه تراجمهم منذ سنة ٦٥٠ هـ إلى آخر أيام المؤلف ، وقد اختصر هذا الكتاب وأسماه «الدليل الشافى على المنهل الصافى» وجعل لهذا المختصر مختصرا أسماه « مورد اللطافة فى ذكر من ولى السلطنة والخلافة » (٤) .

ووضع أبو المحاسن كتاب « حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور » وجعله ذيلاً على كتاب السلوك للمقريزى ، بدأ به حيث انتهى المقريزى إلى سنة ٨٤٥ هـ فامتد به أبو المحاسن إلى سنة ٨٧٤ هـ ، لكنه خالف المقريزى فى طريقته فأسهب فى ذكر التراجم الا ما جاء فى المنهل الصافى (٥) .

(١) السخاوى الضوء اللامع ج ١٠/ ص ١٧٨ ، الشوكانى . البدر الطالع ج ٢/ ٣٥١ ، ابن العماد : شذرات الذهب ج ٧/ ص ٣١٧

(٢) جرجى زيدان تاريخ آداب اللغة العربية ج ٣ / ص ١٩٤ .

(٣) المرجع السابق .

(٤) د على إبراهيم حسن . استخدام المصادر وطرق البحث ص ١٨٩ .

(٥) المرجع السابق ص ١٩٠

ومن تابع جهود المقريزى المؤرخ السخاوى (الحافظ شمس الدين محمد بن زين الدين عبد الرحمن بن محمد بن أبى بكر بن عثمان القاهرى الشافعى ت ٩٠٢ هـ/ ١٤٩٧) (١) .

وقد سمى بالسخاوى نسبة إلى بلدة سخا الحالية بمحافظة كفر الشيخ ، ومن أهم كتبه « الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع » وهو معجم تراجم لمشاهير القرن التاسع الهجرى ، وكتاب « التبر المسبوك فى ذيل السلوك » فى أربعة أجزاء ، وقد جعله ذيلاً لكتاب « السلوك » للمقريزى ، وهو تاريخ يسجل فيه الأحداث يوماً بيوم فإذا انتهت السنة ذكر تراجم مَنْ توفى فيها ، وقد ألمّ فيه بتاريخ مصر من سنة ٨٤٥ هـ / ١٤٤١ إلى سنة ٨٥٧ هـ/ ١٤٥٢م وقد طبع هذا الكتاب فى مصر (٢) .

ويعد السيوطى (جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر بن محمد ٨٤٩ - ٩١١هـ/١٤٤٥ - ١٥٠٥م) أحد العلماء الذين برعوا فى علوم الدين والأدب والتاريخ ، وألف فيها جميعاً عشرات الكتب والرسائل (٣) ، ومن أشهر مؤلفاته التاريخية كتاب « حُسْن المحاضرة فى أخبار مصْر والقاهرة » جمع فيه ثمانية وعشرين كتاباً من الكتب المؤلفة فى أخبار مصر فلخصها ، وعرض من خلالها لنواحٍ عدة من تاريخ مصر السياسى والاجتماعى والأدبى ، وبعض خواص مصر وعجائبها وآثارها ، وذكر من دخلها من الصحابة والتابعين وذكر امرائها وحفاظها وفقهائها وعلمائها ثم ملوكها وعساكرهم ثم ذكر نيلها وبعض مدنها وأمهات المدارس والخوانق فيها .

ومن تلامذة السيوطى المؤرخ ابن إياس (أبو البركات محمد بن أحمد ٨٥٢ - ٩٣٠ هـ/ ١٤٤٨ - ١٥٢٣م) (٤) وله كتاب « بدائع الزهور فى وقائع الدهور » وهو يتناول تاريخ مصر منذ بدء التاريخ إلى سنة ٩٢٨ هـ/ ١٥٢٢ م أى قبل وفاته بعامين ، ويعرف هذا الكتاب أيضاً بتاريخ مصر لابن إياس ، وقد جعله مرتباً على السنين والأشهر ، وبدأه بمقدمة فى وصف مصر وخلاصة أخبار الفتح الإسلامى وما توالى عليها من الدول إجمالاً إلى سلطنة الملك الظاهر بيبرس ثم أطال فى ذكر الحوادث من سنة ٦٦٩ هـ إلى سنة ٩٢٨ هـ ، والكتاب له أهمية فى تاريخ مصر وخاصة الفترة الأخيرة من عصر المماليك الجراكسة ، والسنوات الأولى من حكم العثمانيين ، لأن المؤلف كان فيه شاهد عيان رأى ووصف ويكاد

---

(١) السيوطى . نظم العقيان ص ١٥٢ ، الشوكانى : البدر الطالع ج ١٢ / ص ١٨٤ .

(٢) جورجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ج ٣ / ص ١٨٤ . د . على إبراهيم حسن : استخدام المصادر ص ١٩٢ .

(٣) السخاوى : الضوء اللامع ج ١٤ / ص ٢٠٣ ، الشوكانى : البدر الطالع ج ١ / ص ٣٢٨ .

(٤) جورجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ج ٣ / ص ٣٢٠ - ٣٢١ .

يكون هو المؤرخ الوحيد الذى كتب عن تاريخ هذه الفترة وقد قام بتحقيق هذا الكتاب الأستاذ محمد مصطفى وأخرجته الهيئة المصرية للكتاب بالقاهرة سنة ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م فى ستة سجلدات وتعتبر الطبعة الثانية لأن الطبعة الأولى صدرت سنة ١٩٨٥م ضمن سلسلة النشرات الإسلامية التى تصدرها جمعية المستشرقين الألمانية .

وبعد ، فهذه نظرة إجمالية على بعض مصادر تاريخ مصر الإسلامية تتناول الفترة التى سنلقى عليها الضوء من خلال هذه الدراسة التى تنقسم إلى تمهيد وسبعة فصول .

تناول التمهيد التعريف بأهم المصادر لتاريخ مصر الإسلامية وتناول الفصل الأول الحديث عن الفتح العربى الاسلامى لمصر ونوه بحالة مصر قبل الفتح الإسلامى ثم نجاح عمرو بن العاص فى هزيمة الروم (البيزنطيين) والاستيلاء على معاقلهم وحصونهم وفتح مصر وأهم المنشآت الاسلامية التى أقيمت آنذاك .

والفصل الثانى وعنوانه « مصر فى عصر الولاة » وعنى بإبراز دور مصر فى الأحداث بعد أن أصبحت ولاية عربية إسلامية .

والفصل الثالث وعنوانه « قيام الإمارات المستقلة فى مصر » وقد تناول الحديث عن الدولتين الطولونية والإخشيدية وعلاقاتهما بالخلافة العباسية .

والفصل الرابع وعنوانه « قيام الخلافة الفاطمية فى بلاد المغرب » وقد تناول نشأة الشيعة ثم تطورها وتعددها إلى فرق مختلفة ومنها الدعوة الاسماعيلية والدور الكبير الذى قام به دعاتها فى سبيل قيام الدولة الفاطمية ، ثم توطيد الفاطميين لمركزهم وسلطانهم ببلاد المغرب .

والفصل الخامس وعنوانه « انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر » ويتناول أسباب اهتمام الفاطميين بمصر وحملاتهم المتكررة عليها ثم نجاحهم فى فتحها زمن الخليفة الفاطمى المعز لدين الله وسياسة الفاطميين تجاه مصر والمصريين .

والفصل السادس وعنوانه « الأيوبيون فى مصر » ويتناول الحديث عن قيام الدولة الأيوبية على يد صلاح الدين الأيوبى وسياسته لبناء الجبهة الإسلامية الموحدة ثم جهاده ضد الصليبيين ، ثم حالة الدولة بعد وفاته .

والفصل السابع وعنوانه : من النواحى الحضارية فى مصر الإسلامية » وتناول الحديث عن النواحى الاقتصادية (زراعة – صناعة – تجارة) ثم الناحية الفكرية .

الفصل الأول
الفتح العربى الإسلامى لمصر

حالة مصر قبيل الفتح :

كانت مصر آخر دولة فى حوض البحر المتوسط سقطت فى أيدى الرومان عقب معركة أكتيوم سنة ٣١ ق . م ، والتى انتصر فيها جيش الإمبراطور أوغسطس قيصر مؤسس الإمبراطورية الرومانيةبقيادة أوكتافيوس على جيوش أنطونيوس وكليوباترا ملكة مصر ثم دخول القائد أوكتافيوس إلى مصر التى صارت بذلك إحدى الولايات الرومانية الخاضعة للإمبراطور الرومانى الذى وضع على رأس السلطة المركزية فى مصر حاكماً عاماً مقره الإسكندرية، وكانت عاصمة البلاد آنذاك (١) .

وكان هذا الحاكم يقوم بجميع سلطات الإمبراطور ، فهو الحاكم الفعلى للبلاد ، وهو الرئيس الإدارى ، وقائد الحامية الرومانية ، والقاضى الأعلى لجميع أنواع القضايا ، وهو يستمد سلطته من الإبراطور الذى يعينه ، فهو بمثابة نائب الإمبراطور فى الولاية وكان يعين سائر الموظفين فى جميع المستويات الإدارية عدا كبار الموظفين الذين كانوا يعينون بواسطة الإمبراطور (٢) .

ولما انقسمت الإمبراطورية الرومانية الكبرى إلى قسمين ، كانت مصر من أراضى الإمبراطورية الرومانية التى عرفت باسم امبراطورية الروم ، وفى عهدهم عانت مصر من الاضطراب الإدارى فى البلاد ، وانهيار الروابط الإدارية بين رجال تلك الإدارة وعمالها .

وكانت الإدارة البيزنطية تتبع نفس القواعد الرومانية فى إبعاد أبناء البلاد عن المجالس السياسية والتشريعية ، وإهمال كل صوت يحاول رفع الظلم عن أهله والاهتمام بجمع الأموال ، وفرض الضرائب دون مراعاة لصالح البلاد أو رعاية شئون أبنائها (٣) .

وتعد الناحية الاقتصادية من أهم المظاهر التى تجلت فيها سوء أحوال مصر قبيل الاسلام ، إذ

---

(١) د . آمال الروبى : مصر الرومانية ص ٣٢ .

(٢) المرجع السابق : ص ٢٤١ - ٢٤٢ .

(٣) د . إبراهيم العدوى : نهر التاريخ الإسلامى ص ١٧٠ .

سارت الإمبراطورية البيزنطية على منهج الإمبراطورية الرومانية ، واعتبرت مصر مجرد مخزن للغلال وأهل مصر مجرد أدوات لإنتاج القمح للإمبراطورية وأن رجال الإدارة عليهم ابتزاز الأموال من الرعية

وواجه المصريون التزامات ضريبية كبيرة ، وصارت الضرائب مصدر شكوى عامة من جميع المصريين بمختلف طبقاتهم ، فقد كان الإنسان المصرى مطالباً بكثير من الضرائب العينية والنقد المستحقة عليه للدولة سنوياً (١) .

ويأتى على رأس الضرائب ضريبة القمح التى كانت تعد من أهم الضرائب ، وقد تراوح مقدار الضريبة على الفدان بين أردبين ونصف إلى خمسة أرادب ، ويدفع المصرى ضريبة الرأس على من بلغ الرابعة عشرة من عمره إلى الستين ، ويعفى من هذه الضريبة مواطنو الروم المقيمون بمصر وأيضاً الجنود الإغريق وعدة من القساوسة فى كل معبد (٢) .

وكانت هناك ضرائب على الماشية والأملاك العقارية ، ومافيها من متاع ، وعلى بيع هذه الممتلكات ، وضرائب على أنواع الحرف المختلفة ، وكان على الداخل إلى مصر والمتنقل بين انحائها أن يدفع ضريبة مقررة بالإضافة إلى الضرائب على السلع والتركات وعتق الرقيق وقرابين المعابد ، ولتقديم الهدايا للإمبراطور عند ارتقائه العرش (٣) .

وازدادت الحالة الاقتصادية فى مصر سوءاً فقد أهمل نظام الرى ، وأصبح عمل الزراع غير مجدٍ ، ورغم هذا لم تنقص الحكومة الضرائب المفروضة مما أثّر تأثيراً كبيراً على الإنسان المصرى الذى لم يعد قادراً على تحمل أعباء المعيشة ، ولم يجد أغلب المصريين مخرجاً من محنتهم إلا الهروب إلى المعابد فى الصحراء وفرّ كثير من الزراع وتركوا أراضيهم دون زراعة (٤) ، بينما زيدت الضرائب على من بقى فاضطر كثير منهم إلى التنازل عن أراضيهم لأصحاب النفوذ من الملاك والأثرياء كى يعيشوا تحت حمايتهم مما أدى إلى ظهور الإبعاديات الاقطاعية التى يمتلكها كبار الأسر والحكام من الأجانب الذين لا ينتسبون إلى البلاد وقد تحولوا بدورهم إلى أدوات ضغط وسيطرة على المصريين ،

---

(١) د . إبراهيم العدوى : مصر الإسلامية ص ٥ .

(٢) د . آمال الروبى : مصر الرومانية ص ١٩٤ .

(٣) د . حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى ج ١ / ص ٢٣٦ .

(٤) د . إبراهيم العدوى : مصر الإسلامية ص ٦ .

وشيدوا السجون ليلقوا فيها بكل من يحاول معارضتهم أو التقليل من نفوذهم ، وظل أبناء مصر يعانون من ظلم هذا العهد البيزنطى دون أن يجدوا سبيلاً للعدالة والانصاف (١) .

أما من الناحية الدينية فقد كانت مصر كغيرها من الولات الرومانية تدين بالدين الوثنى إلى أن ظهرت دعوة السيد المسيح عليه السلام ، فكانت مصر فى مقدمة البلاد التى تسربت إليها المسيحية فى القرن الأول الميلادى على يد القديس مرقص (٢) واعتنقها كثير من المصريين الذين رفضوا عبادة الأباطرة رفضاً شديداً ، فقابل الأباطرة هذا الرفض بالاضطهاد والتنكيل ، واعتبروا المسيحيين ثواراً على الدولة يجب القضاء عليهم وأخذوا يتعقبونهم فى كل مكان ، لكن المسيحية انتشرت برغم هذه القسوة ، وكان انتشارها سريعاً ، واشتد التعذيب والاضطهاد للمسيحيين ، وخاصة فى عهد الامبراطور دقلديانوس (٢٨٤ - ٣٠٥ م) (٣) الذى أصدر فى الفترة ما بين سنتى ٣٠٢ ، ٣٠٥ أربعة مراسيم تحث على تعذيب واضطهاد المسيحيين ، وحرق الأناجيل والكتب الدينية ، ومنع المسيحيين من التجمع أو القيام بأى صلوات أو طقوس دينية وقتل الرجال والنساء والأولاد الذين رفضوا تقديم القرابين للآلهة الوثنية (٤) .

وكان وقع الاضطهاد شديداً على المسيحيين فى مصر نظراً لكثرة ما سفك من دمائهم فى عهد ذلك الامبراطور ، فاتخذت الكنيسة فى مصر من سنة ٢٤٣ م وهو تاريخ تولية دقلديانوس الحكم بداية للتاريخ القبطى ، وسمى عصره بعصر الشهداء لكثرة من قتل فى زمنه (٥) .

لكن الصراع بين الإمبراطورية والمسيحية توقف فى عهد الإمبراطور قسطنطين الكبير (٣٢٤ - ٣٣٧م) الذى اعترف بها فى الإمبراطورية (٦) .

وفى سنة ٣٨٠م صارت المسيحية الدين الرسمى للإمبراطزرية لكن المسيحيين فى مصر لم

---

(١) المصدر السابق .

(٢) د . آمال الروبى : مصر الرومانية ص ٢٢٨ .

(٣) د . أحمد مجاهد : مصر فى ظلال العباسيين ص ٨ .

(٤) د . حسنين ربيع : دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية ص ٢٢ .

(٥) المرجع السابق .

(٦) د . أحمد مجاهد : مصر فى ظلال العباسيين ص ٨ .

ينعموا بهذا التطور ، إذ وقع بينهم وبين الإمبراطورية خلاف كبير تمثل فى الجدل الدينى حول طبيعة السيد المسيح عليه السلام ، فقد كان أحد كهنة كنيسة الإسكندرية ويدعى « أريوس » يقول : بأن المسيح مخلوق بشر وأنه أقل من الأب فى الجوهر ، وبالتالى فإنه أقل منه مرتبة كما ذكر أنه لابد أن يكون هناك وقت لم يكن فيه المسيح مخلوقاً وكان الله الخالق وحده هو الموجود ، وأنكر « أريوس ألوهية المسيح ، وأنكر صفة الشبه بين الأب والابن وأثار بذلك انقساماً فى العالم المسيحى نظراً لأن الكنيسة فى القسطنطينية كانت تقول أن للمسيح طبيعتين لاهوتية ناسوتيه معاً (١) .

واشتد النزاع ، وخلق هوة سحيقة بين الطرفين ، وخاصة بعد تدخل الامبراطور (٢) الذى دعا جميع الأساقفة فى الإمبراطورية للاجتماع فى مجمع دينى فى نيقية لبحث هذا الخلاف (٣) وفى هذا المجمع رفضت آراء « أريوس » وقرر المجتمعون أن الابن أى المسيح من نفس جوهر الأب ، وبالتالى أكدوا قدسية المسيح وأنه إله حق من إله حق (٤) .

ورفض المصريون قرارات هذا المجمع ، وشغل هذا الخلاف الأباطرة لأكثر من نصف قرن من الزمان ، ظلت فيه الضربات توجه ضد أصحاب المذهب الأريوسى الذى يقول ان للسيد المسيح طبيعة واحدة .

واشتد الاضطهاد ضد المسيحيين فى عهد الإمبراطور ثيودوسيوس الأول الذى تولى عرش الإمبراطورية سنة ٣٧٩م وشدد من هجومه على المسيحيين الأريوسيين وأصدر قراراً سنة ٣٨٠م أعلن فيه أن المسيحى الحق هو الذى يؤمن بالثالوث الأب والابن والروح القدس كما بشرت به الأناجيل وكتب الرسل ، ومن لا يفعل يتعرض للعقاب الشديد (٥) .

---

(١) د . حسنين ربيع : دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية ص ٢٨ ، ٣٢ .
د . حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ، ج ١ ص ٢٢٥ .
(٢) د . ابراهيم العدوى : مصر الإسلامية ص ٦ .
(٣) stanly, lectures on the history of the zastern church, london, 1908 . pp. 52 - 174
(٤) د . حسين ربيع : تاريخ الدولة البيزنطية ص ٣٠ .
(٥) المرجع السابق ص ٤٩ .

وفى السنة التالية دعا إلى عقد مجمع دينى فى القسطنطينية لم يشهده رجال الكنيسة المصرية أكد فيه هذا المجمع قرارات مجمع نيقية ، ورفع كنيسة القسطنطينية إلى المرتبة الثانية بعد كنيسة روما ، وتأخرت بذلك كنيسة الإسكندرية التى كانت تلى فى الشرف كنيسة روما (١) .

واشتد الخلاف مرة أخرى حينما ظهر جدل دينى حول طبيعة السيد المسيح وألوهيته معاً ، ودار الجدل الجديد فى مسألة الطبيعة البشرية فى السيد المسيح بطبيعته الإلهية وقد حاول الإمبراطور مارقيان الذى خلف الإمبراطور ثيودوسيوس الثانى أن يقضى على هذا الخلاف الدينى الذى هدد وحدة الدولة البيزنطية فدعا فى سنة ٤٥١م إلى عقد مجمع دينى فى خلقدونية بآسيا الصغرى لبحث شئون العقيدة فأقرّ هذا المجمع مذهب الطبيعتين وأنكر مذهب الطبيعة الذى تقول به كنيسة الإسكندرية، وأن هذا المذهب كفر وخروج على الدين ، كما قرر حرمان بطريق الإسكندرية من الكنيسة (٢) .

رفض المسيحيون فى مصر ، وعلى رأسهم بطريق الاسكندرية ما أقره هذا المجمع وأطلقوا على أنفسهم « الأرثوذكس » أى أتباع الدين الصحيح ، أما أتباع الكنيسة البيزنطية فقد عرفوا باسم «الملكانيين» لاتباعهم مذهب الإمبراطور (٣) .

واستمر الاضطهاد لاتباع الكنيسة الأرثوذكسيةحتى عهد الإمبراطور هرقل (٦١٠ - ٦٤١م) الذى أراد إنقاذ الإمبراطورية فأصدر حلاً يتمثل فى « صورة التوفيق » وتقضى بأن يمتنع الناس عن الكلام فى طبيعة المسيح وصفته ، وأن يشهدوا بأن له إرادة واحدة ، وأسند الرئاسة الدينية والسياسية فى مصر إلى حاكم جديد اسمه « قيرس » وقد اشتهر فى المصادر العربية باسم المقوقس (٤) .

هذا الحاكم الجديد فرض على المصريين الالتزام بمذهب التوحيد (مذهب هرقل) أو التشريد والاضهاد ، ولجأ إلى وسائل شتى لإجبار المصريين على إتباع المذهب الجديد (٥) مما اضطر البطريق

---

(١) د . حسنين ربيع : تاريخ الدولة البيزنطية ص ٤٩ .

(٢) المرجع السابق ص ٥٤ .

(٣) د . إبراهيم العدوى : مصر الإسلامية ص٧ .

(٤) المرجع السابق ص٨ .

(٥) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ص ١٠٠ .

المصرى بنيامين إلى الهرب خوفاً من بطش هذا الحاكم الذى اشتدت كراهية المصريين له (١) .

وهكذا نجد أن الأحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية التى مرت بها مصر قد تضافرت كلها وساعدت فى عملية الفتح العربى الإسلامى ، بل ومهدت له .

الفتح الإسلامى لمصر :

يعد القائد العربى المسلم عمرو بن العاص أول من فكر فى فتح مصر ، وثمة سؤال يطرح نفسه قبل الحديث عن الفتح العربى الإسلامى لمصر ، وهو : لم فكر عمرو فى فتح مصر ؟

يذكر كثير من المؤرخين أن عمرو بن العاص قام بزيارة لمصر فى الجاهلية ، (٢) فيقولون إنه أثناء إحدى رحلاته التجارية لبيت المقدس صادف أحد رجال الدين المصريين الذين أتوا لزيارة بيت المقدس ، وقد ضلّ طريقه ، وكاد يهلك عطشاً ، فأخذه عمرو معه وسقاه وآواه ، بل وأنقذه من ثعبان كاد أن يلدغه وهو نائم ، فأحب الرجل عمراً لما رآه من شهامته وكرمه ، ودعاه لزيارة مصر ليجزيه على ما قدم له من خير فاستجاب عمرو لدعوته ، مما مهد له السبيل للوقوف على الطرق المؤدية إلى تلك البلاد، ومعرفة أهم معالمها ، ويذكر المؤرخون أن عمرو بن العاص ذهب مع المصرى لمشاهدة حفل كبير فى مدينة الإسكندرية عاصمة البلاد آنذاك ، حيث كان القبط يجتمعون فى هذا اليوم من السنة ، ويرمون فيه كرة من الذهب على الجالسين ، فاذا وقعت الكرة فى كم أحدهم واستقرت فيه ، قالوا : إنه لن يموت حتى يملك مصر ، فلما جلس عمرو بينهم وألقيت الكرة ، أقبلت تهوى حتى دخلت فى كمه واستقرت به وسط دهشة الحاضرين .

ولنا تعليق على هذه الرواية فنقول : هل كان عمرو بن العاص يعلم أنه سيدخل الاسلام وأنه سوف يأتى لفتح مصر بعد ذلك ، كى يدرس طرقها ومعالمها ويعرف مدنها وأحوالها ؟

الحقيقة أنها كانت زيارة عارضة تلبية لطلب رجل الدين المصرى وربما يكون عمرو قد نسى هذه الزيارة فيما بعد .

---

(١) د . إبراهيم العدوى : مصر الإسلامية ص ٨ .

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ص ٥٢ ، الكندى : تاريخ ولاة مصر ص ١٣ ، ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ق ١ ص ٩٢ .

أما قصة الكرة فهى ضرب من الخيال ، ونوع من التنجيم لا يقره الاسلام ولا يعترف به ، كما أنه لم يثبت أن أحداً من القبط المصريين قد ملك مصر أثناء حكم الرومان لها .

ولكى ندرك لم فكر عمرو بن العاص فى فتح مصر علينا أن نتذكر أنه كان أحد القواد الأربعة الذين كلفهم الخليفة الأول أبو بكر الصديق فتح الشام (١) ، وأنه كان مكلفاً بفتح فلسطين وقد استطاع الاستيلاء على معظمها ، ثم شدد الحصار على بيت المقدس فهرب قائد حاميتها الرومانى « أريتون » الذى اشتهر باسم الأرطبون إلى مصر (٢) ، وطلب أهل المدينة الصلح على أن يتولى عقده معهم الخليفة عمر بن الخطاب نفسه ، وقد سار الخليفة إلى الشام وتسلم المدينة التى كان تسلمها إيذاناً بتسلم فلسطين كلها (٣) ، ويبدو أن قادة المسلمين بالشام وجدوا أن مصر ذات مركز استراتيجى يهيئ موقعه الجغرافى للروم شن الحملات العسكرية على المسلمين وتهديدهم فى الشام وأنها صارت محور ارتكاز القوات الحربية لإمبراطور الروم فى شرق البحر المتوسط ، بالإضافة إلى فرار الأطبون ودخوله مصر وإعادة تعبئة قواته وتنظيمها للهجوم على الشام ، مما جعلهم يفكرون فى ضرورة فتح مصر .

ولعل عمرو بن العاص أدرك أن الخليفة سوف يوافق على فتح مصر فأراد أن ينال هو هذا الشرف ، ولم تكن رغبته فى فتح مصر من أجل منفعة مادية أو مغنم شخصى ، بل كان هدفه هو نفس الهدف الذى سعى إليه المسلمون الأوائل والذى يتمثل فى الدفاع عن الإسلام والمسلمين من خطر قائم عليهم بالفعل أو خطر محتمل .

كما أن عمرو بن العاص لم يتخلف عقب إسلامه عن المشاركة فى الحياة الإسلامية بل كان له دور بارز فى كثير من الأحداث فقد عقد له النبى – صلى الله عليه وسلم – على بعض السرايا كما تولى قيادة الكتائب فى معركة ذات السلاسل ، وعينه الرسول صلى الله عليه وسلم آميراً على عمان (٤)،

---

(١) القواد الأربعة الذين كلفهم أبو بكر الصديق فتح الشام هم : أبو عبيدة بن الجراح وكانت وجهته حمص ومركز القيادة الجابية ويزيد بن أبى سفيان ووجهته دمشق ، وشرحبيل بن حسنة ووجهته وادى الأردن وعمرو بن العاص ووجهته فلسطين .

(٢) بتلر : فتح العرب لمصر ص ١٩١ .

(٣) د . جمال سرور : الدولة العربية الإسلامية وحضارتها ص ٤٦ .

(٤) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج ٢ ص ١١٠ .

فالرجل كان دائماً يشارك فى الجهاد من أجل حماية الاسلام والدفاع عن المسلمين .

لذا فإنه انتظر حتى قدم الخليفة عمر بن الخطاب إلى الجابية من أعمال دمشق سنة ١٨هـ/ ٦٣٩م ويادره بطلب الإذن لفتح مصر ، خاصة وأن قواته كانت تلاصق حدود مصر بعد أن فرغ من فتح فلسطين ، ولعله بين للخليفة أن استيلاء المسلمين على مصر معناه تثبيت فتوحهم فى الشام وفلسطين وتأمينها من ناحية الجنوب ، وأن بقاءها فى يد الروم يعرض العرب المسلمين فى بلاد الشام للخطر ، ومازال يعمر حتى أذن له ، وعقد له على أربعة آلاف رجل (١) .

ويدأ عمرو المسير إلى مصر بموافقة الخليفة ، وإن كان بعض المؤرخين قد ذكروا روايتين متناقضتين حول مسير عمرو إلى مصر ، علينا أن نناقشهما قبل الحديث عن الفتح ، تقول الرواية الأولى (٢) : إن عمرو بن العاص سار لفتح مصر من تلقاء نفسه مما أغضب الخليفة الذى كتب إليه يوبخه ويأمره بالرجوع إن أتاه كتابه قبل فتح مصر وجاء الكتاب عمراً وهو فى العريش ، وفيه يقول الخليفة : «من عمر بن الخطاب إلى العاص ابن العاص ، أما بعد فإنه بلغنى أنك سرت ، ومن معك إلى مصر ، وبها جموع الروم وإنما معك نفر يسير ، فإذا جاءك كتابى هذا ، فإن لم تكن بلغت مصر فارجع» .

والرد على هذه الرواية نقول : لا يستطيع عمرو بن العاص أن يتحرك من تلقاء نفسه ، وهو القائد العربى الذى انصهر فى بوتقة الإسلام وتعلم فيه النظام والطاعة كما أنه يعلم من هو ابن الخطاب ، ويدرك أنه الخليفة القوى فى الحق ، الذى كان يحاسب ولاته حساباً شديداً إذا وجد أنهم أهملوا أو قصروا فى أعمالهم ، أو أساءوا استخدام سلطتهم ، فكيف لعمرو بن العاص أن يفعل ذلك دون موافقة صريحة منه ؟ !

أما الرواية الثانية (٣) فتذكر أن عمرو بن العاص ما أن تلقى موافقة الخليفة حتى جدّ بالمسير فى جوف الليل ، فلما عاد عمر بن الخطاب إلى الحجاز ، وعرض على أهل الحل والعقد بها قراره

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ص ٨٠ .

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢١٤ ، الكندى : تاريخ ولاة مصر ص ١٤ .

(٣) ابن عبد الحكم · فتوح مصر والمغرب ص ٨٠ - ٨٢ .

ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ١ ق ١ ص ٩٤ ، المقريزى . الخطط ج ١ / ص ٢٨٨ - ٢٨٩ .

بفتح مصر ، قال له عثمان بن عفان محذراً : « يا أمير المؤمنين إن عمراً لمجرأ وفيه إقدام وحب للإمارة، فأخشى أن يخرج فى غير ثقة ولا جماعة فيعرض المسلمين للهلكة رجاء فرصة لا يدرى تكون أم لا ، وأثار قول عثمان بن عفان مخاوف الخليفة وكتب إلى ابن العاص كتاباً جاء فيه : « إن أدركك كتابى هذا قبل أن تدخل مصر فارجع إلى موضعك ، وإن كنت دخلت فامض لوجهك » ، وخرج رسول الخليفة بهذا الكتاب مسرعاً يريد اللحاق بجيش عمرو بن العاص فوصل إليه قبل دخوله حدود مصر لكن عمراً شعر بالخوف من كتاب الخليفة فتباطأ فى استلامه حتى يصل إلى مكان يستريح فيه من عناء السفر ، فلما وصل إلى الوادى الصغير الذى يقع عند العريش أخذ الكتاب وقرأه ، ثم التفت إلى من حوله قائلاً : أنحن بمصر أم بالشام ؟ فقالوا له : نحن بمصر ، فقرأ عليهم كتاب الخليفة ، ثم قال إذن نمضى فى سبيلنا على بركة الله كما يأمرنا أمير المؤمنين .

وللرد على هذه الرواية نقول إن عمر بن الخطاب قد اشتهر بآرائه السديدة منذ عهد الرسول – صلى الله عليه وسلم ، وقد نزل الوحى مؤيداً رأيه ، فلا يمكن أن يكون أمره بفتح مصر عفوياً أو موضع تردد ، وهو الخليفة المشهور بدقته وحسن تمحيصه للأمور .

مسير الحملة إلى مصر :

سار عمرو بن العاص من قيسارية بفلسطين فى نحو أربعة آلاف جندى أواخر عام ١٨هـ/ ٦٣٩م ووصل إلى العريش فى أوائل سنة ١٩هـ/ ٦٤٠م واستولى عليها من غير مقاومة لضعف حصونها وعدم وجود حامية رومانية بها ، (١) ثم غادر العريش إلى داخل مصر مخترقاً الطريق الوحيد الذى كان يسلكه المهاجرون والفاتحون والتجار والحجاج منذ أقدم العصور . وهو طريق تكثر به المعاقل والمدن الاستراتيجية التى تكفل لمن يستولى عليها تحقيق خطته الحربية . وهذا الطريق سلكه من قبل كل من وفد على مصر من جهة الشرق أو من خرج منها فى الاتجاه المضاد فكانت طريق إبراهيم عندما سار إلى بلاد العرب ، ويوسف عندما سار من الشام إلى مصر ، وشهدت مقدم قمبيز ملك فارس حين سار لغزو مصر والإسكندر المقدونى وأسرة المسيح عليه السلام ، وهو الطريق الذى يربط مصر

---

(١) . إبراهيم العدوى : مصر الإسلامية ص ١٨ .

بالشام[1] .

ووصل جيش عمرو بن العاص إلى مدينة الفرما ، وهي مدينة قديمة ذات حصون قوية وكنائس وأديار تقع على ساحل البحر الأبيض المتوسط ، شرق بور سعيد الحالية[2] ، وكانت بمثابة مفتاح مصر آنذاك نظرا لاشرافها على الطريق القادم من الصحراء والممتد إلى نهر النيل ، وكانت بها حامية كبيرة من الروم (البيزنطيين) فكانت أول مقاومة يقابلها المسلمون في مصر فاضطروا إلى تشديد الحصار عليها أكثر من شهر حتى سقطت المدينة سنة ١٩هـ / ٦٤٠م ، فكان ذلك أول الفتح مما قوى من عزائم المسلمين في الوقت الذي أضعف من عزائم الروم ، وفت في عضدهم .

وقد ذكر المقريزي أن القبط كانوا أعوانا للعرب منذ هذا الفتح ، وأن البطريق المصرى بنيامين الذي كان مختفيا عن أعين الروم (البيزنطيين) خوفا من الاضطهاد خرج من مخبئه ، ونصح الأقباط بتلقي عمرو بن العاص ، ومد يد العون للمسلمين ضد الروم (البيزنطيين)[4] ، وليس هذا بغريب فقد لقى الأقباط المصريون الكثير من التعذيب والاضطهاد على أيدي الروم (البيزنطيين) وكانوا يصبرون على المكاره ، ويتحملون ما يصب عليهم من العذاب حتى تتاح لهم فرصة تمكنهم من القضاء على حكم الطغيان الذي اشتدت وطأته عليهم ، ووجدوا في الإسلام السبيل والفرصة المناسبة للتحرر من الطغيان بعدما سمعوا من إخوانهم في بلاد الشام عن سياسة المسلمين تجاه المسيحيين وعدلهم معهم وعطفهم عليهم وحسن معاملتهم لهم .

وباستيلاء عمرو بن العاص على الفرما فقد الروم (البيزنطيون) قاعدة أساسية من قواعد وجودهم في مصر ، وبدأوا يشعرون بخطورة موقفهم بسبب تعزيز المصريين للقوات الإسلامية ، ومساندتها في تحرير ديارهم من الظلم والطغيان .

أما القوات الإسلامية فقد اطمأنت إلى ظهرها آمناً بعد الاستيلاء على الفرما ، وخطوط مواصلتها

---

(١) د . حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام السياسي ج ١ ص ٢٢٨ ، د . إبراهيم العدوي : ص ١٨ ، ابن عبد الحكم رائد المؤرخين العرب ص ٨٠ .

(٢) المرجعان السابقان .

(٣) د . إبراهيم العدوي : مصر الإسلامية ص ١٨ .

(٤) المقريزي : الخطط ج ١ ص ٢٨٩ .

سليمة ومتصلة مع القوات الإسلامية المركزية في الحجاز ، ومن ثم أسرع عمرو بن العاص بطلب الإمدادات اللازمة من الخليفة عمر بن الخطاب ، وبخاصة بعد أن علم الروم في داخل البلاد بأخبار زحفه ، وعمدوا إلى تحصين معقلهم الرئيسي في الدفاع عن البلاد وهو حصن بابليون الذي بناه « تراجان » (٩٨ - ١١٧م) [١] الإمبراطور الروماني آنذاك ، ولقد أعقب سقوط الفرما سقوط مدينة بلبيس بعد حصار ومناوشات استمرت شهراً انتصر العرب المسلمون على الروم (البيزنطيين) وانسحبت حامية المدينة بما انضم إليها من حامية الفرما إلى حصن بابليون [٢] .

واصل عمرو بعد ذلك زحفه فاجتاز طريقاً بسهلة عبر هليوبوليس (عين شمس) إلى أم دنين وهي قرية صغيرة تقع على الضفة الشرقية لنهر النيل (في المكان الذي تشغله الآن حديقة الأزبكية) واستطاع عمرو الانتصار على جند الروم (البيزنطيين) [٣] في قرية « أم دنين » واستولى عليها حيث كانت معقلاً هاماً شمال حصن بابليون ، ثم رأى عمرو بن العاص أن من الخير ألا يترك جنوده بدون عمل حتى يصل المدد المطلوب ، فعبر النيل إلى الضفة الغربية بيستطلع موقع حصن بابليون من ناحيتها ، ثم زحف إلى الفيوم للحصول على المؤن اللازمة لجنده ، وفي أثناء ذلك بلغه نبأ وصول الإمدادات الإسلامية فعدل عن فتح مدينة الفيوم وعاد أدراجه للإتصال بالمدد [٤] ، فوجد أن الخليفة عمر بن الخطاب قد أرسل له أربعة آلاف جندي على رأس كل منها صحابي جليل قومه عمر بن الخطاب بألف رجل حين قال له في كتابه : « إني قد أمددتك بأربعة آلاف رجل على كل ألف رجل منهم رجل مقام الألف » ويبدو أن هذا القول هو الذي دعا كثير من المؤرخين إلى القول بأن عدد القوات الإسلامية قد بلغ مجموعها اثنى عشر ألف مقاتل ، بينما الحقيقة أن مجموعها قد بلغ ثمانية آلاف بوصول هذا المدد [٥] .

أما القادة الأربعة فكانوا : الزبير بن العوام ، والمقداد ابن الأسود ، وعبادة بن الصامت ،

---

(١) د . أحمد مجاهد . مصر في ظلال العباسيين ص ٢٣ .

(٢) المرجع السابق ص ١٩

(٣) د . حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج ١ / ص ٢٣٨ - ٢٣٩ .

(٤) د . أحمد مجاهد : مصر في ظلال العباسيين ص ٢٠ .

(٥) المقريزي . الخطط ج ١ / ص ٢٨٩ .

ومسلمة بن مخلد وبعض المؤرخين يقولون خارجة بن حذافة (١) .

وهكذا تكامل لعمرو بن العاص جيش من ثمانية آلاف مقاتل وصفهم عمر بن الخطاب بأنهم لا يغلبون من قلة .

وأثناء استقبال هذا المدد من الجند الإسلامى دارت مناوشات عسكرية مع الروم انتهت بانتصار المسلمين فى معركة « هليوبوليس » وأصبح المسلمون يتحكمون فى منطقة واسعة شمال وجنوب حصن بابليون ، ونقلوا معسكرهم إلى شمال وشرق هذا الحصن ، فى المنطقة التى عرفت فيما بعد بمدينة الفسطاط ، وأخذ عمرو بن العاص يعيد تعبئة قواته استعداداً للاستيلاء على هذا الحصن (٢) .

سقوط حصن بابليون :

كان هذا الحصن يقع على الضفة الشرقية للنيل ، ويتمتع بكافة أسباب المنعة والقوة ، فماء النيل يجرى تحت أسوار الحصن ، وفى استطاعة السفن الحربية والتجارية الوصول إليها بحيث يكفل للحماية المقيمة فى الداخل الاتصال بالخارج لو اشتد عليها الحصار من الجانب البرى للحصن ، ويقابله على الضفة المقابلة جزيرة الروضة وكانت هى الأخرى ذات حصون تكاد تكون جزءاً مكملاً لمعاقل الحصن بالإضافة إلى أسوار الحصن وأبراجه العالية والقوية (٣) ، لكن قوة الحصن ومنعته لم ترهب المسلمين بل عقدوا العزم على فتحه فقاموا بحصاره رغم أن الفيضان كان مرتفعاً ومياه الخندق المحيط بالحصن تزيد من قوته فلجأ عمرو بن العاص إلى خطة يقصد بها إرهاق الحامية الرومانية (البيزنطية) واستنزاف قوتها ففرق جنده إلى أقسام حول الحصن وتناوب كل قسم مع الآخر الهجوم على الحصن ورميه بالمجانيق (٤) .

وبعد شهر من الحصار الذى بدأه المسلمون أدرك المقوقس أنه لا جدوى من المقاومة فعرض على

---

(١) البلاذرى فتوح البلدان ص ٢١٤ ، الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ج ٤ / ص ١٠٧ ، ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ق ١ ص ٩٥ المقريزى : الخطط ج ١ / ص ٢٨٩ .

(٢) د . أحمد مجاهد : مصر فى ظلال العباسيين ص ٢٢ .

(٣) د العدوى : مصر الإسلامية ص ٢٢ .

(٤) المرجع السابق

أعوانه الرغبة فى أن يعقد صلحاً مع العرب ، وانتقل إلى جزيرة الروضة ليدخل فى مفاوضات سرية مع عمرو بن العاص مستهدفاً إنقاذ الموقف المتدهور فأرسل إلى عمرو يسأله فى الصلح وأن يفرض للعرب على القبط دينارين عن كل رأس (١) ، وكانت رسالته تقول : « أنتم قوم قد ولجتم فى بلادنا ، وألححتم على قتالنا ، وطال مقامكم فى أرضنا ، وأنتم عصبة يسيرة وقد أظلتكم الروم ، وجهزوا إليكم، ومعهم العدة والسلاح وقد أحاط بكم هذا النيل ، وإنما أنتم أسارى فى أيدينا فأرسلوا إلينا رجالاً منكم نسمع كلامهم ، فلعله أن يأتى الأمر فيما بيننا وبينكم على ما تحبون ونحب وينقطع عنا وعنكم القتال ، قبل أن تغشاكم جموع الروم فلا ينفعنا الكلام ولا نقدر عليه ولعلكم تندمون إن كان الأمر مخالفاً لطلبتكم ورجائكم فابعث إلينا رجالاً من أصحابكم نعاملهم على ما نرضى نحن وهم » (٢)

ويلاحظ على تلك الرسالة أن المقوقس قد اتبع أسلوب الترهيب والتهديد لتخويف المسلمين من قوة الروم (البيزنطيين) لكن عمراً كان حازماً معه فأرسل إليه يقول : « ليس بينى وبينك إلا ثلاث خصال : إما أن تدخل فى إسلام وإما أن تعطى الجزية وتكون آمناً على نفسك من القتل ، وإما تقاتلنا ونقاتلك » (٣) فلما جاءت رسل عمرو إلى المقوقس بهذا الجواب ، أراد أن يتعرف على أحوال المسلمين قبل أن يرسل برده إلى عمرو فأرسل إلى رسله يسألهم عن العرب المسلمين فقالوا له : « إن هؤلاء القوم لا طاقة لنا بهم ، فإن الموت أحبّ إلى أحدهم من الحياة والتواضع أحب اليهم من الرفعة ، وليس لأحدهم فى الدنيا رغبة ، يجلسون على التراب ، وأكلهم على ركبهم ، وأميرهم كواحد منهم ، لا يعرف رفيعهم من وضيعهم ولا يعرف السيد من العبد فإن لم تغتنموا صلحهم وهو محصورون فلم يجيبونا بعد ذلك إلى الصلح » (٤) .

ويبدو أن المقوقس أراد أن يطيل أمد المفاوضات بينه وبين المسلمين حتى يأتيه مدد من الروم (البيزنطيين) أو يجد لنفسه وجنده مخرجاً فأرسل إلى عمرو بن العاص يقول له : « أرسل إلينا أحداً من عقلائكم ، حتى نتكلم معه ، ما يكون فيه أمر الصلح بيننا وبينكم ، فأرسل إليه عمرو عشرة من

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ق ١ / ص ٩٦ .

(٢) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٢٩٠ ، بتلر : فتح العرب لمصر ج ١ / ص ٢٢٣ .

(٣) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ق ١ / ص ٩٦ .

(٤) المصدر السابق

الصحابة وكبيرهم عبادة بن الصامت ، وكان أسود اللون ، وقيل المقداد بن الأسود ، ولم تنجح المفاوضات التى استمرت فترة بين رسل عمرو وبين المقوقس ، ومن معه ، فعاد العرب المسلمون إلى التشديد على الروم (البيزنطيين) داخل الحصن (١) مما اضطر المقوقس إلى طلب الصلح مع المسلمين وعقد الجانبان معاهدة بينهما ، وقد أورد الطبرى نص هذه المعاهدة (٢) ، وقد علق المقوقس شرط إبرام هذه المعاهدة على موافقة هرقل إمبراطور الروم الذى رفض الموافقة على المعاهدة وغضب على المقوقس وأرسل يستدعيه إلى القسطنطينية حيث عزله عن ولاية مصر ، وأرسل إلى جند الروم (البيزنطيين) يطلب منهم الاستمرار فيى مقاومة المسلمين ويعدهم بالمدد (٣) .

بلغ العرب رفض الإمبراطور للصلح فاستأنفوا القتال (٤) ، وزاد فى حماستهم نبأ وفاة هرقل إمبراطور الروم وانهيار الروح المعنوية للروم (البيزنطيين) داخل الحصن فأخذوا يستعدون للهجوم على الحصن ، وقامت مجموعة من المسلمين على رأسهم الزبير بن العوام بالصعود إلى الحصن وكبروا فكبر معهم المسلمون جميعاً ، فظن الروم (البيزنطيون) أن المسلمين دخلوا الحصن من ثغرة فيه ، فعرض قائد الحصن التسليم للمسلمين على أن يأمن من فيه من الروم (البيزنطيين) على أنفسهم ، وأن يقبلوا الشروط التى سبق أن عرضها عمرو بن العاص على المقوقس (٥) ، والحقيقة أن سقوط حصن بابليون كان نقطة تحول فى مسار القتال بمصر ، إذ بسقوطه وقع فى أيدى المسلمين أكثر من نصف البلاد ، وكانت بلاد الصعيد تدين لمن يقع فى يده ذلك الحصن المنيع ، وبادر عمرو بن العاص عقب سقوط حصن بابليون بالزحف على الاسكندرية عاصمة مصر البيزنطية آنذاك وأشد مدنها تحصينا وقوة .

فتح الإسكندرية :

كانت مدينة الاسكندرية من أكبر مدن مصر كلها وأبهاها ، وقد وصفها بتلر فى كتابه « فتح

---

(١) ابن إياس . بدائع الزهور ج ١ ق ١ / ٩٦ - ٩٧ .

(٢) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ج ٤ / ص ١٠٩ .

(٣) بتلر : فتح العرب لمصر ج ١ / ص ٢٢٩ .

(٤) المرجع السابق .

(٥) البلاذرى فتوح البلدان ص ٢١٥ ، الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ج ٤ / ص ١٠٨ ، ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ق ١ ص ٩٥ ، أحمد مجاهد : مصر فى ظلال العباسيين ص ٢٥ .

مصر » فقال : « لقد كانت الإسكندرية حتى ذلك الوقت تعتبر أجمل مدن العالم وأبهاها ، فلم تبدع يد البناء قبلها ، ولا بعدها شيئاً يعادلها ، اللهم إلا روما وقرطاجنة القديمتين » (١) .

والمدينة قوية التحصين يحميها من الشمال البحر الأبيض المتوسط ومن الجنوب والغرب القنوات والترع ، فقد كانت مفتوحة إلى البحر الذى لا يوجد للمسلمين فيه أى سفينة بالإضافة إلى أسوارها الحصينة ، وكانت تغص بعشرات الألوف من جند الروم (البيزنطيين) .

ورغم ذلك فقد عزم المسلمون على فتحها وفى طريقهم إليها استولوا على سلسلة الحصون الممتدة بينها وبين حصن بابليون ، وأراد عمرو بذلك تأمين خطوطه الخلفية إذا ما طال حصار المدينة ، أو طالت المعارك من أجلها (٢) .

وصل عمرو إلى مدينة الاسكندرية وأخذ فى مهاجمتها ، إلا أن موقع المدينة واتصالها المباشر بالأسطول الرومانى (البيزنطى) فى البحر الأبيض المتوسط الذى كان يزودها بالمؤن والعتاد مما جعل فرصة اقتحامها صعبة بالنسبة للمسلمين ، لذلك قرر عمرو بن العاص شغل جانب من قواته بتوسيع نطاق الفتوحات داخل مصر ، وفى هذا السبيل أخضع جيش عمرو بعض مدن الدلتا والصعيد (٣) ، ثم عاد مرة أخرى إلى حصار المدينة واستطاعت الحامية البيزنطية أن تقاوم المسلمين طويلاً مما أدى إلى قلق الخليفة عمر بن الخطاب على الأوضاع فى مصر فكتب إلى عمرو بن العاص كتاباً يقول فيه : «أما بعد ، فقد عجبت لإبطائكم عن خبر الفتح منذ سنتين ، وقد أخبرنا رسول الله – صلى الله عليه وسلم–، أن مصر ستفتح على أيديكم ، وما ذاك إلا لما أحدثتم وأحببتم من الدنيا فى قلوبكم ، وأن الله تعالى لا ينصر قوماً إلا بصدق نياتهم ، فإذا أتاك كتابى ، فاخطب بالناس ، وحضهم على القتال ، ورغبهم فى الصبر ، وأن تكون لهم صدمة كصدمة رجل واحد ، وليكن ذلك عند الزوال من يوم الجمعة ، فإنها ساعة تنزل فيها الرحمة ، ووقت الإجابة » (٤)

فلما أتى كتاب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص ، بدأ المسلمون يشددون الحصار على المدينة ، ويستنهضون الهمم لاقتحامها ، وفى أثناء ذلك أدى تغير الأوضاع فى

---

(١) بتلر : فتح العرب لمصر ج ١ / ص ٢٥٤ .

(٢) أحمد مجاهد : مصر فى ظلال العباسيين ص ٢٦ .

(٣) المرجع السابق .

(٤) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ص ١١٦ ، ابن إياس : بدائع الزهور . ج١ ق ١ / ص ١٠٠ .

القسطنطينية نتيجة لموت هرقل إلى إعادة النظر فى الموقف ، فقد تولى ابنه قسطنطين حكم الإمبراطورية ، وقام باستدعاء المقوقس من منفاه لاستشارته فى أحوال مصر ، وكيفية الدفاع عنها ، إلا أن قسطنطين لم يلبث أن مات ليلى العرش بعده أخوه هرقلوناس الذى شاركه قنسطانز فى الحكم ، وكانت أحوال الدولة البيزنطية سيئة بصفة عامة [1] ، فاتفقا على إيفاد المقوقس إلى مصر ليعقد صلحاً مع المسلمين ، ونجح المقوقس فى عقد الصلح مع عمرو بن العاص وقد أورد بتلر شروط هذا الصلح فى كتابه « فتح العرب لمصر » [2] نقلاً عن المؤرخ القبطى حنا النقيوسى ومن أهم شروطه :

١ - أن يدفع الجزية كل من يدخل فى هذه المعاهدة .

٢ - تعقد هدنة مدتها أحد عشر شهراً يتمكن فيها البيزنطيون من الجلاء عن مصر .

٣ - أن يسمح للجيش البيزنطى بمغادرة الإسكندرية وأن يحمل جنوده أمتعتهم وأموالهم .

٤ - أن يمكث العرب المسلمون فى مواضعهم مدة الهدنة ولا يسعوا إلى قتال الروم .

٥ - ألا يعود جيش الروم (البيزنطيين) إلى مصر ولا يحاول استردادها .

٦ - أن يتعهد المسلمون أن لا يتعرضوا للكنائس بسوء .

٧ - أن يسمح لليهود بالاقامة فى الإسكندرية .

٨ - أن يقدم الروم (البيزنطيون) للمسلمين مائة وخمسين من جنودهم كرهائن ضماناً لتنفيذ العقد الذى تم الاتفاق عليه فى سنة ٢١هـ/ ٦٤٢م .

وبخروج الروم (البيزنطيين) من الإسكندرية عقب هذه المعاهدة [3] ، صارت مصر واحدة من ولايات الخلافة الإسلامية ، وأرسل عمرو بن العاص إلى خليفة المسلمين عمر بن الخطاب يبشره بفتح مصر فأرسل الخليفة إليه تقليدا بولاية مصر على يدى معاوية بن خديج وكتب إليهِ كتاباً يقول فيه: « من

---

(١) بتلر : فتح العرب لمصر ج ١ / ص ٢٦٤ - ٢٦٥ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٧٧ - ٢٧٨ .

(٣) لم يف الروم (البيزنطيون) باتفاقهم مع المسلمين فقد عادوا بعد أربعة أعوام من صلح الاسكندرية وأرسلوا أسطولاً كبيراً على متنه عدد عظيم من جند الروم (البيزنطيين) فى محاولة منهم لاخراج المسلمين من مصر ، وانتهزوا فرصة عزل عمرو بن العاص عقب تولى عثمان للخلافة واستولوا على الاسكندرية لكن الخليفة عثمان بن عفان أرسل عمرا لخبرته بشئون مصر وقدرته على التعامل مع البيزنطيين فتمكن من هزيمة الروم (البيزنطيين) وطردهم من الاسكندرية فى سنة ٢٥هـ/٦٤٥م وهذا هو الفتح الثانى للاسكندرية لكنه تم عنوة أما الفتح الأول فقد تم صلحا ، كما ذكرنا من قبل

كان من القبط والروم فى أيديكم فخيروه بين الإسلام ودينه ، فإن أسلم فهو من المسلمين ، له مالهم، وعليه ما عليهم ، وإن اختار دينه فأبقوا على دينه ، وقرروا عليه فى كل سنة دينارين» (١)

ومن هذا الكتاب يتضح أن المسلمين لم يسعوا إلى الضغط على المصريين لاعتناق دين الإسلام ، بل تركوا لهم الحرية فى ذلك ، كما أن معاملة المسلمين للمصريين أثناء الفتح كانت طيبة وقد ذكر الطبرى حادثة تبين ذلك فقال (٢) : أخذ العرب فى بعض مواقع القتال فيى مصر بعض السبايا من أهل البلاد فأرسل صاحب الاسكندرية إلى عمرو بن العاص يطلبهم ، فبعث عمرو إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يستطلع رأيه فى ذلك فأرسل إليه عمر أن يخير هؤلاء السبايا بين اعتناق الإسلام والبقاء مع العرب وبين العودة إلى قومهم ، فمن اختار الإسلام فهو من المسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم ، ومن اختار العودة إلى قومه ، وضع عليه من الجزية ما يوضع على مثله ، فجمع العرب السبايا ليخيروهم كما أشار الخليفة ، ووقف العرب والمصريون ينتظرون النتيجة ، فكانوا إذا اختار أحد الأسرى الإسلام والبقاء مع العرب كبّر العرب تكبيرة عالية ، ثم حازوا الرجل إليهم ، وإذا اختار الرجل العودة إلى قومه ، صاح المصريون صيحة فرح وحازوا صاحبهم إليهم ، ويذكر الطبرى أن شاباً من المصريين يسمى « أبو مريم » عبد الله بن عبد الرحمن لما خير فى الفريق الذى ينضم إليه اختار الفريق العربى فحازه العرب إليهم ، وكان أبوه وأمه وأخوته فى صف المصريين وحاولوا أن يجذبوه إليهم حتى أنهم شقوا ثيابه فرفض ، واعتنق الإسلام وانضم إلى العرب ، وهذا إن دلّ على شئ فإنما يدل على أن اختيار أهل مصر للإسلام لم يكن فيه شئ من القسر أو الإكراه .

المسلمون ومكتبة الاسكندرية:

نسب بعض المؤرخين المتأخرين إلى جيش المسلمين أنه أحرق مكتبة الاسكندرية ومن هؤلاء المؤرخين عبد اللطيف البغدادى (ت ٦٢٩هـ/ ١٢٣١م) فى كتابه : « الإفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر » وجمال الدن القفطى (ت ٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م) فى كتابه : «أخبار العلماء بأخبار الحكماء » وغريغوريوس ، أبو الفرج بن أهرون الملطى المعروف بابن العبرى (ت ٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م) وأبى الفداء صاحب حماه (ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣٢م) فى كتابه « المختصر فى أخبار

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ق ١ / ص ١٠٢ .

(٢) الطبرى . تاريخ الرسل والملوك ج ٤ / ص ١٠٦

البشر » والمقريزى ، تقى الدين أحمد بن على (ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م) فى كتابه « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » .

وقد زعم هؤلاء المؤرخون أن عمرو بن العاص أحرق مكتبة الإسكندرية بأمر من الخليفة عمر بن الخطاب ، وأول من نسب الحريق إلى عمرو هو عبد اللطيف البغدادى ، ويبدو أنه أخذ هذه الرواية عن مصدر مفقود معاد للعرب والمسلمين ثم جاءت من بعده تلك المجموعة وأخذت هذه الرواية دون تمحيص أو نقد ومما يدل على بطلان هذه الرواية أنه قد ورد شرط ضمن شروط الصلح الذى عقده المقوقس مع عمرو بن العاص سنة ٢١هـ/ ٦٤٢م ينص على خروج الروم (البيزنطيين) من الاسكندرية وهم يحملون معهم امتعتهم وأموالهم ولو كانت هذه المكتبه موجودة آنذاك لاستطاع جند الروم (البيزنطيين) حمل كتبها معهم أثناء خروجهم من مصر بل إن هذه المكتبة تعرّض جزء كبير منها للحريق عندما هجم يوليوس قيصر على الإسكندرية سنة ٤٧ ق . م واحترق الجزء الآخر منها فى عهد القيصر ثيودوسيس سنة ٣٩١م عقب الصراع الذى نشب بين المسيحيين والوثنيين فى تلك المدينة ولو أن هذه الرواية حقيقة لذكرها أحد المؤرخين المتقدمين كابن عبد الحكم (ت ٢٥٧هـ/٨٧١م) والبلاذرى (ت٢٧٩هـ/٨٩٢م) واليعقوبى (ت ٢٧٨هـ/ ٨٩١م) والطبرى (ت ٣١٠هـ/٩٢٢م) كما لم يتعرض لذكرها مؤرخان مسيحيان شهيران هما البطريق أوتيخا المتوفى سنة ٣١١هـ/ ٩٢٣م ويوحنا أسقف نقيوس وتاريخهما عن مصر من أهم المصادر التى يعتمد عليها ، وقد ذكر بتلر فى كتابه « فتح العرب لمصر » أن يوحنا النحوى واسمه اليونانى حنا فيليبونوس والذى نسب إليه ابن العبرى روايته عن حريق مكتبة الإسكندرية لم يكن حياً يرزق سنة ٦٤٢م (١) ، بل إنه توفى قبل فتح المسلمين للإسكندرية بثلاثين أو أربعين سنة ، ومما سبق يبدو زيف هذه الرواية ، فلا يعقل أن يحرق المسلمون مكتبة تحوى كتباً كثيرة لمختلف العلوم وهو الذين يشجعون على العلم ، فأول آية من القرآن الكريم نزلت على الرسول – صلى الله عليه وسلم – كانت تدعو إلى العلم والقراءة وتحث على ذلك وديننا الحنيف يرعى العلم والمتعلمين .

المنشآت الإسلامية الأولى فى مصر :

١ – مدينة الفسطاط :

بعد أن فرغ عمرو بن العاص من فتح الإسكندرية أراد أن يتخذها عاصمة للبلاد كما كانت من

---

(١) بتلر : فتح العرب لمصر ج ٢ / ص ٣٥٢ .

ذى قبل ، وكتب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يستشيره فى ذلك ، فقال له عمر : هل يحول بينى وبينكم ماء ؟ فقال له عمرو : النيل إذا جرى . فقال عمر بن الخطاب : إنى لا أحب أن تنزل بالمسلمين منزلا يحول الماء بينى وبينهم فى شتاء ولا صيف ، فلا تجعلوا بينى وبينكم ماء ، متى أردت أن أركب اليكم راحلتى حتى أقدم إليكم قدمت (١)

وبحث عمرو بن العاص عن مكان تتوفر فيه رغبة الخليفة فلم يجد خيراً من المكان الذى كان المسلمون ينزلون فيه عند حصارهم لحصن بابليون ويذكر المقريزى فى كتابه « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » أن هذا الموقع « كان فضاء ومزارع فيما بين النيل والجبل الشرقى الذى يعرف بالجبل المقطم ليس فيه من البناء والعمارة سوى حصن » يقصد بذلك حصن بابليون (٢) .

وقد بدأ إنشاء هذه المدينة سنة ٢١ هـ/ ٦٤٢م واتخذت عاصمة لمصر بدلاً من الاسكندرية ، وأطلق عليها اسم الفسطاط ، ويذكر ابن عبد الحكم صاحب كتاب « فتوح مصر والمغرب » سبب تسميتها بذلك فيقول : لما فتح عمرو بن العاص الحصن وهو المسمى الآن قصر الشمع ، كان فسطاطه قبالة الحصن ، فلما أراد التوجه إلى الإسكندرية أمر بنزع الفسطاط من ذلك المكان فلما أرادوا ذلك ، وجدوا عليه عش يمامة قد باضت به وأفرخت ، فقال عمرو : « اتركوا الفسطاط على حاله احتراماً لليمامة التى عششت عليه » ، فلما فتح الإسكندرية وأراد التوجه إلى الحصن ، فقالوا له : « أين ينزل العسكر » ؟ قال : « مكان الفسطاط » يعنى الخيمة التى تركها هناك ، فلما بنيت المدينة سميت بمدينة الفسطاط بسبب ذلك (٣) .

ويرى بعض المؤرخين أن كلمة الفسطاط قد أخذت من الكلمة اللاتينية Fossatum بمعنى المدينة ، وأن العرب أخذوا هذه الكلمة من الروم ، لكننا نميل إلى الرواية التى ذكرها ابن عبد الحكم وكثير من المؤرخين ونقول لو أخذ العرب هذه الكلمة من الروم وصارت عندهم بمعنى المدينة فلماذا اقتصرت على فسطاط مصر دون غيرها من المدن الأخرى ، وقد أنشأ المسلمون مدناً أخرى مثل البصرة التى أسسها عتبة بن غزوان سنة ١٤هـ ، والكوفة التى تأسست بأمر من الخليفة عمر بن

---

(١) المقريزى : الخطط ج ١ / ص ٢٩٦

(٢) المصدر السابق ص ٢٨٦ .

(٣) ابن عبد الحكم " فتوح مصر والمغرب ص ١٠٠ ، المقريزى : الخطط ج١ / ص ٢٩٦ ، ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ق ١ ص ١٠٣ .

الخطاب عقب وقعة القادسية ، وكما نرى لم يطلق المسلمون عليها اسم الفسطاط .

ولقد اتخذت كل قبيلة من القبائل العربية التى جاءت مع عمرو بن العاص خطة (١) فى الفسطاط، وصارت كل خطة تعرف باسم الجماعة التى نزلت فيها ، وأخذت الفسطاط تنمو وتتسع لتتناسب مع متطلبات الحياة ، واستمرت تؤدى دورها الحضارى فترة طويلة من الزمن بالرغم من وجود عدة عواصم سياسية أخرى كالعسكر والقطائع إلى أن أحرقها الوزير الفاطمى شاور سنة ٥٦٧ هـ/ ١١٧٢م (٢) حتى لا تقع فى أيدى الصليبيين .

٢ - المسجد الجامع :

كان أول مبنى أقيم فى مدينة الفسطاط هو المسجد الجامع وقد ذكر المقريزى فى كتابه « المواعظ والاعتبار » بأنه يسمى الجامع العتيق ، وتاج الجوامع ، وجامع عمرو بن العاص ، وأنه كان منزلاً لقيسية بن كلثوم التجيبى ، فسأله عمرو أن يتركه لبناء المسجد الجامع فأجابه قيسية بأنه تصدق به على المسلمين فبنى المسجد فى سنة ٢١ هـ/ ٦٤٢م وقد وقف على إقامة قبلة المسجد ثمانون رجلاً من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيهم الزبير بن العوام والمقداد بن الأسود وعبادة بن الصامت وأبو الدرداء وفضالة بن عبيد وعقبة بن عامر رضى الله عنهم (٣) .

وكانت مساحة المسجد يوم أن أنشأه عمرو بن العاص لاتتعدى خمسين ذراعاً فى ثلاثين ، ولم يكن للمسجد فى أول أمره صحن ولا محراب مجوف ، كما كان منخفض السقف ويروى أن عمراً اتخذ له منبراً فكتب إليه عمر بن الخطاب يأمره بكسره ، ويقول له : أما بحسبك أن تقوم قائماً والمسلمون جلوس تحت عقبيك فكسره وقد تحول هذا المسجد إلى مركز علمى فيه محدثون من الصحابة ومن التابعيين وتابعى التابعين (٤) .

---

(١) الخطة يقصد بها الأرض التى ينزلها الانسان ، ولم ينزلها قبله أحد أو ما يخطه الانسان لنفسه من الأرض أى يجعل لها حدودا ليعلم أنه سوف ينزل بها ويستقر فيها ، ثم اتسع معناها وصار يقصد به الحى الذى يختص به القبيلة أو أصحاب المهنة الواحدة أو طائفة من الناس عند تعمير مدينة من المدن .

(٢) المقريزى : الخطط ج ١ / ص ٣٢٨ .

(٣) المصدر السابق ج ٢٠ / ص ٢٤٦ .

(٤) المصدر السابق ص ٢٤٧ .

والحقيقة أن مسجد عمرو بن العاص قد امتدت إليه يد التغيير حتى لم يبق من آثار مؤسسه الأول عمرو بن العاص إلا البقعة التى شيد عليها ، فقد ظل ينمو ويكبر على مر السنين

وكلما ازداد عدد المسلمين فى مصر وكلما ارتقت حياتهم انعكس ذلك فى مسجدهم هذا ، فاتسعت رقعته ، وفرشت أرضيته ، وارتفع سقفه ، وأصبح له صحن مكشوف يحيط به من جهاته الأربع أروقة مسقوفة (١) .

٣ - حفر خليج أمير المؤمنين :

يذكر ابن عبد الحكم سبب حفر هذا الخليج فيقول : أصاب الناس بالمدينة جهد شديد فى خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فيما يسمى بعام الرمادة فكتب الخليفة إلى عمرو بن العاص وهو بمصر من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى العاصى ابن العاصى ، سلام ، أما بعد ، فلعمرى يا عمرو ما تبالى إذا شبعت أنت ومن معك أن أهلك أنا ومن معى ، فياغوثاه ثم ياغوثاه ، يردد ذلك ، فكتب إليه عمرو من عبد الله عمرو بن العاص إلى أمير المؤمنين ، أما بعد فيا لبيك ثم يالبيك ، قد بعثت إليك بعير أولها عندك وآخرها عندى ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته (٢) .

وأرسل إليه بعير عظيمة يتبع بعضها بعضاً فلما قدمت على عمر رضى الله عنه وسّع بها على الناس ، وبعث إلى أهل كل بيت بالمدينة وما حولها بعيراً بما عليه من الطعام فوسع الله بذلك على الناس(٣) ، فلما رأى عمر ذلك كتب إلى عمرو بن العاص أن يقدم عليه هو وجماعة من أهل مصر معه ، فقدموا عليه ، فقال عمر : يا عمرو إن الله قد فتح على المسلمين مصر وجعلها قوة لهم ولجميع المسلمين

---

(١) د . أحمد مجاهد : مصر فى ظلال العباسيين ص ٣٨ .

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ص ٢١٨ - ٢١٩ .

(٣) المصدر السابق .

وأفكر أن أحفر خليجاً من نيلها حتى يسيل في البحر فهو أسهل لما تريد من حمل الطعام إلى مكة والمدينة فإن حمله على الظهر يبعد ولا تبلغ به ما تريد فانطلق أنت وأصحابك فتشاوروا في ذلك حتى يعتدل رأيكم (١) .

ويبدو أن عمرو بن العاص كان يعلم أنه كانت بمصر قناة تربط النيل بالبحر الأحمر منذ الجاهلية وأن هذه القناة قد ردمت ، إذ يذكر المقريزى أنه قال لعمر بن الخطاب « قد عرفت أنه كانت تأتينا سفن فيها تجار من أهل مصر قبل الإسلام ، فلما فتحنا مصر انقطع ذلك الخليج واستدّ وتركه التجار ، فإن شئت أن نحفره فننشئ فيه سفناً يحمل فيها الطعام إلى الحجاز فعلته ، فقال عمر رضى الله عنه ، نعم ، فافعل » .

والحقيقة أن المحاولات لوصل البحر الأبيض بالبحر الأحمر استمرت منذ أقدم العصور سواء كان التوصيل بين البحرين مباشرة ، أم عن طريق النيل ، وقد وجد نص على جدران معبد الكرنك يشير الى وجود قناة تصل النيل بالبحر الأحمر أيام سيتى الأول سنة ١٣٨٠ق . م ، ولعل وجود هذه القناة كان مقياساً دائما على مدى رقى مصر أو تدهور أحوالها ، فكانت هذه القناة تطهر وتستعمل كلما صلحت الأحوال فى مصر ، وتردم كلما تدهورت الأحوال رغم أهميتها فى استمرار التجارة بين الشرق والغرب عبر النيل (٢) ويذكر المقريزى أن الذى دلّ عمرو بن العاص على الخليج رجل من القبط ، قال لعمرو : أرأيت إن دللتك على مكان تجرى فيه السفن حتى تنتهى إلى مكة والمدينة ، أتضع عنى وعن أهل بيتى الجزية فاستجاب له عمرو وأرشده إلى مكان الخليج (٣) .

---

(١) المقريزى : الخطط ج ٢ / ص ١٤١ .

(٢) د . أحمد مجاهد : مصر فى ظلال العباسيين ص ٣٨ .

(٣) المقريزى : الخطط ج ٢ / ص ١٤٢

وأخذ عمرو فى حفر خليج القاهرة سنة ٢٣ هـ/ ٦٤٤م عن فم الخليج شمال الفسطاط فوصل إلى بلبيس ثم إلى السويس حيث البحر الأحمر فى ثمانية أشهر ، وجرى فيه ماء النيل ، وحملت الغلال فيه إلى السويس ثم من السويس إلى الحجاز فى نفس العام (١) .

وقد استمرت هذه القناة تؤدى دورها إلى أن أمر بردمها الخليفة العباسى أبو جعفر المنصور حين خرج عليه محمد بن عبد الله النفس الزكية ، ليفرض حصاراً اقتصادياً على الحجاز بمنع الميرة عنهم مما يضعف من موقف الثائرين فى الحجاز (٢) .

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٣ / ص ٤٣ ، ابن الأثير . الكامل فى التاريخ ج ٢ / ص ٣٩٧ ، القلقشندى : مآثر الإنافة ج ١ / ص ٩١ .

(٢) المقريزى : الخطط ج ٢ / ص ١٤٣ .

الفصل الثانى
مصر فى عصر الولاة

مدخل :

أصبحت مصر بعد الفتح الإسلامى ولاية عربية إسلامية ، تساهم فى خدمة الحضارة العربية الإسلامية ، ونشر رسالتها ، ويرجع السبب فى ذلك إلى سرعة امتزاج العرب الوافدين إلى مصر بعد الفتح الإسلامى بسكان البلاد ، وظهور جيل عربى جديد صار الحارس الأمين على المجتمع العربى الناشئ وتنمية تقاليده ، وتدعيم أوتاده .

ولقد صاحب بناء الجيل العربى الجديد فى مصر ظاهرة فريدة تميزت بها مصر عن غيرها من البلدان التى انضمت إلى الدولة العربية الإسلامية ، فالشعب المصرى وقف طوال تاريخه الطويل وقفة عناد لكل لغة أجنبية يحملها إليه أى غاصب من أمثال اليونانيين والرومان فلم تتغلب أى لغة أخرى على لغة المصريين إلا اللغة العربية التى أقبل المصريون عليها طواعية ودون قسر مما يدل على شدة التجاوب بين العرب و المصريين ، وأن عهداً جديداً أخذ يشرق على الديار المصرية .

وبدأ ارتباط مصر الإسلامية العربية بأمتها يظهر واضحاً ، فقد أعطت مصر الحياة الإسلامية الكثير منذ الفتح الإسلامى ، فقد كان لموقع مصر الجغرافى وثرواتها الكثيرة ومواردها البشرية العديدة والكبيرة كثير من الفضل فى أنها لعبت دوراً مهماً ومؤثراً فى الأحداث الداخلية للدولة الإسلامية ، فبعد الفتح الإسلامى لمصر ، بدأ الارتباط بينها وبين الحجاز يبرز ويتضح فقد تولت مصر مهمة تصنيع كسوة الكعبة وإرسالها إلى مكة منذ أيام عمر بن الخطاب – رضى الله عنه .

وحينما ساد الجفاف بلاد الحجاز سنة ٢١ هـ (١) / ٦٤١م وقحطت الأرض وأجدبت واشتدت الأحوال على المسلمين هناك كتب الخليفة عمر بن الخطاب إلى والى مصر عمرو بن العاص يذكر قحط الحجاز ويطلب منه ما يقبض من الطعام فى الخراج إلى المدينة المنورة فبادر عمرو بإعداد الطعام وإرساله إلى المدينة .

وهكذا فرضت الظروف على مصر أن تكون صاحبة النصيب الأكبر فى إمداد الحجاز بما يحتاجه منذ عصور الإسلام الأولى وتوثقت صلتها بالحجاز مقر الخلافة الإسلامية ، وشاركت بثقلها السياسى والاقتصادى مشاركة فعالة فى الأحداث السياسية التى خاضتها الخلافة .

لذا لم تكن مصر بمعزل عما دار فى المدينة عاصمة الخلافة من أحداث فى عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان ، بل أسهمت فيها بدور كبير وملحوظ ، وقد ظهر دور مصر فى الأحداث التى وقعت فى العالم الإسلامى بعد وفاة يزيد بن معاوية ، وفى الحركة التى قادها عبد الله بن الزبير من خلال مشاركتها للحجاز فى تأييد حركة ابن الزبير والخروج على الأمويين .

وفى زمن الدولة العباسية جاء كثير من العلويين إلى مصر وأيد المصريون الحزب العلوى تأييداً كبيراً ، مما أدى إلى قيام كثير من الثورات العلوية على العباسيين بمصر بالإضافة إلى مساندة ومناصرة الثورات العلوية بالحجاز .

وفى هذا الفصل سنتناول ما يلى :

أولاً : دور مصر فى أحداث الفتنة زمان عثمان بن عفان .

ثانياً : موقف مصر من حركة عبد الله بن الزبير .

ثالثاً : موقف مصر من الصراع العلوى العباسى .

---

(١) أبو الحسن البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢١٧ ، ٢١٨ ويروى كل من الطبرى وابن عبد الحكم واليعقوبى وابن الأثير والقلقشندى رواية شبيهة بذلك مع اختلاف فى تاريخ حدوثها فيروون أنه فى سنة ١٨ هـ/ ٦٣٩م أصاب الناس بالمدينة قحط شديد ، وسمى هذا العام بعام الرمادة فأرسل عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص يشكو قحط الحجاز فكتب اليه عمرو بن العاص لأمدنك بعير طعام أوله عندى وآخره عندك وأرسل اليه العير فوسع بها على المسلمين ، والحقيقة أن تاريخ حدوث هذه القصة يوحى بالشك لأن عمرا اتجه لفتح مصر فى أواخر سنة ١٨ هـ/ ٦٣٩م ولم تكن ظروف الحرب والقتال تسمح له بذلك وبالتالى فإن التاريخ الذى أورده البلاذرى يعتبر واقعياً ومناسباً لهذا الحديث (انظر . الطبرى تاريخ الرسل والملوك ج ٤ / ص ١٠٠ ، ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ص ٢١٨ - ٢١٩ ، اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى ج ٢ / ص ١٥٤ ، ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج ٢ / ص ٣٩٦ - ٣٩٧ ، القلقشندى مآثر الإنافة فى معالم الخلافة ج ١ / ص ٩١ ، صبح الأعشى ج ٣ / ص ٢٩٨ .

أولاً : دور مصر فى أحداث الفتنة زمن عثمان بن عفان :

لعب أهل مصر دوراً كبيراً فى المحنة التى صادفت عثمان بن عفان خليفة المسلمين والتى اشتهرت باسم « الفتنة » ويقصد المؤرخون بها انقسام وحدة المسلمين ، واختلاف آرائهم وهى الوحدة التى بناها الخليفة الأول أبو بكر الصديق ثم دعمها من بعده الخليفة الثانى عمر بن الخطاب بحزمه وعدله (١) .

فقد تولى عثمان بن عفان الخلافة ، ويذكر المؤرخون أنه كان وصولاً للرحم محباً لأهله لين العريكة ، كثير الاحسان ، فأذن لكبار الصحابه بالتفرق فى الأمصار الإسلامية واقتناء الضياع والعقارات فيها(٢) .

وصحب هذا اللون من الحياة ظهور طبقة من الولاة كان معظمهم من بنى أمية أقارب عثمان لا همّ لهم إلا الاثراء ، ودعم سلطاتهم ، ولو أدى الأمر إلى القسوة على الرعية ، فبلغت المعارضة السياسية لسياسة عثمان المالية ، وسياسته فى محاباة أقاربه وتركه محاسبة ولاته حداً كبيراً .

---

(١) د . العدوى : تاريخ العالم الإسلامى ص ١٥٢ .

(٢) عدد المسعودى أسماء الصحابة الذين اقتنوا الضياع والدور أيام عثمان ووصف ما يملكون فذكر أن الزبير بن العوام بنى داراً بالبصرة ، وابتنى أيضاً دوراً بمصر والكوفة والاسكندرية ، وبلغ مال الزبير بعد وفاته خمسين ألف دينار ، وخلف ألف فارس ، وألف عبد وأمة ، وكذلك طلحة بن عبيد الله التيمى ابتنى دارا بالكوفة وكانت غلته من العراق كل يوم ألف دينار ، وقيل أكثر من ذلك وشيد داره بالمدينة وبناها بالآجر والجص والساج وكذلك عبد الرحمن بن عوف الزهرى ابتنى داره ووسعها وكان مربطه مائة فرس وله ألف بعير وعشرة آلاف شاة من الغنم ، وزيد بن ثابت ترك عقب موته كثيرا من الذهب والفضة بالاضافة الى الاموال والضياع التى قدرت بمائة ألف دينار وتوفى يعلى بنى أمية وترك خمسمائة ألف دينار وديونا على الناس وعقارات (المسعودى . مروج الذهب ج ٢ / ص ٣٤٢ - ٣٤٣) .

واستثمر ذلك عبد الله بن سبأ (١) فراح ينتقل فى الأمصار الإسلامية منددا بتصرفات عثمان فى تولية أقاربه ، وأخذ يشن هجومه على الطبقة الجديدة من الأغنياء ، ويغلو فى تقديس شخصية علي بن أبي طالب (٢) .

وقد طرد عبد الله بن سبأ من كل بلد حلّ به فى البصرة والكوفة والشام ، فلما وصل مصر صادفت دعوته لخلع عثمان هوى فى النفوس (٣) ، ويرجع السبب فى ذلك الى أن المسلمين فى مصر كانوا ينقمون على عبد الله بن سعد (٤) الذى عينه عثمان أميراً على مصر سنة ٢٥ هـ/ ٦٤٥م (٥) لأنه يكلفهم فوق ما يطيقون ، واشتد عليهم فى تحصيل الضرائب ، ففى حين اقتصرت جباية عمرو بن العاص للخراج طوال سنى إمارته على ألفى ألف دينار رفع عبد الله بن سعد الجباية إلى أربعة آلاف ألف كما يذكر البلاذرى (٦) ، بالإضافة إلى أنه كان يشتد على الرعية حتى شكوه إلى عثمان ، فكتب إليه عثمان ينذره ، ويأمره أن ينزع عما تكره الرعية فلم يحفل بذلك ،. وإنما عاقب من شكوه ، وضرب منهم رجلاً حتى قتله (٧) .

---

(١) عبد الله بن سبأ يهودى من صنعاء ، أظهر الاسلام على عهد عثمان وكان يعرف بابن السوداء ، وكان يكثر الطعن فى عثمان ويدعو فى السر لآل البيت ويذكر ابن خلدون أن هذا الرجل لم يحسن اسلامه فقد كان يقول : « ان محمدا يرجع كما يرجع عيسى وعنه أخذ ذلك أهل الرجعة ، وأن على وصى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حيث لم يجز وصية وعثمان أخذ الأمر بغير حق » ويحرض الناس على ذلك ويثيرهم على الأمراء فاستمال بعضا منهم وكاتب به بعضهم نفرا فى الأمصار الاسلامية (ابن خلدون : العبر ج ٢ / ص ٥٨٧ - ٥٩١) .

(٢) المصدر السابق ص ٥٨٧ .

(٣) المصدر السابق ص ٥٩١ .

(٤) عبد الله بن سعد بن أبى سرح القرشى العامرى كان أخا عثمان من الرضاع أسلم قديما وخرج من المدينة الى مكة فارتد عن الاسلام فلما فتح رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مكة أهدر دمه لكن عثمان بن عفان استأمن له فأمنه الرسول - صلى الله عليه وسلم - وسأل له المبايعة ثانيا فبايعه الرسول - صلى الله عليه وسلم - وقال : ان الاسلام يهدم ماقبله » فلما ولى عثمان الخلافة ولاه مصر (الكندى : تاريخ ولاة مصر ص ١٦ - ١٧ ، ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ج ١ ق ١ ص ١١٢)

(٥) الكندى : تاريخ ولاة مصر ص ١٧ .

(٦) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٢٠ .

(٧) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة ج ١ ص ٣٦ ، السيوطى . تاريخ الخلفاء ص ١٥٧ .

وقد استطاع عبد الله بن سبأ أن ينقل السخط على الخليفة فى مصر والبصرة والكوفة (١) إلى تخطيط منظم للإطاحة به ، وأسفر هذا التخطيط عن خروج سبعمائة رجل من مصر إلى المدينة فكان الثائرون الأولون على الخليفة من مصر ، إذ ذهبوا إلى المدينة واشتكوا إلى أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ما صنع بهم الوالى (٢) فاتجه نفر من الصحابة على رأسهم على بن أبى طالب إلى عثمان واشتدوا عليه حتى يعزل عبد الله بن سعد فعزله ، وكتب بولاية مصر لمحمد بن أبى بكر (٣) .

وخرج محمد بن أبى بكر وأصحابه حتى إذا كانوا على مسيرة ثلاث ليالٍ من المدينة قبضوا على رجل كان يحمل خطاباً من الخليفة إلى واليه على مصر عبد الله بن سعد يأمره فيه بمعاقبة الثائرين الذين خرجوا من مصر عند عودتهم (٤) وأضطر الثائرون إلى العودة للمدينة ، وعرضوا الخطاب على الصحابة (٥) فأسرع على بن أبى طالب ونفر من الصحابة إلى عثمان بن عفان وعرضوا عليه الخطاب فأنكر علمه به (٦) .

وعلم الثائرون أن الخطاب بخط مروان بن الحكم فطلبوا من الخليفة أن يخرجه لهم فرفض عثمان إخراجه خشية قتله فاتخذ الثائرون من رفضه ذريعة للهجوم على الخليفة ومحاصرة داره (٧) ، وانضم إليهم بقية الوفود الثائرة الأخرى (٨) واستمر حصارهم له مدة أربعين يوماً ، ثم قام بعضهم بالانقضاض عليه وقتله سنة ٣٥هـ/ ٦٥٥م (٩) .

أخذت مصر تواصل دورها فى الأحداث الداخلية التى وقعت داخل الدولة الإسلامية بعد مقتل

---

(١) ابن خلدون : العبر ج ٢ ص ٥٩١ .

(٢) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ١٥٧ .

(٣) المصدر السابق ص ١٥٨ .

(٤) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٣٥٢

(٥) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة ج ١ ص ٣٧ – ٤٠ .

(٦) ابن العربى : العواصم من القواصم ص ١١٠ .

(٧) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٣٥٣ .

(٨) د . حسن على : دراسات فى تاريخ مصر ص ٣٥

(٩) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج ٣ ص ٦٠ – ٦٨ .

عثمان بن عفان – رضى الله عنه – وكانت الأطراف المتنازعة على السلطة فى الدولة الإسلامية تحرص أن تقف مصر إلى جانبها ، وكان أملها فى تحقيق النصر يتأكد إذا استطاعت أن تعتمد على تأمين أهل مصر وولائهم لها .

وعلى هذا فكر معاوية بن أبى سفيان فى الاستيلاء على مصر وضمها إلى جانبه ، لأنه كان يعلم أن وقوف مصر إلى جانب على بن أبى يطالب يضعف من قوته ويزعزع من سلطته ، فاتجه إلى مصر سنة ٣٦ هـ/ ٦٥٦م لكن محمد بن أبى حذيفة (١) خرج إليه ومنعه من دخولها ، فمكر به معاوية حتى أخرجه من مصر حيث قتل فى ذى الحجة من نفس العام (٢) .

ولما بلغ على بن أبى طالب ما حدث لمحمد بن أبى حذيفة أرسل قيس بن سعد (٣) أميراً على

---

(١) هو محمد بن حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصى بن كلاب القرشى ، ولد بالحبشة وكفله عثمان بعد مقتل أبيه وبقى فى كفالته ونفقته عدة سنين ، وكان من أشد الناس تأليبا على عثمان ولقد انتهز خروج عبد الله ابن سعد والى مصر لمقابلة الخليفة عثمان بن عفان فجمع حشدا من الجند والساخطين على الخليفة ، وهاجم عقبة ابن عامر الذى استخلفه عبد الله لحين عودته ، وأخرجه من الفسطاط ودعا الناس إلى خلع عثمان من الخلافة ، ومنع عبد الله بن سعد من دخول مصر بعد عودته من المدينة ، وضيق على شيعة عثمان بمصر وعلى رأسهم معاوية بن حديج ، وخارجة بن حذافة ، وبشر بن أبى أرطاة ومسلمة بن مخلد الأنصارى فلما علموا بمقتل عثمان ، واشتراك طائفة من المصريين فى مقتله ثاروا وعقدوا لمعاوية بن حديج على الطلب بدم عثمان وتقاتلوا مع محمد بن أبى حذيفة ، وانتصروا عليه فى عدة معارك مما شجع معاوية على القدوم إلى مصر ، ويذكر الكندى أن معاوية قال لابن أبى حذيفة اجعل بيننا وبينكم رهناً فلا يكون بيننا وبينكم حرب فرضى ابن أبى حذيفة ، وخرج فى الرهن هو وجماعة من قتلة عثمان ، فاحتال عليهم معاوية وسجنهم وسار إلى دمشق فهربوا من السجن وتبعهم صاحب فلسطين حتى قتلهم .

الكندى:تاريخ ولاة مصر ص ٢٢ ، ابن الأثير:الكامل فى التاريخ ج ٢/ ص ١٥٢ ، الفاسى : العقد الثمين ج ١/ص ٤٥٤

(٢) الكندى : تاريخ ولاة مصر ص ٢٢ .

(٣) هو قيس بن سعد بن عبادة الانصارى أرسله على بن أبى طالب إلى مصر وجمع له الصلاة والخراج فدخلها فى مستهل ربيع الأول واستطاع بدهائه وحسن سياسته أن يستميل الشيعة العثمانية بمصر وبعث إليهم أعطياتهم ووفد عليه وفدهم فأكرمهم و أحسن إليهم وكان من ذوى الرأى والبأس واستطاع أن يأخذ البيعة لعلى بن أبى طالب فى مصر واستقامت الأحوال فى عهده مما جعل معاوية يلجأ إلى المكر والدهاء حتى ينزعه عن مصر (الكندى : تاريخ ولاة مصر ص ٢٣) .

مصر فى مستهل ربيع الأول سنة ٣٧ هـ / ٦٥٧م ، لكن معاوية بن أبى سفيان لم يكن ليترك قيس ابن سعد يحول مصر إلى قاعدة قوية لمؤازرة على ، فاستعمل دهاءه للايقاع بين على بن أبى طالب وقيس ابن سعد فاصطنع خطابات بينه وبين قيس توهم أنه يتفاوض معه ، فانخدع على بهذه الحيلة ، وظن أن قيساً يتعاون مع معاوية فعزله عن مصر بعد أربعة أشهر ، وخمسة أيام (١) ، وولى مكانه الأشترمالك ابن الحارث ، فلما وصل الأشتر إلى القلزم فى رجب سنة ٣٧ هـ / ٦٥٧م تمكن أحد أصحاب معاوية من قتله بعد أن وضع له سماً فى العسل ، ومات وهو على أبواب مصر ، ولم يدخلها (٢) ، فولى على بعده محمد بن أبى بكر فخرج إلى مصر واستقرّ بها وأخذ يدعم مركزه فيها (٣) .

ولقد شعر معاوية أن وقوف مصر إلى جانب على بن أبى طالب لن ينفصم عراه إلا بالقوة العسكرية فأرسل إليها جيشاً بقيادة عمرو بن العاص الخبير بمصر وابنائها استطاع هزيمة محمد بن أبى بكر وقتله فى سنة ٣٨ هـ / ٦٥٨م (٤) وصارت مصر تابعة لمعاوية وأنصاره .

وفى سنة ٤٠ هـ / ٦٦٠م تمكن عبد الرحمن بن ملجم الخارجى من قتل على (٥) فبايع جند العراق ابنه الحسن الذى رأى أن من مصلحة المسلمين مبايعة معاوية وتسليم الأمر إليه منعاً للشقاق وتوحيداً لقوى الأمة ، فبايعة فى ربيع الأول من سنة ٤١ هـ/ ٦٦١م ليتولى معاوية بن أبى سفيان مقاليد الأمور فى الدولة الإسلامية (٦) ، وتقوم علي يديه الدولة الأموية التى أصبحت مصر إقليماً من أقاليمها .

---

(١) الكندى : تاريخ ولاة مصر ص ٢٤ – ٢٥ .

(٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج ٣ ص ٢٢٦ – ٢٢٧

(٣) الكندى : تاريخ ولاة مصر ص ٢٨ .

(٤) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج ٣ ص ٢٢٩ – ٢٣٠ .

(٥) المصدر السابق ص ٢٥٥ .

(٦) محمد الخضرى : الدولة الأموية ص ٤٢٥ .

ثانياً : موقف مصر من حركة عبد الله بن الزبير :

انتقلت الخلافة غى عهد الأمويين من الحجاز إلى الشام مما أغضب الحجازيين الذين كانوا يرون عودة الخلافة إلى وضعها السابق فى عهد الخلفاء الراشدين ، وبخاصة بعد أن جعل معاوية الخلافة وراثية بتولية ابنه يزيد بن معاوية بعده ، ثم مقتل الحسين بن على بيد قوات يزيد (١) .

ولذا فقد رفع أهل الحجاز راية العصيان على حكم الأمويين فى عهد يزيد بن معاوية ، ولبوا نداء عبد الله بن الزبير الذى ثار على الأمويين مستغلاً حالة السخط التى شملت العالم الإسلامى عامة والحجاز خاصة لمقتل الحسين فدعا إلى خلع يزيد بن معاوية ، ومبايعته بالخلافة (٢) .

ولقد شاركت مصر أهل الحجاز فى شق عصا الطاعة على الأمويين ، إذ لاقت دعوة عبد الله بن الزبير قبولاً منهم فأرسلوا وفوداً إلى مكة لمبايعته ، وطلبوا منه أن يبعث إليهم بأمير يقومون معه ويؤازرونه ، فأرسل عليهم من قبله سنة ٦٤ هـ / ٦٨٤م (٣) .

ويذكر الكندى أن عبد الرحمن بن عتبة قدم على رأس جماعة من الخوارج الذين ساندوا عبد الله ابن الزبير فوثبوا على سعيد بن يزيد بن علقمة الوالى الأموى وعزلوه (٤) ، ونزل عبد الرحمن بن عتبة بدار الإمارة فى الفسطاط (٥) .

وتوطدت الصلات بين مصر والحجاز فى عهد ابن الزبير وقامت مصر بدور كبير فى مساندة الحجاز اقتصادياً عقب خروجه على الخلافة التى كانت تمده بما يحتاجه نظراً لضعف موارده ، وشحنت الغلال من مصر إلى الحجاز عبر قناة القلزم (٦) .

---

(١) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ج ٥ ص ٤٥٣ .

(٢) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢١٢ .

(٣) الكندى : تاريخ ولاة مصر ص ٣٩ .

(٤) المصدر السابق .

(٥) المصدر السابق .

(٦) سيديو : تاريخ العرب العام ص ١٤٧ .

وحين احترقت الكعبة وهدمها ابن الزبير أعاد بناءها وكساها القباطى البيض وهى ثياب كانت تصنع فى مصر آنذاك (١) .

لكن الأمور لم تدم على هذا الحال ، فحينما تولى الخلافة مروان بن الحكم أدرك أن استقرار الأمر لبنى أمية لن يتم إلا باستعادة مصر مرة أخرى ، فسار إليها ودخلها سنة ٦٥ هـ / ٦٨٤ م بعد هزيمة عبد الرحمن بن عتبة عامل ابن الزبير عليها (٢) ، وولى ابنه عبد العزيز بن مروان على صلاة مصر وخراجها ، وأمده بموسى بن نصير بمثابة وزير له (٣) .

وعادت مصر للأمويين مرة أخرى بعد أن انفصلت عنهم فترة لم تزد عن تسعة أشهر انضمت خلالها لابن الزبير ، وبسقوط مصر فى يد بنى أمية حرم الحجاز من الغلال التى كانت مصر ترسلها إليه ، فتعسر وضع الحجاز الاقتصادى ، وتأثر موقف ابن الزبير بذلك (٤) .

ولم يتخذ الأمويون من مصر قاعدة للتضييق على ابن الزبير اقتصادياً فحسب ؛ بل شاركت مصر فى الناحية العسكرية حين وجه عبد العزيز بن مروان سنة ٧٢ هـ حملة بحرية من قبله على ساحل الحجاز للمشاركة فى القضاء على ابن الزبير (٥) ، وبعد القضاء عليه سنة ٧٣ هـ/ ٦٩٢م عاد الحجاز إلى سيطرة الأمويين ، وصار ملجأ لبعض المضطهدين من العلويين (٦) حتى قيام الدولة العباسية التى أخذت تطارد العلويين هى الأخرى .

---

(١) الحميرى : الروض المعطارى ٩٤ ، القلقشندى : مآثر الإنافة ج ١ ص ١٢٣ – ١٢٤

(٢) الكندى . تاريخ ولاة مصر ص ٤١ .

(٣) المصدر السابق ص ٤٣ .

(٤) سيديو . تاريخ العرب العام ص ١٤٧ .

(٥) المقريزى . الخطط ج ١ ص ٣٠٢ .

(٦) د . أحمد الشريف : دور الحجاز فى الحياة السياسية العامة ص ٤٥٠ .

ثالثاً : موقف مصر من الصراع العلوى العباسى :

وقف العلويون مدة طويلة على رأس الزعامة من بنى هاشم وحاولوا أن ينالوا الخلافة قبل العباسيين فقاموا بثورات عديدة فى وجه بني أمية مطالبين بالخلافة وسقط منهم كثير من الضحايا (١).

وقد استغل العباسيون الاضطهاد الأموى للعلويين كي يضمنوا نجاح دعوتهم فجعلوا شعار الدعوة لهم هو« الرضا من آل محمد » حتى يجتذبوا عطف الجماهير نحو حركتهم وحتى يضمنوا تأييد العلويين لهم ، فلما ظفر العباسيون بالخلافة أدرك العلويون أنهم خدعوا من العباسيين الذين استأثروا بالخلافة دونهم فنابذوهم العداء ، وشهدت كل من مصر والحجاز ثورات من العلويين على العباسيين .

ففى مصر لقيت الدعوة للعلويين قبولاً ، إذ حينما قام على بن محمد النفس الزكية بالدعوة لأبيه، بايعه كثير من المصريين مؤيدين لدعوته ، ويذكر الكندى أن الوالى العباسى لمصر حميد بن قحطبة أخفى أمره عن الخليفة المنصور ، ولم يهتم بالقبض عليه ، مما جعل المنصور يسخط على هذا الوالى ويعزله لتعاطفه مع العلويين ، ويولى يزيد بن حاتم المهلبى مكانه ، وقد تمكن يزيد من القضاء على دعوة على بن محمد الذى فرّ بعد هزيمته فى المعركة ، وأخفاه المصريون عن أعين العباسيين حتى مات ودفن بمصر (٢) .

وقد ظهر تعاطف المصريين بوضوح مع العلويين ، وتمثل فى ترحيب المصريين بكل علوى يقدم إليهم، وإن كان خارجاً على الخلافة العباسية ، إذ حينما فر إدريس بن عبد الله بن الحسن أخو النفس الزكية ، وأخوه يحيى بن عبد الله من الحجاز بعد هزيمة الحسين بن على بن الحسن فى موقعة « فخ » وجدا ترحيباً من المصريين الذين كتموا أخبارهما عن العباسيين ، وحين علم على بن سليمان الوالى

---

(١) محمد الخضرى : الدولة العباسية ص ٤٩٧ .

(٢) الكندى : تاريخ ولاة مصر ص ٩١ – ٩٤ .

العباسى لمصر بمكان إدريس بن عبد الله ذهب إليه سراً ، وتقابل معه ، وأخفى أمره عن الخليفة (١) ، كما أن « واضحاً » مولى بنى العباس والمتولى بريد مصر سهل له الخروج منها مع معرفته به (٢) ، ولما علم الخليفة هارون الرشيد بذلك عزل الوالى عن مصر (٣) .

وقد اتجه إدريس إلى بلاد المغرب الأقصى ، واستطاع أن يكون أول دولة للعلويين هناك سنة ١٧٢ هـ/ ٧٨٨ م وهى دولة الأدارسة (٤) .

وفى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى توالت ثورات العلويين على العباسيين بمصر ، ففى سنة ٢٤٨ هـ/ ٨٦٢م وفى ولاية يزيد بن عبد الله خرج محمد بن على بن الحسين الذى يعرف بأبى حدرى ، وبويع له ، لكن يزيد بن عبد الله خرج إليه وقبض عليه ، وعلى أنصاره بعد أن أقرّ عليهم ثم أخرجه يزيد ومن معه من آل أبى طالب إلى العراق منفياً من مصر (٥) .

ولم يكتف العلويون فى مصر بالثورة على العباسيين ؛ بل إنهم كانوا يرحبون بكل ثورة ضد الخلافة العباسية وينضمون إليها ، ففى سنة ٢٥٢ هـ/ ٨٦٦م خرج جابر بن الوليد المدلجى على العباسيين بمدينة الاسكندرية ، واستطاع السيطرة على معظم بلدان الوجه البحرى وكان يسانده ابن الأرقط العلوى (٦) الذى ضم إليه كثيراً من الأعراب ووجوه أصحابه ولم يستطع والى مصر يزيد بن عبد الله أن يوقف هذه الثورة مما اضطر الخليفة العباسى أن يرسل اليه المدد بقيادة مزاحم بن خاقان

---

(١) الكندى : تاريخ ولاة مصر ص ١٠٦ .

(٢) محمد الخضرى : الدولة العباسية ص ٤٩٩ .

(٣) الكندى : تاريخ ولاة مصر ص ١٠٦ .

(٤) محمد الخضرى : الدولة العباسية ص ١٠٤ .

(٥) الكندى : تاريخ ولاة مصر ص ١٥٩ .

(٦) هو عبد الله بن أحمد بن اسماعيل بن محمد بن عبد الله بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ويقال له ابن الأرقط العلوى (المصدر السابق ص ١٦١) .

فتمكن من القبض على عبد الله بن أحمد بن الأرقط العلوى ، وأمر بإخراجه مع أنصاره إلى العراق(١).

وتتابعت ثورات العلويين على العباسيين فى مصر ، ففى سنة ٢٥٤ هـ/ ٨٦٨م خرج أحد العلويين بمصر ، ويقال له : « بُغَا الأكبر » (٢) و أعلن ثورته علي العباسيين فى ولاية أزجور التركى ، وذهب إلى الصعيد ، واستقرّ به ، لكن أزجور والى مصر العباسى هزمه وقضى على حركة تمرده (٣) .

وفى ولاية أحمد بن طولون خرج علوى آخر يقال به : « بُغَا الأصغر » (٤) بموضع يسمى الكنائس فيما بين الاسكندرية وبرقة وسار فى جمع معه إلى الصعيد سنة ٢٥٥ هـ/ ٩٦٩م فلقيهم جيش ابن طولون فهزمهم ، وقتل بُغَاو وأتى برأسه إلى الفسطاط (٥) ، ثم خرج ابن الصوفى العلوى (٦) سنة ٢٥٦ هـ/ ٩٧٠ م بصعيد مصر وقوى أمره ، وتغلبت قواته على جيش ابن طولون ، وأسر قائده ابن ازذاذ حيث قتل وصلب ، ثم تحرك الثائرون إلى أسوان فتقابلوا مرة أخرى مع الجيش الطولونى فهزمهم وقضى عليهم وفرّ ابن الصوفى إلى عيذاب متجهاً إلى مكة حيث أقام بها إلى أن قبض عليه وأرسل إلى مصر ، فسجنه أحمد بن طولون فترة ثم أطلق سراحه فخرج إلى المدينة المنورة ومات بها(٧) .

---

(١) المصدر السابق ص ١٦٢ .

(٢) هو أحمد بن إبراهيم بن عبد الله بن طباطبا إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن على بن أبى طالب (المصدر السابق ص ١٦٥) .

(٣) المصدر السابق .

(٤) هو أحمد بن محمد بن عبد الله بن طباطبا (المصدر السابق ص ١٦٧)

(٥) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٣١٩ .

(٦) هو إبراهيم بن محمد بن يحيى بن عبد الله بن محمد بن على بن أبى طالب (ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج ٦ ص ٢٢٦) .

(٧) الكندى : تاريخ ولاة مصر ص ١٦٨ ، ابن الأثير الكامل فى التاريخ ج ٦ ص ٢٢٧ ، ٢٤٣

والمتتبع لتلك الأحداث يجد أن العلويين فى مصر وجدوا مؤازرة ومساندة من أهلها فى ثوراتهم على العباسيين ؛ بل إن بعض ولاة مصر من قبل العباسيين كانوا يكتمون أخبارهم عن دار الخلافة متعاطفين معهم ، ويبدو أن هذا الارتباط ناتج عن حب المصريين لآل البيت وبخاصة العلويون الذين قهروا من العباسيين .

وقد أدرك الخلفاء العباسيون ذلك مما جعل الخليفة المتوكل العباسى يأمر والى مصر باخراج آل أبى طالب من مصر (١) .

فخرجت مجموعة منهم فى سنة ٢٣٦ هـ/ ٨٥٠م فقدموا العراق ثم أمروا بالخروج إلى المدينة(٢).

---

(١) المقريزى · الخطط ج ١ ص ٣١٢ .

(٢) الكندى : تاريخ ولاة مصر ص ١٥٥ .

الفصل الثالث

قيام الامارات المستقلة فى مصر

أولاً: استقلال الطولونيين بمصر:

انشغل الخلفاء العباسيون بالفتن والثوات التى أثارها الأتراك ضدهم وأهملوا شئون الولايات الإسلامية التى تتبعهم ؛ بل جعلوا هذه الولايات إقطاعيات تمنح للقادة أو المقربين من الخليفة يتصرفون فيها كيفما يشاءون على أن يؤدى الواحد منهم للخليفة خراجاً معيناً ، وأناب هؤلاء القواد عنهم الرجال الذين سرعان ما فكروا فى الاستقلال بولاياتهم عن الخلافة ، وجعلها وراثية فى أولادهم من بعدهم .

ولقد ساعد موقع مصر الجغرافى ولاتها على التفكير فى الاستقلال بها عن العباسيين وشجع أولئك الولاة على ذلك دائماً طول المسافة بين مصر وبغداد وعاصمة العباسيين ، ففى العصر العباسى الأول استطاع السرى بن الحكم أن يجعل نفسه والياً مستقلا على مصر وأن يجعل ولايتها فى ابنائه من بعده مع بقائها تابعة اسمية للخلافة العباسية [1] ، واستمروا يحكمون الفسطاط أكثر من عشر سنين إلى أن نجح المأمون فى إعادة مصر مرة ثانية إلى حوزة الخلافة سنة ١٢١ هـ/ ٨٣٧م [2] .

وقد سار أحمد بن طولون على نهج السرى بن الحكم فاستطاع الاستقلال بمصر لفترة زمنية طويلة (٢٥٤ – ٢٩٢ هـ/ ٨٦٨ – ٩٠٥م) وهو تركى الأصل ، وكان أبوه أحد الأتراك الذين أرسلهم والى بلاد ما وراء النهر هدية إلى الخليفة العباسى المأمون [3] .

والحقيقة أن أحمد بن طولون نشأ مختلفاً عن غيره من الأتراك فقد كان يسعى إلى شيوخ المحدثين ، وأهل الدين من العلماء ، وينهل من علمهم ، ويتأدب بأدبهم حتى حسنت سيرته [4] مما جعل

---

(١) د . ابراهيم العدوى : تاريخ العالم الإسلامى ص ٢٥٣ .

(٢) د . سيده كاشف : مصر فى فجر الإسلام ص ٣٥٢ .

(٣) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٣١٣ .

(٤) البلوى : سيرة أحمد بن طولون ص ٣٥ .

« باكباك » القائد التركى الذى أقطعه الخليفة أرض مصر يختاره نائباً عنه بها (١) ، وكان ذلك من مظاهر الفساد السياسى فى الدولة التى كانت توزع الأقاليم إقطاعات تمنحها المقربين الذين يبقون فى العاصمة ويرسلون نواباً عنهم إلى الأقاليم يصرفون شئونه السياسية باسمهم ويجبون المال ويرسلونه إليهم لرشوة الحجاب والكتاب والقادة ليبقى الفرد منهم فى منصبه فترة طويلة ، لذا لم يترك «باكباك» عاصمة الخلافة واختار ابن طولون مكانه وأمده بالجيش اللازم (٢) .

دخل ابن طولون الى مصر سنة ٢٥٤ هـ/ ٨٦٨م متولياً للقصبة دون غيرها من الأعمال الخارجة عنها (٣) ، فقد كانت أعمال مصر مقسمة بين عدة أشخاص ، فكان على الإسكندرية إسحاق بن دينار(٤) وعلى القضاء بكار بن قتيبة (٥) ، وعلى الخراج أحمد بن المدبر (٦) وعلى البريد شقير الخادم غلام قبيحة أم الخليفة العباسى المعتز (٧) .

ومعنى ذلك أن ولاية مصر لم تكن خالصة لابن طولون الذى جاء إلى مصر وفى نيته أن يستقل بها عن الخلافة ، فما أن استقرت قدماه على أرض مصر حتى بدأ يمهد لتحقيق حلمه فى الاستقلال بمصر ، وكانت أولى العقبات أمامه عامل الخراج أحمد بن المدبر ، وقد واجهه ابن طولون مباشرة لدى دخوله أرض مصر ، فقد ذهب ابن المدبر لاستقباله وبين يديه مائة غلام أشداء وبأيديهم مقارع غلاظ ، وكانت له بهم هيبة شديدة فى قلوب المصريين ، فلما رأى أحمد بن طولون هؤلاء الغلمان فكر فى أن يجرده منهم ، وواتته الفرصة حين أهداه ابن المدبر هدية قيمتها عشرة آلاف دينار ، فلم يقبلها وردها إليه وبعد أيام أرسل إليه كتاباً يقول فيه : « قد كنت أعزك الله أهديت لنا هدية ، وقع الغنى عنها ، ونحب أن تجعل العوض عنها الغلمان الذين رأيتهم بين يديك فأنا إليهم أحوج منك » ولم يجد ابن المدبر

---

(١) ابن الأثير . الكامل ج ٦ ص ١٩٥ .

(٢) د . حسن محمود . مصر فى عصر الطولونيين والإخشيديين ص ١٧ .

(٣) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٣١٤ .

(٤) البلوى : سيرة أحمد بن طولون ص ٤٦ .

(٥) الكندى تاريخ ولاة مصر ص ٣٦١ .

(٦) المقريزى : الخطط ج ١ / ص ٣١٤ .

(٧) المصدر السابق .

بدأ من إعطائهم إليه (١) ، ويبدأ يدبر مع شقير الخادم للايقاع به عند الخليفة .

لكن ابن طولون كان متيقظاً لكل المؤتمرات التى كانت تحاك ضده واستطاع التغلب عليها ، وحين قام العلويون فى مصر بالثورة عليه ، استطاع التغلب عليهم ، وقتل بُغَا الأصغر العلوى سنة ٢٥٥ هـ/ ٨٦٩م (٢) ، وفى سنة ٢٥٩ هـ/ ٨٧٤م تمكن من القضاء على حركة ابن الصوفى العلوى الذى فرّ منه إلى مكة (٣) .

وقد شرع ابن طولون يوطد أقدامه فى مصر عقب وفاة الخليفة المعتز العباسى سنة ٢٥٥ هـ/ ٨٦٩م ، وتولى الخلافة المهتدى الذى قتل « باكباك » التركى ، وولى مصر « يارجوخ » صهر أحمد بن طولون الذى كتب إليه « تسلم من نفسك لنفسك وزاده قوة باستخلافه على مصر كلها (٤) .

أحسّ ابن المدبر بحرج موقفه فى مصر بعد ذلك أمام ابن طولون فسعى للخروج منها ليتولى الخراج فى فلسطين والأردن والشام ، وتحقق له ما سعى إليه ، وتقلد أحمد بن شجاع خراج مصر سنة ٢٥٨ هـ/ ٨٧٣ خلفاً له (٥) .

ولما مات يارجوخ صاحب مصر الذى كان ابن طولون يحكمها نيابة عنه ، ويدعو له على منابرها بعد الخليفة ، رسخت أقدامه فى مصر ، وأصبح والياً عليها من قبل الخليفة العباسى مباشرة (٦) ، وبدأت أولى خطواته فى سبيل استقلاله بمصر تتحقق فلما أرسل إليه الخليفة المعتمد سنة ٢٦٣ هـ/ ٨٧٦م يستحثه على إرسال الخراج كتب إليه « لست أطيق ذلك والخراج بيد غيرى » فأنفذ المعتمد نفيساً الخادم إليه بتقليده الخراج بمصر وبولايته على الثغور الشامية ، وبذلك أصبحت جميع أعمال مصر فى يده فقام بتولية أحمد بن شجاع الخراج من قبله (٧) .

---

(١) البلوى : سيرة أحمد بن طولون ص ٤٤ - ٤٥ .

(٢) الكندى : تاريخ ولاة مصر ص ١٦٧ .

(٣) المصدر السابق ص ١٦٨ .

(٤) البلوى : سيرة أحمد بن طولون ص ٤٦ .

(٥) المصدر السابق ص ٦٠ .

(٦) د حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام ج ٣ / ص ١٤٠ .

(٧) الكندى : تاريخ ولاة مصر ص ٧٠ .

اجتهد ابن طولون فى تقوية جيشه وبناء المراكب الحربية وأكثر من العبيد والرجال والآلات (١) وضربت الدنانير باسمه حتى صار عيار ديناره الذى عرف بالأحمدى نسبة إليه من أجود عيار (٢) .

ومما أدى إلى ثبات سلطة ابن طولون فى مصر انشغال الموفق أخو الخليفة العباسى وولى عهده بالحرب مع صاحب الزنج (٣) .

ما كادت الأمور تستقر فى مصر لابن طولون حتى واجهته مشكلة لم تدر بخلده واستطاع الخروج منها بقوة ، إذ أرسل إليه الموفق ولى عهد المعتمد والذى كان يقبض على زمام الأمور فى الخلافة بيده ، ولم يبق لأخيه من الخلافة إلا اسمها يطلب المال لمساعدته فى القضاء على ثورة صاحب الزنج ، فأمده ابن طولون بمليون ومائتى ألف دينار (٤) ، لكن الموفق الذى كان يعلم بما يدور فى مصر ومحاولة ابن طولون الاستقلال بها عن الخلافة كتب إليه كتاباً شديداً مبيناً فيه قلة ما أرسله من المال بقوله : « إن الحساب يوجب أضعافه » (٥) .

ويبدو أن طلب الموفق للمال من ابن طولون كان مجرد ستار يخفى وراءه غرضه الخاص فى التخلص من ابن طولون الذى استقلّ بمصر ، ووجد الفرصة مواتية له حين أرسل ابن طولون ردا قاسياً له على كتابه الذى أرسله يستصغر فيه كمية المال المرسلة فأحضر موسى بن بغا ، وطلب إليه صرف ابن طولون عن ولاية مصر ، وتقليدها ماجور التركى (٦) ، لكن طلب الموفق لم ينفذ كما يقول

---

(١) المقريزى : الخطط ج ١ / ص ٣١٥ .

(٢) المصدر السابق ص ٤٢ .

(٣) صاحب الزنج كان اسمه فيما ذُكِرَ على بن محمد بن عبد الرحيم ولد فى قرية من قرى الرى يقال لها ورزنين نشأ بها واستطاع جمع الزنج الذين كانوا يكسحون السباخ فى جهة البصرة ، ويكون بهم قوة استطاع أن يقاتل بها أصحاب السلطان ، وقد نسب نفسه الى زيد بن على وزعم أنه على بن محمد بن أحمد بن على بن عيسى بن زيد بن على بن الحسن بن على بن أبى طالب ، وقد نفى معظم المؤرخين هذا النسب ، وقد استطاع هذا الرجل أن يهزم قوات الخلافة العباسية أكثر من مرة الى أن هزمته جيوش الموفق ولى عهد الخليفة العباسى المعتمد وتمكنت من قتله سنة ٢٧٠ هـ/ ٨٨٤م (أنظر . ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ج ٦ / ص ٣٣١ ، سيديو : تاريخ العرب العام ص ٢٠٣) .

(٤) د . حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج ٣ / ص ١٤١ .

(٥) البلوى : سيرة أحمد بن طولون ص ٨٢ .

(٦) الكندى : تاريخ ولاة مصر ص ١٧١ .

البلوى لأن ماجور توقف عن إرساله إلى ابن طولون لعجزه عن مناهضته (١) .

والحقيقة أن ابن طولون كان قد مكن لنفسه فى مصر ، وأصبح مستعدا لمثل هذا الموقف مما جعلهم يعجزون عن مواجهته ، والدليل على ذلك أن موسى بن بغا حينما رأى عجز ما جور عن مقاتلة ابن طولون تقدم بنفسه ونزل إلى الرقة لقتاله ، إلا أنه لم يستطع وظل مقيماً بها لمدة عشرة أشهر دون قتال إلى أن توفى (٢) .

لم يكتف ابن طولون باستقلاله بمصر ، وإنما بدأ يتدخل فى أمور الخلافة خاصة بعد خلافه مع الموفق ، إذ انتهز فرصة الشقاق بين الخليفة المعتمد وأخيه الموفق فأرسل خطاباً إلى الخليفة سنة ٢٦٨ هـ/ ٨٨١م يقول فيه : « قد منعنى الطعام والشراب والنوم خوفى على أمير المؤمنين من مكروه يلحقه مع ما له فى عنقى من الأيمان المؤكدة ، وقد اجتمع عندى مائة ألف عنان أنجاد وأنا أرى لسيدى أمير المؤمنين الانجذاب إلى مصر فإن أمره يرجع بعد الامتهان إلى نهاية العز ولا يتهيأ لأخيه فيه شئ مما يخافه عليه منه فى كل لحظة ، فإن رأى أمير المؤمنين أيده الله ذلك صواباً قدمه إن شاء الله ، وأظهر الخروج لهذه القصبة » (٣) .

ويبدو أن ابن طولون أقدم على هذا العمل انتقاماً من الموفق الذى كان يقف له بالمرصاد ومحاولة لتوطيد سلطانه بالاعتماد على الخليفة حين ينتقل إلى مصر ليمارس منها مهام منصبه بعيداً عن طغيان وسطوة ولى عهده القوى .

وصل خطاب ابن طولون إلى الخليفة الذى أسرع بالكتابة إليه يعلمه أنه خارج إليه لكن الموفق الرجل القوى لم يكن ليترك الخليفة يهنأ بذهابه إلى مصر فأعد خطة مع إسحاق بن كنداج لمنع الخليفة من الرحيل إلى مصر ، وإعادته إلى بغداد ، ونجح ابن كنداج فى منع الخليفة من الذهاب إلى مصر ونال جزاء عمله من الموفق بأن عقد له على ولاية مصر (٤) .

بلغ أحمد بن طولون ما فعله الموفق وإسحاق بن كنداج فرجع إلى دمشق ، وكتب إلى عامله

---

(١) البلوى : سيرة أحمد بن طولون ص ٨٥ .

(٢) الكندى : تاريخ ولاة مصر ص ١٧١ .

(٣) البلوى : سيرة أحمد بن طولون ص ٨١ .

(٤) الكندى : تاريخ ولاة مصر ص ١٧٦ .

يأمره بإحضار القضاة والفقهاء والأشراف وأخبرهم بما حدث للخليفة المعتمد (١) وقال : قد نكث الموفق بأمير المؤمنين فاخلعوه من العهد ، ثم أمر بلعنه على المنابر (٢) .

لما علم الموفق بما فعله ابن طولون كتب إلى عماله يأمرهم بلعنه على المنابر ، فلعن عليها وكان مما يلعن به « اللهم إلعنه لعناً يفل حده ويتعس جدّه ، واجعله مثلاً للغابرين إنك لا تصلح عمل المفسدين »(٣) .

استمر ابن طولون على خلافه مع الموفق وخروجه على طاعة الخلافة إلى أن توفى سنة ٢٧٠هـ/ ٨٨٤م(٤) .

بعد وفاة أحمد بن طولون آلت الدولة الطولونية إلى ابنه خمارويه (٥) ، وواصل الحاكم الجديد السير على نهج والده فى الدفاع عن مصر والاستقلال بها ، وحمايتها من دسائس الموفق أخو الخليفة العباسى (٦) ، فأعد جيشاً كبيراً تولى قيادته بنفسه ، وهزم قوات الموفق عند دمشق ، وعقد صلحاً مع العباسيين ذكر الكندى أن المعتمد والموفق وابنه كتبوه بأيديهم بولاية خمارويه وولده ثلاثين سنة على مصر والشام (٧) ، غير أن خلفاء خمارويه لم يستطيعوا متابعة سياسته مما أدى إلى سقوط الدولة الطولونية سنة ٢٩٢ هـ/ ٩٠٥م ، وعودة مصر مرة أخرى إلى حوزة الخلافة العباسية .

ويجدر بنا أن نشير إلى طبيعة استقلال ابن طولون بمصر ، هل كان استقلالاً كاملاً أم استقلالاً اسمياً ؟ وهل اهتم ابن طولون بتقوية مركزه وتوطيد سلطانه دون الاهتمام بمصر والمصريين ؟ أم اهتم بمصر وابنائها وسعى لرفع شأنها بين الولايات الإسلامية الأخرى .

يرى الدكتور حسين مؤنس أن ابن طولون لم يستقل عن الخلافة ؛ بل ظل تابعاً لهاوأنه لم يقطع

---

(١) المصدر السابق .

(٢) ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب ج ٢ / ص ١٥٥ .

(٣) الكندى : تاريخ ولاة مصر ص ١٧٨ .

(٤) المصدر السابق ص ١٨٠

(٥) المصدر السابق .

(٦) المصدر السابق ص ١٨٢ .

(٧) المصدر السابق ص ١٨٤ .

الخطبة لبنى العباس أبداً ، واستمر يرسل المال إلى بغداد معظم أيامه وأنه لم يعمل لحساب مصر أو اعتز بقومية مصر (١) .

والحقيقة أن ابن طولون استقل بمصر استقلالاً فعلياً عن الخلافة العباسية وإن كان تابعاً لها من الناحية الاسمية ، فقد كان يسك النقود باسمه ، ويولى رجال الخراج والقضاء والشرطة بنفسه ، كما اهتم بأمر مصر فأقام جيشاً قوياً ، وبنى مدينة القطائع لجنده ، وأكثر فيها من الأسواق ، وجعل لكل مجموعة من الباعة سوقاً خاصة بهم (٢) ، وبنى مارستاناً لعلاج المرضى ولم يكن بمصر مارستاناً من قبل ، وأكثر من الصدقات على الفقراء والضعفاء والمساكين (٣) ، فلم يكن حكمه نهباً لمصر ولمقدراتها ؛ بل اهتم بها وبأبنائها ، وكان يرى أن الموظفين المصريين أقدر على تدبير شئونهم من الأجانب فاستكثر منهم حتى أصبحت الإدارة كلها فى أيديهم (٤) .

وقد صور ابن إياس : موقف ابن طولون من مصر أبرع تصوير فقال : « إن ابن طولون تسلم مصر وقد تلاشى أمرها ، وانحط خراجها فاهتم بعمارة جسورها وبناء قناطرها وحفر خلجانها ، وسد ترعها ، فاستقامت أحوال الديار المصرية فى أيامه ، ووقع العدل والرخاء حتى قيل لقد بيع من الغلال كل عشرة أرادب بدينار ، ووصل خراج مصر فى أيامه مع وجود الرخاء أربعة آلاف دينار وثلثمائة ألف» (٥) ، وكان هذا نتيجة الرخاء الذى عاش المصريون فيه تحت حكم ابن طولون فلجأوا إلى مضاعفة الدخل فى ميادين الانتاج الزراعى والصناعى والتجارى واستغل ابن طولون ذلك لمصلحة الدولة دون أن يرهق الناس بالمكوس والضرائب ، كما رأى أن الحاجة ماسة إلى الاهتمام بالسواحل والثغور ، والقوات البحرية التى تحرسها وتدرأ عنها الأخطار التى تتعرض لها ، لذلك أبدى اهتماماً واضحاً بالقوات البحرية المصرية ، ودور صناعة السفن بمصر ، فقد كان الأسطول المصرى عند وفاته مكوناً

---

(١) د . حسين مؤنس : تاريخ مصر من الفتح العربى إلى أن دخلها الفاطميون ص ٣٨٩ .

(٢) المقريزى : الخطط ج ١ / ص ٣١٥ .

(٣) المصدر السابق ص ٣١٦ .

(٤) د . حسين مؤنس : تاريخ مصر ص ٣٩٦ .

(٥) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ق ١ / ص ١٦٢ .

من ألف مركب (١) ، لذا كانت حكومته خيراً لمصر وللمصريين مما أوجب حب رعيته له .

ابن طولون والحجاز :

نشأ أحمد بن طولون نشأة دينية طيبة أشار إليها كل من أرخ له ، وكان لهذه النشأة الطيبة أثر كبير في اهتمامه بأمور الحجاز لأن أى إنسان مؤمن يهفو دائماً بنظراته تجاه الحرمين الشريفين ، ويمتلئ قلبه حباً لهم ورغبة في القرب منهما حيث مهبط الوحى وموطن الرسالة والنبوة ، لذا كان ابن طولون يرسل كل عام إلى مجاورى الحرمين كسوة الشتاء والصيف (٢) .

ولم نرفى أى مصدر من المصادر التاريخية المتاحة أنه قد ولى الحجاز بجانب مصر والشام ، إلا أن المؤرخ المكى تقى الدين الفاسى (ت ٨٣٢ هـ/ ١٤٢٩م) يرى أن ابن طولون كان والياً على مكة من قبل الخليفة العباسى المعتمد (٣) ، ويستدل لرأيه بما ذكره الطبرى فى أخبار سنة ٢٦٩ هـ/٨٨٣م من تاريخه عن المعركة التى نشبت بين المصريين والعباسيين فى مكة وهزم فيها جيش ابن طولون (٤) ، وقد تابع الفاسى فى ذلك كثير من المؤرخين الحجازيين الذين جاءوا من بعده ، واعتمدوا على روايته مثل عمر بن فهد (ت ٨٨٥ هـ/١٤٨٠م) (٥) وعبد العزيز بن فهد (ت ٩٢٢هـ/١٥١٦م) (٦) (الجزيرى (ت٩٤٤هـ) (٧) وابن ظهير (ت٩٨٦هـ) (٨) .

والحقيقة ان ابن طولون لم يتول مكة من قبل الخليفة العباسى المعتمد لأننا لم نرفى أى مصدر

---

(١) د . صابر دياب : سياسة الدول الإسلامية فى حوض البحر المتوسط ص ٥٠

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ق ١ / ص ١٦٨ .

(٣) الفاسى : شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام م ج ٢ / ص ١٨٨ - ١٨٩ .

(٤) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ج ٩ / ص ٦٥٢ - ٦٥٣ .

(٥) عمر بن فهد : اتحاف الورى ج ٢ / ص ٣٤٣ - ٣٤٤ .

(٦) عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج ١ / ص ٤٥٣ - ٤٥٤ .

(٧) الجزيرى : الدرر الفرائد ج ١ / ص ٤٤٩ - ٤٥٠ .

(٨) ابن ظهيرة : الجامع اللطيف فى فضل مكة وأهلها ص ٣٠٢ .

آخر ما يثبت ذلك كما أن استنتاج تقى الدين الفاسى لا ينهض دليلاً على تولية العباسيين له على مكة ، والرأى الذى نراه هو أن ابن طولون بعد استقلاله بمصر وتمكنه منها فكر فى بسط سلطانه على بلاد الحجاز لكنه فشل فى تحقيق هدفه بعد محاولتين كانت الأولى منهما سنة ٢٦٧هـ/ ٨٨٠م حينما حاول أنصاره الدعوة له بموسم الحج فتصدى لهم أنصار عمرو بن الليث الصغارى ، ويبين الطبرى أن كل فريق منهم نازع صاحبه فى وضع علمه على يمين المنبر فى مسجد إبراهيم خليل الرحمن ، وادعى كل منهما أن الولاية لصاحبه ، وانتصر أصحاب عمرو بن الليث ودعوا لصاحبهم فى هذا الموسم (١) .

وكانت المحاولة الثانية فى ذى الحجة سنة ٢٦٩هـ/٨٨٣م وقد تحدث عنها الطبرى ونقل عنه تقى الدين الفاسى ، فقد أرسل ابن طولون جيشاً من مصر إلى مكة قوامه أربعمائة وسبعين فارساً وألفى راجل بقياده محمد بن السراج ، وقد استطاع الجيش دخول مكة فى بداية الأمر بعد أن فرّ من أمامهم هارون بن محمد عامل الخلافة على مكة .

ويبين الطبرى أنهم قاموا بتوزيع الأموال على أهل مكة وعلى الجزارين والحناطين ورؤساء المهن المختلفة لاستمالتهم إلا أن الامدادات جاءت من العراق لوالى مكة الذى عاد مرة أخرى ونازل قوات ابن طولون وهزمهم وغنم أموالهم وقرئ كتاب فى المسجد الحرام بلعن ابن طولون (٢) .

ويبدو أن هذه المحاولة كانت نتيجة الخلاف الذى نشأ بين ابن طولون والموفق ، فأعد ابن طولون عدته للسيطرة على مكة مستغلاً هذا الخلاف ، لكن الموفق لم يكن ليسمح له بالاستيلاء على الحجاز الذى تستمد منه الخلافة شريعتها الدينية أمام المسلمين فأرسل قواته بقيادة جعفر بن الباغمردى لمساعدة والى مكة فى طرد جيش ابن طولون عنها (٣) .

وخرجت قوات ابن طولون بعد هذه المحاولة ولم يفكر مرة أخرى فى السيطرة على الحجاز إلى أن توفى سنة ٢٧٠هـ/٨٨٤م (٤) .

---

(١) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ج ٩ / ص ٥٩٩ – ٦٠٠ .

(٢) المصدر السابق ص ٦٥٢ – ٦٥٣ .

(٣) المصدر السابق .

(٤) الكندى : تاريخ ولاة مصر ص ١٨٠ .

ثانياً: الإخشيديون فى مصر :

فى أواخر عهد الطولونيين انتشرت الفوضى فى مصر واشتد التنافس عليها بين الطامعين فى السلطان ، وانتهى الأمر بأن أعدت الخلافة العباسية جيشاً لاسترداد مصر من رابع الولاة الطولونيين عليها وهو شيبان الذى بلغت الاضطرابات فى أيامه حداً خطيراً مما اضطر الخليفة المتقى أن يرسل محمد بن سليمان الكاتب الذى تمكن من دخول القطائع سنة ٢٩٢هـ/٩٠٥م وأشعل فيها النيران ونهبت جنوده الفسطاط وأخرجوا أولاد ابن طولون وأنصارهم من القواد وزالت الدولة الطولونية بعد أن حكمت مصر مدة ثمانية وثلاثين عاماً (١)

وقد ظل النفوذ العباسى غير مستقر فى مصر بعد زوال الدولة الطولونية مما شجع الولاة العباسيين على الاستقلال بمصر مرة أخرى ، إذ تطلع أحد القادة الأتراك فى الجيش العباسى فى مصر وهو محمد بن طغج إلى الانفراد بالسلطة دون القادةوالولاة المتنازعين عليها ، ومما ساعده على ذلك ما قدمه من خدمات فى الدفاع عن البلاد ضد الهجمات الفاطمية لصالح العباسيين (٢) .

ويعرف محمد بن طغج بن جف بن يلتكين بالإخشيد أى ملك الملوك (٣) ، وقد ولاه الخليفة المقتدر بالله العباسى دمشق سنة ٣١٨هـ/٩٣٠م ، واستطاع أن ينال رضا الخليفة القاهر بالله محمد الذى تولى بعد المقتدر مما جعله يضيف إليه ولاية مصر (٤) ، فورد كتاب ولايته إلى مصر فى رمضان سنة ٣٢١هـ/٩٣٣م (٥) ، وهو مقيم بدمشق ، واستطاع أحمد بن كيغلغ أن ينتزعها منه بعد أن وليها مدة اثنين وثلاثين يوماً ولم يدخلها (٦) إذ ورد كتاب الخليفة بتولية ابن كيغلغ فى شوال من نفس العام ، واستمر الصراع حول ولاية مصر حتى استطاع محمد بن طغج أن يفوز بها فى سنة ٣٢٣هـ/٩٣٥م(٧)

---

(١) الكندى : تاريخ ولاة مصر ص ١٩١ د . ابراهيم العدوى : تاريخ العالم الإسلامى ص ٢٥٧ .

(٢) د . إبراهيم العدوى : تاريخ العالم الإسلامى ص ٢٥٧ .

(٣) المقريزى : المقفى الكبير ص ١٣٠ .

(٤) المصدر السابق .

(٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٣ / ص ٢٣٦ .

(٦) المقريز · المقفى الكبير ص ١٣٠ .

(٧) المصدر السابق .

حين قلده الخليفة الراضى أعمال مصر مضافاً إلى ما بيده من الشام ، وعزل أحمد بن كيغلغ (١) الذى رفض قرار عزله ، وأسرع ناحية الفرما لكى يمنعه من دخول مصر فلم يستطع وباء بالفشل ، وكفّ عن القتال ، وسلم الأمر لابن طغج (٢) .

دخل محمد بن طغج الفسطاط فى رمضان سنة ٣٢٣هـ/٩٣٥م وقدم عليه الوزير أبو الفتح الفضل بن جعفر بن محمد بن الفرات ومعه الخلع فخلع عليه (٣) .

لم يكد محمد بن طغج يتولى أمور مصر حتى قابلته عدة مصاعب استطاع التغلب عليها لتوطيد مركزه فى البلاد .

ففى سنة ٣٢٤هـ/٩٣٦م هاجم الفاطميون مصر بأمر من القائم بأمر الله محمد بن المهدى وهزمت قواتهم وعادت من حيث أتت ، مما جعل الخليفة العباسى يأمر بزيادة لقب الإخشيد على اسمه، وهو اللقب الذى كان يطلق على ملوك فرغانة (٤) .

ومن المصاعب التى تغلب عليها الإخشيد خروج محمد بن رائق (٥) إلى الشام واستيلائه عليها ، ثم سيره إلى العريش متجهاً إلى مصر كى يأخذها من الإخشيد ، فاضطر الإخشيد لمحاربته عند العريش فهزم ابن رائق ، وفرّ هاربا إلى الرملة (٦) ، وسار الحسين بن طغج وراءه من الرملة حتى إلتقيا عند اللجون ، وهى بلدة قريبة من طبرية ، فتمكن ابن رائق من الانتصار على جيش الإخشيد ، وقتل الحسين بن طغج (٧) ، إلا أنه رغم انتصاره أحسّ أنه لن يستطيع الصمود أمام قوة المصريين ، وعقد صلحاً مع الإخشيد ، يتكفل فيه الإخشيد بأن يحمل إليه كل سنة ١٤٠٠٠٠ مائة وأربعون ألف دينار

---

(١) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ج ٧ / ص ١٢٦ .

(٢) الكندى : تاريخ ولاة مصر ص ٢١٥ .

(٣) المقريزى : المقفى الكبير ص ١٣٢ .

(٤) المصدر السابق .

(٥) كان الخليفة العباسى الراضى قد رفع محمد بن رائق إلى مرتبة أمير الأمراء فتطلع إلى وضع يده على الشام فوقع الصدام بينه وبين الاخشيد وجرت بينهما عدة معارك غير حاسمة انتهت بعقد صلح بين الطرفين .

(٦) الكندى : تاريخ ولاة مصر ص ٢١٨ .

(٧) المقريزى : المقفى الكبير ص ١٣٤ .

على أن تكون الرملة ، وما بعدها إلى ديار مصر للإخشيد ، وما بعد الرملة إلى جهة دمشق تكون لابن رائق [1] ، واستقرت الأحوال للإخشيد بعد كل هذه المصاعب .

توفى الخليفة العباسى الراضى بالله فى سنة ٣٢٩هـ/٩٤١م وبويع إبراهيم بن المقتدر بعده ولقب « المتقى لله » فورد كتابه على الإخشيد بإقراره على ولايته فى شوال سنة ٣٢٩هـ [2] وقتل ابن رائق فى العام التالى على يد بنى حمدان ، فوجد الإخشيد أن الفرصة مواتية له لضم بلاد الشام إليه ، فبعث جنوده إلى دمشق وضم الشام إلى ولايته بتأييد من الخليفة المتقى [3] الذى ضم إليه الحرمين الشريفين وعقد لولديه من بعده على أن يكفلهما كافور الاخشيدى [4] .

اشتقرت الأمور للإخشيد بمصر وازدهرت الدولة فى عهده ، وعنى بالأمن والنظام فيها ، وصلحت النقود فى عهده حتى أنه أمر بضرب الدينار الإخشيدى على عيار كامل وعظم الجيش [5] وصار قوياً لدرجة أن الخليفة العباسى المتقى طلب منه العون والمشورة فيما يتعرض له من مؤامرات الأتراك ، وخاصة أمير الأمراء « توزون » وتقابلا بالرقة فى المحرم سنة ٣٣٣هـ/٩٤٤م وقد حمل إليه الإخشيد هدايا كثيرة له ولحاشيته ، وأشار عليه أن يسير معه إلى مصر وحذره من غدر الأتراك [6] ، لكن الخليفة لم يستجب لنصحه وعاد إلى بغداد حيث تلقاه « توزون » التركى فسمل عينيه وخلعه ، وأحضر عبد الله بن المكتفى وبايعه بالخلافة ولقبه المستكفى بالله ، وقد ورد الخبر ببيعة المستكفى إلى مصر فى جمادى الآخرة سنة ٣٣٣هـ ومع الكتاب إقرار الإخشيد على ما بيده [7] .

لم تكد الأمور تستقر للإخشيد حتى قام بنو حمدان بمهاجمة ولاته فى الشام وتمكن الاخشيد من السيطرة على الأمور ، وعقد صلحاً بينه وبين حمدان لأنه كان يرغب فى استقرار دولته وقد ظل

---

(١) ابن الاثير . الكامل ج ٧ ص ١٥٠

(٢) المقريزى : المقفى الكبير ص ١٣٤ .

(٣) المصدر السابق .

(٤) الطبرى · إتحاف فضلاء الزمن لوحة (٩) .

(٥) آدم متز · الحضارة الإسلامية ج ١ / ص ٤١ .

(٦) السيوطى : تارخ الخلفاء ص ٣٩٥ .

(٧) المقريزى المقفى ص ١٣٥ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج١١ / ص ٢١٠ .

الإخشيد والياً على مصر والشام إلى أن توفى سنة ٣٣٤هـ/٩٤٥م (١) ، وولى بعده ابنه أبو القاسم أنوجور وكان صغيراً فأقيم كافور الإخشيدى وصياً عليه يقوم بتدبير أموره ، وفعلا أصبحت السلطة كلها فى يد كافور الذى كان يعطيه فى السنة أربعمائة ألف دينار (٢) ، ولهذا فكر أنوجور فى الهرب إلى بلاد الشام لإعداد جيش بمعاونة عمه الحسن بن طغج الذى كان ينقم على كافور وصايته ، على أن يسير بهذه القوات إلى مصر لتخليصها من يد كافور لكن سوالدة أنوجور أصلحت بينه وبين كافور خوفاً على ابنها من انتقام كافور وظل أنوجور بلا إرادة ولا سلطة حتى توفى سنة ٣٤٩هـ/٩٦٠م (٣) فأقام كافور مكانه أخاه أبا الحسن على بن الإخشيد ، وأقره الخليفة العباسى على الحرب والخراج بمصر والشام والحرمين وصار كافور نائباً له ، ومدبراً لأموره حتى توفى سنة ٣٥٥ هـ/ ٩٦٦م فبقيت مصر أياماً بغير أمير لها ولم يُدْعَ بها إلا للمطيع وحده ، وكافور يدير أمور البلاد ، ومعه أبو الفضل جعفر ابن الفرات (٤) .

والحقيقة أن كافور الإخشيدى لم يكن ليستطيع أن يستقل بأمور مصر بنفسه أو أن يباشرها دون موافقة الخليفة العباسى وكان كافور يعلم أنه مولى للإخشيد لذا كان دائماً يختفى وراء أولاد الإخشيد ويدبر أمور البلاد من وراء الستار حتى اقتنع العباسيون بكفاءته ، وأنه المدبر الحقيقى لأمور البلاد فورد كتاب المطيع بولايته فى المحرم سنة ٣٥٥هـ/٩٦٦م (٥) .

على أن كافور الإخشيدى لم يستمر طويلاً فى حكم مصر فقد توفى سنة ٣٥٧هـ/٩٦٨م فاجتمع كبار القادة ورجال الدولة وقرروا إسناد ولاية البلاد لأبى الفوارس أحمد بن على بن الاخشيد وكان صغيراً ، لم يتجاوز الحادية عشرة من عمره ، وساءت الأحوال فى عهده وأصبحت البلاد مسرحاً للفوضى وتدهورت الأحوال المالية ، الأمر الذى ساعد الفاطميين على دخول مصر والسيطرة عليها والتمكن منها سنة ٣٥٨ هـ / ٩٦٩م (٦) .

---

(١) الكندى : تاريخ ولاة مصر ص ٢٢٠ .

(٢) المصدر السابق

(٣) الكندى : تاريخ ولاة مصر ص ٢٢٢ .

(٤) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٢٩ .

(٥) الكندى . تاريخ ولاة مصر ص ٢٢٣ .

(٦) المقريزى : الخطط ج ١ / ص ٣٣٠ .

الإخشيديون والحجاز:

كانت بلاد الحجاز تحت سيطرة العباسيين يولون عليها الولاة من قبلهم يباشرون أمورها بأنفسهم ويتصدون لمن يحاول فرض سلطته على الحرمين ، إلا أنه فى سنة ٣٣١ هـ/٩٤٣م أسندت ولاية مكة والمدينة إلى محمد بن طغج الاخشيد والى مصر من قبل الخليفة العباسى الراضى (١) ، واستمر ذلك إلى عهد الخليفة العباسى المتقى الذى كان على صلة حسنة وطيبة بالإخشيد وقد حرص على أن يقوى جانبه مادياً وأدبياً ليلجأ إليه عند الحاجة تخلصاً من سلطة الأتراك عليه وعلى الخلافة العباسية ، فمد سلطانه بأن ولاه بلاد الحجاز بالإضافة إلى مصر والشام ، كما جعل هذه الولاية له ، ولأولاده من بعده لمدة ثلاثين عاماً ، وصار يُدْعَى له مع الخليفة العباسى على منابر مكة والمدينة بالإضافة إلى مصر والشام (٢) .

ولم تذكر المصادر التاريخية المتاحة من كان يتولى أمر مكة من قبل الإخشيد فى تلك الفترة ، وإن كان المؤرخ المكى تقى الدين الفاسى يرى أن تولية الصلاة بالحرمين للإمامين عبد السميع وعبد العزيز ابنا عمر بن الحسن بن عبد العزيز (٣) مكان أبيهما يدل على ولاية الإخشيد للحرمين ، فتقليدهم للصلاة فيها يقتضى أنهما فى ولاية الاخشيد (٤) .

ويبدو أن تقليد الإخشيد لولاية مكة كان تقليداً شكلياً (٥) ، لأنه لا يوجد فى ضوء المصادر

---

(١) د . جمال سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ص ٢٠٠ .

(٢) د . أحمد شلبى موسوعة التاريخ الإسلامى ج ٥ / ص ٩٨ ، الفاسى : العقد الثمين ج ٢ ص ٣٠ - ٣١ .

(٣) هو عمر بن الحسن بن عبد العزيزالهاشمى كان يتولى الصلاة بالحرم الشريف وفى أيام الحج ، وقد حج بالناس من سنة ٣١٨ هـ/ ٩٣٠م الى سنة ٣٣٥ هـ/ ٩٤٦م ثم تولى القضاء بمكة ومصر سنة ٣٣٦ هـ/ ٩٤٧م وظل ينظر فى الأحكام إلى النصف من ذى الحجة سنة ٣٣٩ هـ/ ٩٥١م (المسعودى : مروج الذهب ٤/ ٤٠٨ ، الكندى : تاريخ ولاة مصر ص ٣٧١ - ٣٧٢ ، الفاسى : شفاء الغرام ٢/١٩٣) .

(٤) الفاسى : العقد الثمين ج ٢ / ص ٣٠ - ٣١ ، شفاء الغرام ج ٢ / ص ١٩٢ .

(٥) د . سيدة كاشف · مصر فى عصر الإخشيديين ص ٩١ .

المتاحة أن الإخشيد قد تدخل فى شئون مكة الداخلية أو عين نائباً عنه فى الحجاز ؛ بل إنه كان يكتفى بالدعاء له علي منابرها ، وكان يعتز بذلك ، ويشير إليه فى مراسلاته ، كما جاء فى رسالته إلى إمبراطور الروم التى يقول فيها : « هذا إلى ما نتقلده من أمر مكة المحفوفة بالآيات الباهرة والدلالات الظاهرة ، فإنا لو لم نتقلد غيرها لكانت بشرفها وعظيم قدرها وما حوت من الفضل توفى كل مملكة لأنها محج آدم ، ومحج إبراهيم وإرثه ، ومهاجره ، ومحج سائر الأنبياء ، وقبلتنا ، وقبلتهم عليهم السلام، ومنها مدينةرسول الله – صلى الله عليه وسلم – المقدسة بتربته ، وأنها مهبط الوحى ، وبيضة هذا الدين المستقيم الذى امتد ظله على البر والبحر » (١) .

وبعد وفاة محمد بن طغج الإخشيد بدمشق سنة ٣٣٤ هـ/٩٤٥م (٢) ، تولى الحكم من بعده ابنه أبو القاسم أنوجور (٣) ، وفى هذا العام استولى البويهيون على بغداد ، وصاروا أصحاب النفوذ الحقيقى والسلطان الفعلى فى العراق ، وأصبح اسم معز الدولة البويهى يذكر فى الخطابة بعد ذكر الخليفة العباسى (٤) .

ولقد حاول البويهيون القضاء على نفوذ الإخشيد بالحجاز مما أدى إلى نشوب كثير من الخلافات بين أنصار الفريقين العراقى والمصرى ، فقد تمسك المصريون بعقد المتقى للإخشيد ، ولولده من بعده (٥) ، وأصر العراقيون على الدعوة لمعز الدولة البويهى ولأخيه ركن الدولة ، ولولده عز الدولة بعد الخليفة العباسى المطيع (٦) مما أدى إلى حدوث اشتباك بين الفريقين فى موسم الحج سنة ٣٤١ هـ/

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٧ / ص ١٣ – ١٤ .

(٢) الكندى · تاريخ ولاة مصر ص ٢٢٠

(٣) المصدر السابق .

(٤) محمد الخضرى . تاريخ الدولة العباسية ص ٣٨٠ .

(٥) الفاسى . شفاء الغرام ج ٢ / ص ١٩٢ .

(٦) المصدر السابق .

٩٥٣م [١] ، وكان على رأس الفريق المصرى عمر بن الحسن بن عبد العزيز المتولى للصلاة بالحرم الشريف ، وأحمد بن عمر بن يحيى العلوى أمير الحاج العراقى وانتصر أصحاب معز الدولة وأقاموا الخطبة بمكة للخليفة العباسى ولبنى بويه من بعده [٢] .

ثم حدث اشتباك آخر سنة ٣٤٢ هـ/ ٩٥٤م بين أنصار الإخشيد والحاج العراقى لم يتمكن فيه أنصار الإخشيد من الدعوة لصاحبهم ، وتمكن أنصار معز الدولة من الدعوة له [٣] إلا أنه فى سنة ٣٤٣ هـ/ ٩٥٥م حدث قتال بين الفريقين أسفر عن الدعوة للبويهيين ثم لأبى القاسم أنوجور الإخشيدى [٤] ، وتمكن الإخشيديون من الدعوة لصاحبهم هذه المرة .

وفى سنة ٣٤٨ هـ/ ٩٥٩م استطاع أمير الحاج العراقى الدعوة للخليفة العباسى ثم لبنى بويه بعد خداعه لأمير الحاج المصرى بإتفاق على إفراد الخليفة بالخطبة دون سواه [٥] ، لكن الإخشيديين سرعان ما استعادوا نفوذهم الاسمى مرة أخرى على الحجاز ، بعد أن ولى الخليفة العباسى المطيع لله كافور الإخشيدى على مصر والشام والحجاز ، وأصبح يُدْعَى له على منابرها .

ويبدو أن كافور الاخشيدى لم يترك نائباً عنه بمكة ، وإنما اكتفى بالدعوة له على منابرها فى مواسم الحج شأنه فى ذلك شأن بقية أسرة الإخشيد .

ولما تولى الإخشيديون أمر الحجاز دخلت المدينة ضمن نفوذهم الاسمى فأبقوا للعباسيين سيادتهم عليها والمتمثلة فى الدعوة لهم على منابرها .

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ج ١١/ ص ٢٢٥ .

(٢) القاسى : العقد الثمين ج ٢ / ص ١٨٥ .

(٣) ابن فهد : اتحاف الورى ج ٢ ص ٣٩٨ .

(٤) المصدر السابق ص ٣٩٩ .

(٥) المصدر السابق ص ٤٠٠

ويتضح مما سبق أن الدولة العباسية حين ضعفت فى العصر العباسى الثانى كان الحجاز بالنسبة لهم بلداً بعيداً ثقيل التكاليف ، وصلاح أحواله يتطلب مالاً ، ورعاية الحجاج تتطلب رعاية ونفقة، لذا بدا لهم أن الحل المناسب للحجاز هو أن تتولى مصر أموره ، وتتكفل برعاية الحجاج المسلمين وأهل الحجاز ، فعهدوا بإدارة أموره إلى محمد بن طغج الإخشيد الذى أقام دولته الإخشيدية بمصر ، وصار الرجل القوى الذى يعتمد عليه ، وخطب له على منابر مكة والمدينة مع الخليفة العباسى .

الفصل الرابع
قيام الخلافة الفاطمية فى بلاد المغرب

مدخل:

فى هذا الفصل سنتناول نشأة الشيعة منذ عهد على بن أبى طالب ثم تطورها وتعددها إلى فرق مختلفة ومنها الدعوة الاسماعيلية والدور الكبير الذى قام به دعاتها فى سبيل قيام الدولة الفاطمية ثم توطيد الفاطميين لمركزهم وسلطانهم ببلاد المغرب ، وفى الفصل التالى سوف نتناول انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر .

نشأة الشيعة وتطورها:

توفى الرسول – صلى الله عليه وسلم – ولم يوصِ لأحد بالخلافة من بعده ، بل ترك الأمر شورى بين المسلمين يختارون من يريدون ، وقام أمر الخلافة كله على البيعة ، فصارت الخلافة عقداً بين الخليفة والرعية يعطى فيه الخليفة العهد على نفسه أو يسوس المسلمين بالحق والعدل وأن يرعى مصالحهم وأن يسير فيهم سيرة النبى – صلى الله عليه وسلم – ويعطى المسلمون العهد على أنفسهم بطاعته ونصحه ، وقد لخص أبو بكر أول خليفة للمسلمين هذه السياسة بقوله : « أطيعونى ما أطعت الله فاذا عصيت فلا طاعة لى عليكم ، وما أنا إلا كأحدكم فإذا رأيتمونى قد استقمت فاتبعونى ، وإن زغت فقومونى » (١) .

بويع أبو بكر – رضى الله عنه – بعد اتفاق جمهور المسلمين من المهاجرين والانصار فى سقيفة بنى ساعدة إثر نقاش أثمر هذه البيعة الكاملة ، ولما شعر أبو بكر بدنو الأجل عهد لعمر بن الخطاب بعد استشارة المسلمين فرضوا به ، وبايعوه ولم يختلف عليه اثنان ، وكانت القاعدة الأساسية التى أقام أبو بكر وعمر عليها نظام حكمهما أن يسيرا سيرة النبى –صلى الله عليه وسلم– فى المسلمين ما وجدا إلى ذلك سبيلا ، وكان قوام هذه السيرة تحقيق العدل الخالص المطلق بين جميع المسلمين دون محاباة لأحد.

---

(١) ابن قتيبة الإمامة والسياسة ج١/ص١٦ .

ولقد حافظت السياسة الرشيدة التى انتهجها أبو بكر وعمر من بعده على استقرار البلاد ، وأمنها ، ثم تلتها سياسة عثمان بن عفان فى اللين مع أقاربه وتوليةً بعضهم الأمصار الإسلامية (١) [illegible] الإسلامية مما أدى لحدوث الفتنة التى انتهت

[illegible] الله عنه – وتولى الخلافة فى ظروف عصيبة عقب الفتنة [illegible] نتت الوحدة الاسلامية فقد رفض معاوية بن أبى سفيان والى [illegible] الجديد ، وتولى زعامة المعارضة التى تطالب بثأر عثمان [illegible] على – رضى الله عنه – تأجيل الأمر إلى أن تهدأ الفتنة وتستقر حالة الدولة ، ولما لم يصل الطرفان إلى اتفاق حدثت بينهما عدة معارك أدت لانقسام الأمة إلى فريقين متقاتلين فظهر الحزب الشيعى الذى يضم من ينتصرون لعلى بن أبى طالب ، أو يتشيعون له ويؤازرونه ويساندونه فى موقفه من معاوية وأنصاره (٢) .

ويبدأ التاريخ السياسى للشيعة فى بلاد العراق بعد خروج على بن أبى طالب إلى الكوفة باتخاذها عاصمة له بدلاً من المدينة المنورة لمحاربة الخارجين عليه ، ثم انضمام معظم أهل العراق ليه(٤) وقد ظهر ذلك جلياً بعد مقتله على يد الخوارج ، إذ رأى جنده وشيعته مبايعة ابنه الحسن

---

(١) المقريزى : الخطط ج ١ / ص ٣٣٥ .

(٢) ابن لأثير : الكامل فى التاريخ ج ٣ / ص ٩٤ – ٩٥ .

(٣) يقول ابن النديم : « لما خالف طلحة والزبير عن على – رضى الله عنه – ليقاتلهما حتى يفيئا إلى أمر الله جل اسمه فتسمى من اتبعه على ذلك الشيعة فكان يقول شيعتى » ويتفق مع الشهر ستانى فى أن الشيعة هم الذين شايعوا عليا – رضى الله عنه – على الخصوص وقالوا بإمامته وخلافته و يبين ابن خلدون أن الشيعة لغة هم الصحب والاتباع ويطلق فى عرف الفقهاء والمتكلمين من الخلف والسلف على اتباع على وبنيه – رضى الله عنهم – وطبقاً لهذا فإن الحزب الشيعى فى عهد على كان يضم أصحابه وأنصاره واتباعه الذين يطالبون بحقه فى الخلافة ، ولم يكن لهم أى مذهب أو عقيدة فى الخلافة سوى ذلك . (انظر : ابن النديم · الفهرست ص ٢٤٩ ، الشهرستانى الملل والنحل ج ١ / ص ١٤٦ ، ابن خلدون: المقدمة ص ٢٤٦) .

(٤) د . إبراهيم العدوى : المجتمع المغربى ص ٢٤٠ .

بالخلافة بعده ، إلا أنه نظر للأمور نظرة صائبة فقد كان يكره الفتن ويحب وحدة المسلمين وألفتهم ، كما كان خصمه قوى الشكيمة فلم ير لنفسه ولا لأمته خيراً من التنازل لمعاوية ومصالحته فكتب إليه ببيعته(١)، وغضب أهل العراق لأن الحسن خلع نفسه من الخلافة واعتبروه مسئولاً عن ضياع جهودهم، وجهود أبيه ويروى ابن قتيبة أن الحسن استطاع تهدئة نفوسهم بعد أن خطب فيهم مبيناً هدفه من التنازل فقال : « إنكم شيعتنا وأهل مودتنا ، ومن نعرفه بالنصيحة والصحبة والاستقامة لنا وقد فهمت ما ذكرتم ، ولو كنت بالحزم فى أمور الدنيا وللدنيا أعمل وأنصب ، ما كان معاوية بأبأس منى بأسا ، وأشد شكيمة ولكن رأيى غير ما رأيتم ولكنى أشهد الله وإياكم أنى لم أرد بما رأيتم إلا حقن دمائكم وإصلاح ذات بينكم فاتقوا الله وارضوا بقضاء الله وسلموا الأمر لله والزموا بيوتكم » (٢)

وسلم الحسن الكوفة إلى معاوية فى أواخر ربيع الأول سنة ٤١ هـ/ ٦٦١م ، وهدأت الأحوال وسمى المسلمون ذلك العام بعام الجماعة (٣) .

تولى معاوية أمر الأمة الاسلامية واستطاع أن يرسى أسس الحكم والسيادة لبنى أمية على قواعدمتينة ، وولى زياد بن أبيه على العراق (٤) ليتولى إخضاع الشيعة ويضمن عدم خروجهم على الدولة فاستطاع زياد أن يقبض على زمام الأمور بيد من حديد .

تغير الموقف عقب تولية يزيد للخلافة ، وتحول الحكم فى الدولة الإسلامية من نظام الشورى إلى النظام الوراثى حيث تجددت الفتنة ، وثارت أهم المدن الإسلامية ، وخاصة مكة والكوفة ، ففى مكة ثار عبد الله بن الزبير وفى الكوفة وجد الشيعة أن الفرصة واتتهم للثورة على الأمويين فأرسلوا للحسين بن على يطلبونه (٥) ويحرضونه على المطالبة بالخلافة لأنه أحق بها من يزيد بن معاوية ، فدعا الحسين ابن عمه مسلم بن عقيل بن أبى طالب وطلب منه المسير نحو الكوفة ليتبين الأمر ، وأمره بتقوى الله وكتمان أمره فإن رأى الناس مجتمعين على بيعته عجل إليه بذلك (٦) .

---

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج ٣ / ص ٢٠٠ ، محمد الخضرى تاريخ الأمم الاسلامية – الدولة الأموية ص ٤٠٧.

(٢) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة ج ١ / ص ١٦٤ .

(٣) المسعودى : مروج الذهب ج ٣ / ص ٤ ، الشيخ الخضرى : الدولة الأموية ص ٤٠٧ .

(٤) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج ٣ / ص ٣٠٧ .

(٥) المسعودى : مروج الذهب ج ٣ / ٦٤ ، ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج ٢ / ص ٢٨٥ .

(٦) محمد الخضرى : الدولة الأموية ص ٤٥٤ .

سار مسلم إلى الكوفة وأقبلت عليه الشيعة فاغتر بلقائهم الحماسى ، وأرسل إلى الحسين يستعجل قدومه إليه ، ومن ناحية أخرى أحست السلطات الأموية بما يحدث فى الكوفة فبادرت بإرسال عبيد الله بن زياد واليا عليها لضبط الأمور بها على النهج الذى اتبعه والده من قبل أيام الخليفة معاوية ابن أبى سفيان واستطاع الوالى الجديد السيطرة على الأمور وانتصر على الشيعة وقتل قادتهم ومن بينهم مسلم بن عقيل (١) ، وكان الحسين قد تأهب للمسير فنصحه كبار الصحابة وغيرهم بالابتعاد عن العراق وعدم الاطمئنان لشيعته (٢) ، فلم يستجب وخرج فى جماعة صغيرة من شيعته تبلغ ثمانين رجلاً ومعه نساؤه وأطفاله قاصداً الكوفة ، فلما بلغه ما حدث لم يتراجع (٣) ، بل سار إليها والتقى بالقوات الأموية فى معركة غير متكافئة سقط فيها قتيلاً عند كربلاء بالقرب من الكوفة فى العاشر من محرم سنة ٦١ هـ/ ٦٨١م (٤) .

ولقد صارت هذه الواقعة تمثل نقطة تحول فى ظهور فرقة الشيعة التى ظلت طوال العصرين الأموى والعباسى تطالب بأحقية أولاد على بن أبى طالب فى الخلافة دون غيرهم ، وانضم إليهم كثير من الموالى الذين كانوا يؤمنون بنظريات الحكم عند الفرس (٥) ، فهم يؤمنون بنظرية الحق الملكى المقدس كما يسميها المحدثون من الباحثين (The Divine Right) ويدافعون عن الوراثة فى السلطان (٦) ، وانقسمت الشيعة إلى فرق متعددة نشير إليها فيما يلى :

أولاً: الكيسانية :

قيل هم أتباع المختار بن أبى عبيد الثقفى الذى قتل كثيراً من المتهمين بقتل الحسين ثأراً له ،

---

(١) المسعودى : مروج الذهب : ج ٣ / ص ٦٨ .

(٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج ٣ / ص ٣٩٩ .

(٣) المصدر السابق ص ٤٠٤

(٤) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ج ٢ / ص ٧ ، المسعودى : مروج الذهب ج ٣ / ص٧ ، ابن الطقطقى الفخرى فى الآداب السلطانية ص ١٠٠ ، ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج ٣ / ص ٤٣٢ .

(٥) Nicholson, Prof Reynold A: Literary History of the Arabs . p. 198. (London. 1914)

(٦) د أحمد شلبى . موسوعة التاريخ الإسلامى ج ٣ / ص ٢٤ .

وكان المختار يُدْعَى كَيْسَان (١) ، وقيل إن هذه الفرقة تنسب إلى كَيْسَان مولى علي-رضى الله عنه-(٢) وقد شكلت عقب مقتل الحسين – رضى الله عنه – لدعوة الشيعة للالتفاف حول محمد بن علي المعروف بابن الحنفية بعد مصرع أخويه الحسن والحسين (٣) ، وقد اشتهر هذا المذهب على يد المختار الذى ثار داعياً لابن الحنفية ولقب بالإمام المهدى (٤) .

ولقد جسدت الدعوة الكيسانية تعاليم الشيعة فى كثير من الغلو فقالت بالإمامية وعصمتها والمهدية والرجعة (٥) ، وقد تبرأ ابن الحنفية من تلك الضلالات التى ابتدعها المختار حتى وفاته (٦) فافترقت الكيسانية فرقاً منهم القائلون أن محمداً ابن الحنفية حى لم يمت وأنه فى جبل رضوى (٧) وهو المهدى المنتظر (٨) ، وذهب البعض منهم إلى الإقرار بموت محمد بن الحنفية وانتقال الإمامة منه إلى ابنه أبى هاشم (٩) .

وقد عمد زعماء الشيعة إلى إخفاء أشخاصهم وإتباع طريق الدعوة السرية خوفاً من بطش الأمويين وظلوا يتوارثون العداء لبنى أمية ويدعون لأنفسهم سراً ، ويرى الدكتور : إبراهيم العدوى (١٠) « أن الكيسانية استمرت قائمة حتى سنة ٩٨ هـ/٧١٧م حين قامت الدعوة العباسية على أكتاف دعاة هذه الفرقة وتراثها » ففى عهد الخليفة الأموى سليمان بن عبد الملك أدرك أبو هاشم بن محمد بن الحنفية بعد إحدى زياراته لهذا الخليفة أن أمره صار معروفاً ، وأنهم دسوا له السم فى الطعام ،

---

(١) عبد القاهر : الفرق بين الفرق ص ٢٦ .

(٢) الشهرستاني . الملل والنحل ج ١ / ص ١٤٧ .

(٣) د. ضياء الدين الريس . النظريات السياسية الإسلامية ص ٧٢ .

(٤) عبد القاهر : الفَرْق بين الفِرَق ص ٢٧ ، ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ج ٤ / ص ٢٩ .

(٥) الشهر ستانى · الملل والنحل ج ١ / ص ١٤٧ .

(٦) المصدر السابق ص ١٤٩ .

(٧) رضوى جبل ضخم من جبال تهامة وهو من ينبع على بعد يوم ومن المدينة على تسع مراحل ميامنة طريق المدينة وعلى ليلتين من البحر وبقرب خيبر وهو جبل متين ذو شعاب وأودية (الحميرى : الروض المعطار ص ٢٦٩) .

(٨) عبد القاهر . الفرق بين الفرق ص ٢٧ .

(٩) الشهرستاني · الملل والنحل ج ١ / ص ١٥٠ .

(١٠) د . إبراهيم العدوى : المجتمع المغربى ص ٢٤٢ .

أولاد فاطمة - رضى الله عنها - ولم يجوزوا ثبوت الإمامة فى غيرهم ، إلا أنهم أجازوا الإمامة ووجوب الطاعة لكل فاطمى عالم شجاع خرج يطلبها سواء أكان من أولاد الحسين أو من أولاد الحسن - رضى الله عنهما - (١) ، وقد مالت الزيدية إلى الاعتدال حتى صار أتباعها أقرب إلى أهل السنة .

وكان لأنصار هذه الفرقة عدة ثورات لكنها انتهت بمقتل أصحابها ففى سنة ١٢٥ هـ/ ٧٤٢م سار يحيى بن زيد على نهج أبيه وخرج على الأمويين فقتل وصلب بجوزجان خراسان (٢) كما خرج محمد بن عبد الله بن الحسن الملقب بالنفس الذكية وثار على العباسيين بالحجاز وتلقب بالمهدى ، لكنه قتل ، كما قتل أخوه إبراهيم الذى أعلن الثورة على العباسيين بالبصرة ومعه عيسى بن زيد بن على فوجه إليهما المنصور عساكره فقضى عليهما وعلى كثير من أنصارهما ، وخرج محمد بن القاسم بالطالقان فى عهد المعتصم حيث حبس ومات (٣) .

وقد استمرت الفرقة الزيدية منذ العصر الأموى وطوال العصر العباسى .

ثالثاً: الفرقة الإمامية :

وهم القائلون بإمامة على - رضى الله عنه - بعد النبى - صلى الله عليه وسلم - (٤) وساقوا الإمامة من بعده إلى ابنه الحسن بالوصية ثم إلى أخيه الحسين ثم إلى ابنه على زين العابدين ثم إلى ابنه محمد الباقر ثم إلى ابنه جعفر الصادق (٥) فهم يرون أن الإمامة وراثية من على بن أبى طالب - رضى الله عنه - يرثها ابناؤه من فاطمة - رضى الله عنها - ويغلب أن يكون أكبر الأبناء سناً وقد انقسموا إلى فرقتين هما :

---

(١) الشهرستانى . الملل والنحل ج ١ / ص ١٥٤ - ١٥٥ .

(٢) ابن الأثير . الكامل فى التاريخ ج ٤ / ص ٤٧٢ .

(٣) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٥٠ - ٢٥١

(٤) الشهرستانى : الملل والنحل ج ١ ص ١٦٢ .

(٥) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٥١

١ - الفرقة الموسوية أو الاثنا عشرية :

وهم الذين قالوا بإمامة موسى الكاظم الابن الأصغر لجعفر الصادق (١) ، ويسمون بالموسوية نسبة إليه ، وقد سموا بالاثنى عشرية لوقوفهم عند الثانى عشر من الأئمة وأولهم على بن أبى طالب - رضى الله عنه - ثم ابنه الحسن فالحسين ثم بقية الأئمة من أبناء وأحفاد الحسن وهم على زين العابدين ومحمد الباقر وجعفر الصادق وموسى الكاظم وولده على الرضا ثم محمد التقى الجواد ثم على الهادى بن محمد التقى ثم الحسن العسكرى ثم ابنه محمد القائم المنتظر وهو الثانى عشر وقد اختفى هذا الإمام سنة ٢٦٠ هـ/ ٨٧٤م وهم يقولون بغيبته إلى آخر الزمان (٢) .

٢ - الفرقة الاسماعيلية :

وتتميز الاسماعيلية باثبات الإمامة لإسماعيل بن جعفر الصادق وهو ابنه الأكبر المنصوص عليه فى بداية الأمر (٣) ، وتنسب إليه الفرقة فتسمى بالاسماعيلية ، وتسمى بالسبعية لأن إسماعيل يعد الإمام السابع حسب ترتيبهم (٤) ، وتعرف بالباطنية نسبة إلى قولهم بالظاهر والباطن (٥) .

وفائدة النص عندهم على إسماعيل وإن كان قد مات قبل أبيه هو بقاء الإمامة فى عقبه (٦) ، ولقد انتقلت الإمامة من إسماعيل إلى ابنه المكتوم ثم ابتدئ منه بالأئمة المستورين الذين كانوا يسيرون فى البلاد سراً ويظهرون الدعاة لهم جهراً (٧) ، وهناك روايتان مختلفتان عن اسمائهم فيذكر المقريزى أنهم : عبد الله الرضى بن محمد المكتوم ، ثم أحمد الوفى بن عبد الله الرضى ، ثم الحسين التقى بن أحمد الوفى ثم عبد الله المهدى (٨) ، بينما يرى ابن خلدون أنهما اثنان هما جعفر بن محمد المكتوم ،

---

(١) الشهرستانى : الملل والنحل ج ١ / ص ١٦٩ ، عبد القاهر الفرق بين الفرق ص ٣٩ .

(٢) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٥١ - ٢٥٢ .

(٣) الشهرستانى . الملل والنحل ص ١٩١ .

(٤) كلود كاهن : تاريخ العرب والشعوب الاسلامية ص ٧٧ .

(٥) النعمان : المجالس والمسايرات ورقة ٩٦ .

(٦) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٥١ .

(٧) الشهرستانى . الملل والنحل ج ١ / ص ١٩٢ .

(٨) المقريزى : المقفى الكبير ص ٥٥ .

وابنه محمد الحبيب وهو آخر المستورين وبعده عبيد الله المهدى مؤسس الدولة الفاطمية (١) وهذا الاختلاف نتيجة طبيعية لدور الستر ، ويبدأ دور الأئمة المستورين فى تاريخ الشيعة منذ إسماعيل ، والإمام المستور هو الذى يختفى تقية حتى تشتد قوته ، وتظهر شوكته فيعلن الثورة والخروج على العباسيين(٢).

وسوف نبين دور هذه الفرقة فى قيام الخلافة الفاطمية بالمغرب ثم انتقالها إلى مصر .

الدعوة الاسماعيلية وقيام الخلافة الفاطمية:

كانت الشيعة الاسماعيلية من أنشط فرق الشيعة بفضل إجادتها تطبيق التعاليم التى نادى بها مذهبهم وذلك منذ تقنينها على يد الإمام أبى عبد الله جعفر الصادق والد الإمام إسماعيل الذى تنسب إليه الفرقة الاسماعيلية ، إذ استطاع الإمام جعفر الصادق بفضل دقته التامة فى تطبيق عقيدة التقية وابتعاده عما يثير حوله الريب أن ينجو من بطش الأمويين والعباسيين فقد عاصر هذا الإمام آخر أيام الدولة الأموية وصدراً من خلافة العباسيين حيث توفى سنة ١٤٨ هـ/ ٧٦٥م وهى السنة العاشرة من خلافة أبى جعفر المنصور الخليفة العباسى الذى اشتد أذاه بالعلويين وكان السبب فى سلامته أيضا اتخاذه من العلم سبيلا يحقق به أهدافه ويدعم تعاليمه (٣) ، إذ يذكر ابن خلكان أنه اشتغل بالكيمياء والزجر والفأل ، ويقال إن من تلاميذه جابر بن حيان الذى ألف كتاباً يتضمن رسائل أستاذه جعفر الصادق وهى خمسمائة رسالة (٤) ، وفى أيامه بدأ تنظيم الدعوة السرية التى نهضت بها طائفة الاسماعيلية من بعده (٥) ، إذ قام بتوجيه دعاته إلى بلاد المغرب لنشر المذهب الاسماعيلى ، ففى سنة ١٤٥هـ/٨٦٢م أرسل جعفر اثنين من خيرة دعاته إلى هناك ، وهما الحلوانى وأبو سفيان وأمرهما أن يفترق كل واحد منهما عن صاحبه حتى ينشر الدعوة فى رقعة كبيرة من أرض المغرب فنزل أبو سفيان

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٥٢ .

(٢) الشهرستانى : الملل والنحل ج ١ / ص ١٩٢ ، د . العدوى . المجتمع المغربى ص ٢٥٠ .

(٣) د . إبراهيم العدوى : المجتمع المغربى ص ٢٥١ .

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ / ص ٣٢٧ .

(٥) د . إبراهيم العدوى . المجتمع المغربى ص ٢٥١ .

بموضع يسمى مرماجنة (١) ، فأقام بها وابتنى مسجداً وتزوج واشتغل بالعمل والعبادة والذكر حتـ اشتهر وذاع صيته فى المدن الأخرى ، وكان أهلها يأتون إليه ويسمعون منه ويأخذون عنه وبفضله أصـ أهل مرماجنه من الشيعة (٢) .

أما الثانى فكان يعرف بالحلوانى قد ترك صاحبه وتقدم حتى وصل الى سوجمار (٣) ، فنز موضعاً يقال له الناطور فأقام به حتى تشيع على يديه كثير من كتامة وكان يقول لهم : بعثت أنا وأ سفيان فقيل لنا : اذهبا إلى المغرب فإنما تأتيان أرضاً بوراً فاحرثاها واكرباها وذللاها إلى أ يأتيها صاحب البذر فيجدها مذللة فيبذر حبه فيها (٤) .

ولذلك فإن البحث لا يرى أن ابن حوشب هو الذى أرسل هذين الداعيين بعد دخوله إلى اليمن كم يرى الدكتور جمال سرور فى كتابه الدولة الفاطمية فى مصر (٥) لأن الداعيين أرسلا سنة ١٤٥هـ/٨٦٢م ، بينما كان دخول ابن حوشب إلى اليمن فى أول سنة ٢٦٨هـ/٨٨٢م (٦) ؛ بل إن ابو حوشب هو الذى طلب من أبى عبد الله الشيعى كما سنبين فيما بعد أن يذهب إلى بلاد المغرب لأنها أصبحت ممهدة له بعد أن حرثها الحلوانى وأبو سفيان (٧) .

توفى جعفر الصادق فتولى قيادة الشيعة الاسماعيلية محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق الذى يسمى محمد المكتوم لأنه طلب إلى أنصاره كتمان اسمه (٨) ، ولجأت الاسماعيلية فى هذا الدور من

---

(١) مرماجنه بافريقية وتقع قريبا من الاربس وبينها وبين مجانة مرحلتان وكانت مدينة قديمة وكبيرة وبها عيون مياه كثيرة وخيراتها كثيرة (الحميرى : الروض المعطار ص ٥٤٠) .

(٢) القاضى النعمان : رسالة افتتاح الدعوة ص ٥٤ – ٥٥ .

(٣) سوجمار هى قرية سجرمة الحالية بالجزائر (المقريزى : المقفى الكبير حاشيه ص ٢٦) .

(٤) القاضى النعمان : رسالة افتتاح الدعوى ص ٥٧ – ٥٨ .

(٥) د . جمال سرور : الدولة الفاطمية فى مصر ص ١٨ من طبعتى ١٩٧٠/١٩٧٩ حيث يقول : « ثم بعث ابن حوشب الدعاة إلى اليمامه وعمان والبحرين والسند والهند والمغرب ، وكان مبعوثاه إلى المغرب أبا سفيان والحلوانى وقد نصح لهما ابن حوشب أن يبتعد كل منهما عن صاحبه فى نشر دعوة الاسماعيلية ويمهدا بعملهما لظهور المهدى ودولته » .

(٦) المقريزى : كتاب المقفى الكبير ص ٦٤ .

(٧) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٤١ ، المقريزى:الخطط ج ١/ ص ٣٤٩ اتعاظ الحنفا ج ١/ ص ٥٥،المقفى الكبيرص٦٤

(٨) المقريزى : الخطط ج ١ / ص ٣٤٩ .

الدعوة إلى السرية وإخفاء شخصية الأئمة ، وقد اتخذت هذه الفرقة من مدينة سلمية بالشام مركزاً لنشر دعوتها فى شتى بلدان العالم الاسلامى ، وبدأوا يختارون نواباً للأئمة كل نائب يسمى الحجة (١) ، وهم يقومون بدورهم بارسال الدعاة من قبلهم لنشر الدعوة الاسماعيلية فى العالم الإسلامى .

ومن أشهر نواب الأئمة الاسماعيلية الذين قاموا بنشر هذا المذهب ميمون القداح الذى شارك الإمام محمد بن إسماعيل فى وضع دعامة المذهب الاسماعيلى وقد مهد السبيل لابنه عبد الله بن ميمون(٢) ، الذى اتجه بدوره إلى سلميه ومنها بعث الدعاة فى سائر البلدان الإسلامية ، واشتهر من أولئك الدعاة ابنه أحمد الملقب بأبى الشلعلع الذى الت إليه رئاسة الدعوة سنة ٢٧٠هـ/٨٨٤م بعد وفاة والده ، وبدأ فى عهده تنظيم الخطوات العملية لدعم النشاط الاسماعيلى فى بلاد المغرب ، وجعل سبيل الاتصال بمواطن كتامة أرض اليمن لبعدها عن متناول العباسيين فى بغداد ، ولقربها فى نفس الوقت من بلاد الحجاز حيث تأتى وفود الحجاج من كل مكان ، ومن بينهم حجاج كتامة ، وصارت بلاد اليمن مركز إعداد للدعاة المختصين ببلاد المغرب وتولى هذه المهمة داعى الدعاة فى اليمن ابن حوشب (٣) .

وظهر فى هذه المرحلة الإعداد المباشر للاتصال ببلاد المغرب واختيار الدعاة الصالحين لها ، وتدريبهم على مهمتهم الجديدة فاختار إمام الاسماعيلية رجلاً من أهل صنعاء يسمى أبا عبد الله

---

(١) كلود كاهن : تاريخ العرب والشعوب الاسلامية ص ١٧٧ .

(٢) ابن النديم . الفهرست ص ٢٦٤ - ٢٦٥ ، المقريزى : المقفى الكبير ص ٢٥٧ ، د/ حسن إبراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤

(٣) أبو القاسم الحسن بن الفرح بن حوشب بن زاذان من مواليد الكوفة ، وكان من بيت علم وتشيع وطلب الحديث والفقه على مذاهب الامامية الاثنى عشرية واتصل بامام الاسماعيلية فاستطاع أن يحوله لخدمة الشيعة الاسماعيلية ونشر مبادئهم فى اليمن وأرسله الى هناك مع رجل من أهل جيشان اليمن يسمى أبو الحسن على بن الفضل حيث دخلاها فى أول سنة ٢٦٨هـ وأقاما باليمن يدعوان الناس سنتين مستترين كى يتمكنا من نشر مبادئ الاسماعيلية وجذب الأنصار والمؤيدين لهما ، ثم ظهرت الدعوة سنة ٢٧٠ هـ للمهدى على يد ابن حوشب واستولى على أكثر اليمن وتسمى منصور اليمن لما أتيح له من النصر والظفر ببلاد اليمن ، وبنى حصنا بمدينة « لاعة » على جبل جنوبى صنعاء وجعلها مركزا لنشر دعوته وفرق الدعاة فى اليمن واليمامة والبحرين والسند والهند ومصر والمغرب (انظر : المقريزى : المقفى الكبير ص ٦٠ - ٦٥ ، ابن خلدون العبر ج ٤ ص ٤٠ - ٤١ ، ٦٢ . د. إبراهيم العدوى : المجتمع المغربى ص ٢٥٤)

الحسين بن أحمد بن محمد بن زكريا الشيعى (١) ، والمعروف بالمحتسب (٢) ، والذى سيشتهر فى بلاد المغرب باسم أبى عبد الله الشيعى .

والحقيقة أن اختيار أبى عبد الله يدل على براعة إمام الاسماعيلية فى اختيار دعاته ، فقد اختار رجلاً كان يتولى الحسبة بالبصرة (٣) ومعروف أن المحتسب رجل يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويكون خبيراً بكثير من النواحى الدينية والدنيوية التى تؤهله للقيام بعمله على خير وجه ، وكان للمحتسب شروط متعددة عرضت لها كتب الحسبة كى يتولى هذا المنصب (٤) ، وهو باختياره لهذا الرجل يدرك أن عمله السابق سوف يجعله قادراً على الاتصال بعامة الناس وإدراك أحوالهم ونشر مذهبه بينهم ، وكما يقول ابن خلدون فإن الإمام رأى ما فيه من الذكاء فأرسله إلى ابن حوشب فى مقره ودار هجرته ليتلقى أصول الدعوة الاسماعيلية على يديه حيث لزمه وشهد مجالسه وأفاد من عمله ، وكما يقول أحد المستشرقين فقد شاءت الأقدار أن تزود الشيعة الاسماعيلية بهذا الداعية العبقرى (٥) . الذى صاحب ابن حوشب وتخرج على يديه ، وصار من كبار أصحابه ورأى ابن حوشب فيه خير خلف لكل من الحلوانى وأبى سفيان اللذين سبق إرسالهما إلى بلاد كتامة على يد الإمام جعفر الصادق ، وكانا قد توفيا منذ زمن ، وصارت الدعوة الاسماعيلية فى حاجة إلى من يتابع نشرها فطلب إليه ابن حوشب أن يتجه إلى هناك ، وقال له : « إن أرض كتامة من المغرب قد حرثها الحلوانى وأبو سفيان وقد ماتا وليس لها غيرك فبادر فإنها موطأة ممهدة لك » (٦) وزوده بالمال وطلب منه أن يذهب إلى مكة ليلتقى بحجاج كتامة ويبدأ معهم المسير .

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ / ص ١٩٢ ، المقريزى : المقفى الكبير ص ٢٥ .

(٢) ابن خلدون : العبر ج ٢ / ص ٤١ .

(٣) المصدر السابق .

(٤) الشيزرى : نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ص ٦ ، ابن الأخوة : معالم القربة فى احكام الحسبة ص ٥١ - ٥٢ .

(٥) كلود كاهن : تاريخ العرب والشعوب الاسلامية ط ص ١٧٩ .

(٦) القاضى النعمان : رسالة افتتاح الدعوة ص ٦٠ ، المقريزى : اتعاظ الحنفا ج ١ / ص ٥٥ ، الخطط ج ١ / ص ٣٤٩ ، المقفى الكبير ص ٢٥ ، ابن خلدون : العبر ج ٤ / ص ٤١ ، كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ص ٢٥١.

أبو عبد الله الشيعي ودوره في قيام الدولة الفاطمية :

لما حان وقت رحيل أهل اليمن للحج خرج أبو عبد الله الشيعي معهم إلى مكة [1] فوصلها في موسم الحج وشرع يباشر مهمته بالسؤال عن حجاج كتامة [2] فأرشده بعض الحجاج إليهم حيث يجلسون وسمعهم يتحدثون عن فضائل آل البيت ، فوجد الفرصة مواتية ليدلي بدلوه في الحديث ، وأسرع بالجلوس معهم وأخذ يحدثهم بما لم يعلموه [3] ، فأعجبوا به إعجاباً شديداً لما رأوه من بلاغته ، وسعة علمه [4] ، وسألوه أن يأذن لهم بزيارته [5] . للاستزادة من علمه فسمح لهم ، وبعد انقضاء موسم الحج سألوه عن المكان الذى سيتجه إليه فأخبرهم أنه ذاهب إلى مصر وهو يخفى غرضه الحقيقى عنهم حتى يتمكن من معرفة مدى تأثيره فيهم ، وقد بدا ذلك واضحاً حينما سروا لدى سماعهم قوله ، وأخبروه أن طريقهم واحد وصحبوه فى رحلتهم [6] ، فشاهدوا من عبادته وزهده ماجعلهم يتعلقون به[7] ، وقد تمكن أبو عبد الله بمهارته ودهاء الرجل الحاذق الخبير بصنعته أن يعرف جميع أخبارهم بعد أن سألهم عن أحوالهم وقبائلهم وموقفهم من حكام بلادهم [8] فلما وصلوا إلى مصر زعم أنه سيتركهم لطلب العلم بها فتمسكوا به ، وطلبوا منه الرحيل معهم [9] فلم يجبهم إلى رأيهم واحتال عليهم بتعليق الأمر على الاستخارة [10] مما زادهم إعجاباً به ، ثم أجابهم ورحل معهم [11] حتى وصل

---

(١) القاضى النعمان ، رسالة افتتاح الدعوة ص ٦٢ ، ابن خلدون : العبر ج ٤ / ص ٤١ .

(٢) محمد بن محمد اليماني : السيرة الاسماعيلية لجعفر الحاجب لوحة (٦٧) .

(٣) المقريزى : المقفى الكبير ص ٢٥ .

(٤) ابن خلدون : العبر ج ٤ / ص ٤٢ .

(٥) المقريزى ، المقفى الكبير ص ٢٦ .

(٦) المصدر السابق .

(٧) المقريزى الخطط ج ١ / ص ٣٤٩ .

(٨) القاضى النعمان . رسالة افتتاح الدعوة ص ٦٤ .

(٩) المقريزى المقفى الكبير ص ٢٦ .

(١٠) المصدر السابق .

(١١) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ص ٢٥١ .

مواطن كتامة فى منتصف ربيع الأول سنة ٢٨٨هـ/٩٠١م (١) ، وأقبل أهل كتامة مرحبين به طالبين منه النزول فى ضيافتهم (٢) لكنه سألهم أين يكون فج الأخيار ؟ فتعجبوا من سؤاله خاصة وأنهم لم يذكروه له فى طريقهم (٣) ، ومن هذا السؤال يتضح مدى خبرة هذا الرجل بمواطن كتامة ، وما جمعه من معلومات وأخبار عنها قبل قدومه إليها .

أرشد الكتاميون أبا عبد الله إلى فج الأخيار وهو مكان فى جبل إيكجان (٤) فأقام به واشتهر أمره بين الناس فأقبلوا عليه من كل مكان (٥) ، فكان يقول لهم : « هذا فج الأخيار وما سمى إلا بكم ولقد جاء فى الآثار للمهدى هجرة عن الأوطان ينصره فيها الأخيار من أهل ذلك الزمان ، قوم اسمهم مشتق من الكتمان (٦) ، فأنتم أهل كتامة وبخروجكم من هذا الفج يسمى فج الأخيار » (٧) فانضم إليه كثير من أهل كتامة فجاهر بمذهبه ، وأعلن بإمامة أهل البيت (٨) ، وقال لهم : « أنا صاحب البذر الذى ذكر لكم أبو سفيان والحلوانى » فازدادت محبتهم له وتعظيمهم لأمره (٩) ، وتزايد عدد أنصاره ، ويرجع السبب فى سرعة تزايد أنصاره للمفاسد الكثيرة التى وقعت من إبراهيم الثانى بن الأغلب أمير البلاد الذى اشتد فى إيذاء الناس ، وقسى عليهم فى جمع الضرائب فصاروا فى شوق لمن يخلصهم من هذا العناء وتطلعوا إلى دعوة أبى عبد الله باعتبارها طوق النجاة من هذه المتاعب (١٠) .

ومن ناحية أخرى فقد كان للشيعة فى بلاد المغرب أساس يعتمدون عليه قام به الداعيان السابقان اللذان مهدا الطريق أمام أبى عبد الله الذى تميز بذكائه ودهائه حتى جعل كتامة أسلس قياداً له .

---

(١) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٤٢ .

(٢) المقريزى · الخطط ج ١ / ص ٣٥٠ ، المقفى الكبير ص ٢٧ .

(٣) المقريزى : اتعاظ الحنفا ج ١ / ص ٥٦ .

(٤) إيكجان · جبل بين سطيف وقسنطينه فيه قبائل كتامة (الحميرى : الروض المعطار ص ٧١) .

(٥) القاضى النعمان · رسالة افتتاح الدعوة ص ٧٣

(٦) المقريزى : الخطط ج ١ / ص ٣٥ .

(٧) المقريزى : المقفى الكبير ص٢٧

(٨) ابن خلدون · العبر ج٤/ص٤٢ .

(٩) المقريزى . اتعاظ الحنفا ج ١ / ص ٥٧ .

(١٠) د . إبراهيم العدوى : المجتمع المغربى ص ٢٥٦ .

الأربس (١) سنة ٢٩٦هـ/٩٠٩ ، وفر زيادة الله إلى مصر (٢) فدخل أبو عبد الله عاصمتهم رقادة ، واتخذها مقراً لسلطانه ، وأمر بضرب السكة وألا ينقش عليها اسم وكتب عليها من وجه « بلغت حجة الله » ومن الوجه الآخر « تفرقت أعداء الله » (٣) .

خروج المهدى إلى المغرب :

كان المهدى يعيش فى سلميه متخفياً وسط بنى هاشم وقد ادعى أنه تاجر عباسى من ولد عبد الله بن العباس (٤) ودعاته يأتون اليه سراً بزكاتهم وهداياهم (٥) فكانت الأموال الكثيرة تحمل إليه من كل مكان انتشر فيه الدعاة واستغل المهدى هذه الأموال لصالح الدعوة استغلالاً عظيماً ، فيروى صاحب السيرة الاسماعيلية أنه كان يتقرب إلى كل عامل يلى سلمية يلاطفه ويبالغ فى الإحسان إليه بإرسال الهدايا فيصير كل من يلى البلد أسير عطفه وإحسانه لكثرة ما يعطيه لهم (٦) ، وقد ضمن هذا العمل له استقراراً بسلمية بعيداً عن أعين العباسيين يستقبل الدعاة ويوجههم الى كافة الأقطار الإسلامية ، فلما انتصر أبو عبد الله الشيعى وأظهر أمره فى بلاد المغرب جاءت رسله إلى المهدى يخبرونه بما فتح الله عليهم وأنهم فى انتظاره ووصل خبره إلى الخليفة العباسى المكتفى الذى آلمه ما حدث فى بلاد اليمن والمغرب فأرسل إلى ولاته بتعقب حركاته وسرعة القبض عليه (٧) .

خرج عبيد الله المهدى من سلمية ومعه خاصته وثقات رجاله (٨) ، وأظهر أنه يريد السفر إلى

---

(١) الأربس . مدينة بينها وبين القيروان مسيرة ثلاثة أيام وتعرف ببلدة العنبر (الحميرى : الروض المعطار ص ٢٤)

(٢) المقريزى : المقفى الكبير ص ٣١

(٣) المصدر السابق : ص ٣٢ .

(٤) محمد بن محمد اليمانى : السيرة الاسماعيلية لجعفر الحاجب لوحة (٥) .

(٥) أحمد بن محمد النيسابورى . كتاب استتار الامام لوحة (٥) .

(٦) محمد بن محمد اليمانى . السيرة الاسماعيلية لجعفر الحاجب لوحة (٥)

(٧) ابن خلدون العبر ج ٤ / ص ٤٤

(٨) ابن الأبار . الحلة السيراء ص ١٩١

اليمن (١) حتى يضلل من يتعقبه من رجال العباسيين ، فوصل الرملة ، ويذكر صاحب السيرة الاسماعيلية أنه نزل على والى البلاد من قبل العباسيين وكان من شيعته فلما ورد عليه كتاب الخلافة بالقبض على المهدى وفيه صفته واسمه أخفى أمره عنهم (٢) ، وترك المهدى الرملة إلى مصر فاستقبله دعاته بها وعلى رأسهم أبو على الداعى فأنزله عند ابن عياش الذى كان يتمتع بمنزلة كبيرة لدى ولاة مصر (٣) ، واستطاع الدعاة فى مصر مساعدته على الخروج متخفياً فى زى التجار إلى طرابلس (٤) وبعث المهدى أبا العباس محمد بن أحمد أخا أبى عبد الله الشيعى كى يخبره بقدوم المهدى ، وكان أبو عبد الله منشغلاً آنذاك بحروبه مع جيوش زيادة الله بن الأغلب الذى أتته الأخبار بحقيقة المهدى وأعوانه فعلم أن أبا العباس من أنصار المهدى فأمر بالقبض عليه ، وأرسل إلى والى طرابلس يأمره بالقبض على المهدى (٥) ، لكن المهدى استطاع الهرب من طرابلس إلى سجلماسة (٦) ، واستأجر بها داراً أقام فيها (٧) ، وتقرب إلى إليسع بن مدرار فأهدى إليه كثيراً من الأموال حتى أحبه وقربه منه (٨) دون أن يعرف حقيقة أمره ، فلما سقطت دولة الأغالبة اكتشف حكام سجلماسة أمر عبيد الله المهدى فأمر إليسع بن مدرار بوضعه فى السجن ومعه أبو القاسم (٩) وبعد استقرار الامور لأبى عبد الله الشيعى أعد قواته لإطلاق سراح المهدى وأسرع اليه فاستولى فى طريقه على تاهرت عاصمة الدولة الرستمية التى انهارت قواها بسبب الخلافات المستمرة بين حكامها (١٠) ، وتابع زحفه الى سجلماسة

---

(١) محمد بن محمد اليمانى : السيرة الاسماعيلية لجعفر الحاجب لوحه (٥) .

(٢) المصدر السابق لوحة (٣) .

(٣) محمد بن محمد اليمانى : السيرة الاسماعيلية لجعفر الحاجب لوحة (٢٨) ، د. سرور : الدولة الفاطمية فى مصر ص ٢٢ .

(٤) المقريزى · اتعاظ الحنفا ج ١ / ص ٦١ .

(٥) المصدر السابق .

(٦) المصدر السابق .

(٧) محمد بن محمد اليمانى : السيرة الاسماعيلية لجعفر الحاجب لوحه (٥٥) .

(٨) المقريزى : الخطط ج ١ / ص ٣٥٠ .

(٩) د . إبراهيم العدوى · المغرب العربى ص ٢٦٠ .

(١٠) المصدر السابق .

فهرب أميرها من أمامه (١) وأنقذ أبو عبد الله الشيعى المهدى وابنه وجميع من كان معه (٢) .

وبانتصار أبى عبد الله على إليسع بن مدرار قضى على الدويلات القائمة فى شمال افريقية وهزم دولة الأغالبة فى تونس ، ودولة بنى رستم فى تاهرت ، ودولة بنى مدرار فى سجلماسة وملك الفاطميون كل ذلك (٣) .

قيام الدولة الفاطمية بالمغرب:

خرج عبد الله المهدى وابنه من السجن ومشى أبو عبد الله بجوار المهدى مع رؤساء القبائل (٤) ، يقول للناس هذا مولاكم وهو يبكى سعادة وفرحاً لأنه أنجز مهمته على خير وجه ويرى ثمارها أمامه بظهور المهدى ونجاح الدعوة ، وأقام المهدى بسجلماسة أربعين يوماً (٥) ينظم الأمور بها ثم سار إلى رقادة فى ربيع الآخر سنة ٢٩٧هـ/٩١٠م فنزل قصراً من قصورها (٦) ، وأمر يوم الجمعة أن يذكر اسمه فى الخطبة على منابر البلاد ، ولقب نفسه بالمهدى أمير المؤمنين (٧) وبذلك قامت الدولة التى اختار لها اسم الدولة الفاطمية ليعبر عن تحقيق الحلم الذى راود الشيعة طويلاً فى نقل الخلافة إلى أبناء على ابن أبى طالب – رضى الله عنه – من زوجته فاطمة بنت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وأخذ يعمل فى حزم من أجل دعم دولته وتوطيد السلطة له ولأبنائه من بعده فى هذه المرحلة من مراحل العمل العلنى بعد انتهاء مراحل الكتمان التى كانت تعتمد على الأئمة المستودعين من نسل عبد الله بن ميمون القداح بعد كتمان أسماء الأئمة خوفاً وتقية من العباسيين (٨) ، وأصبح كتمان أسماء الأئمة المستقرين

---

(١) محمد بن محمد اليمانى : السيرة الاسماعيلية لجعفر الحاجب لوحة (٨٧) .

(٢) أحمد النيسابورى · كتاب استتار الامام لوحة (٥٩) .

(٣) ابن الآبار . الحلة السراء ص ١٩٢ .

(٤) أحمد النيسابورى : كتاب استتار الامام لوحة (٥٩) .

(٥) المقريزى : الخطط ج ١ / ص ٣٥٠ .

(٦) أحمد بن محمد النيسابورى : كتاب استتار الامام لوحة (٥٩) المقريزى : اتعاظ الحنفا ج ١ / ص ٦٦ .

(٧) المقريزى : الخطط ج ١ / ص ٣٥٠ .

(٨) د . إبراهيم العدوى : المجتمع المغربى ص ٢٦٠ .

من محمد بن اسماعيل إلى عبيد الله المهدى جزءاً من الدعوة بعد نجاح الفاطميين فى توليهم الخلافة مما جعل أعداءهم يدخلون من هذه الناحية للشك والطعن فى نسبهم كى يقوضوا الدعائم التى قامت الدولة على أساسها (١) .

استمرت الدولة الفاطمية فى المغرب منذ قيامها إلى أن انتقلت إلى مصر نيفاً ونصف قرن (٢) وتولى الحكم فى هذه الفترة أربعة من خلفائهم : المهدى أبو محمد عبد الله ، والقائم بأمر الله أبو القاسم نزار ، والمنصور بنصر الله أبو الطاهر إسماعيل ، والمعز لدين الله أبو تميم معد ، وقد بذل هؤلاء الخلفاء جهوداً كثيرة للتمكين للدولة وتقويتها والقضاء على كل القوى المعارضة وسيعرض البحث لكل خليفة منهم ودوره فى بناء الدولة ، ثم المحاولات الفاطمية المتعددة لغزو مصر والتى انتهت بالفتح سنة ٣٥٨هـ/٩٦٩م .

المهدي أبو محمد عبيد الله (٢٩٧-٣٢٢ هـ/٩١٠-٩٣٤م)

استمر المهدى فى رقادة وقسم أعمال افريقية على رؤساء كتامة وأرسل أبا عبد الله الشيعى إلى بلاد المغرب الأوسط والأقصى كى يخضع أهلها لطاعته وسار أبو عبد الله سنة ٢٩٧هـ مع بعض زعماء كتامة ودعاتهم إلى تلك البلاد فافتتح مدنها ثم سار على رأس جيش آخر سنة ٢٩٨هـ لإخضاع قبائل زناتة جنوبى بلاد كتامة فدخلوا فى طاعته وشرع يجبى منهم الأموال (٣) ، ولما عاد أبو عبد الله أمر المهدى بقتله ، إذ يذكر ابن حماد أن المهدى قتل أبا عبد الله وأخاه أبا العباس ببستان فى القصر وأمر بهما فغسلا وكفنا وصلى عليهما وأمر بدفنهما فى موضعهما الذى قتلا فيه من البستان (٤) ، ويعلل قتلهما بارتدادهما عليه .

كما يروى الداعى إدريس عماد الدين أن أبا عبد الله الشيعى وأخاه قد داخلها الحسد من

---

(١) د . جمال الدين الشيال · مصر فى العصر الفاطمى ص ٤٢٤ .

(٢) المرجع السابق ص ٤٢٦ .

(٣) د . جمال سرور : الخلافة الفاطمية فى مصر ص ٢٥ .

(٤) ابن حماد : أخبار ملوك بنى عبيد وسيرتهم ص ٤٣ .

المهدى لأنه تولى مقاليد الأمور منهما وأن أبا عبد الله ذهب إلى المهدى يصرح بما فى نفسه على سبيل النصح قائلاً : إنى قد قومت هؤلاء الكتاميين فأجريتهم على ما أردت من التقويم وأخذتهم على ترتيب وتعليم فاستقام لى أمرهم وجلب نفعهم ودفع ضرهم (١) ، فلو تركت لى أمرهم وكنت فى قصرك وادعاً لكان ذلك أهيب لك ، فلما لم ير من المهدى استجابة بدأ مع أخيه يدبران المؤامرات للخروج عليه (٢)

والحقيقة أن أبا عبد الله كان رجلاً ماهراً ذكياً ولو أراد الأمر لنفسه ما أرسل فى طلب المهدى كما أنه لم يكن ليتجر أو يطلب من المهدى الأمر لنفسه بعد أن أصبح الخليفة الشرعى للبلاد والجند يأتمرون بأمره وإنما قتله المهدى خوفاً من نفوذه ، وقد وصفه المقريزى بقوله : « كان أبو عبد الله من الرجال الدهاة الخبيرين بما يصنعون ، أحد رجالات العالم القائمين بنقض الدول وإقامة الممالك العظيمة من غير مال ولا رجال » (٣) ، فقد كان أبو عبد الله يتمتع بحب أهل كتامة وطاعتهم ، ولم لا ، فقد كان المهدى يستمتع بالراحة فى سلمية وأبو عبد الله يحمل العبء كله للدعوة فى بلاد المغرب ، فالمهدى أرسله إلى ابن حوشب مزوداً ببعض النصائح ، وبقى فترة فى اليمن يتلقى عنه ، ثم تركه ابن حوشب دون أتباع أو أنصار وزوده ببعض المال واستطاع هذا الرجل العبقرى أن يستميل أهل كتامة إلى جانبه وبفضل شجاعته ونبوغه أقام الفاطميون دولتهم وقتل أبو عبد الله الشيعى كما قتل أبو سلمة الخلال الذى مهد الأمر وبث الدعوة للعباسيين حتى قامت دولتهم (٤) .

بعد مقتل أبى عبد الله ثار أنصاره غضباً لمقتله فتصدى لهم المهدى وقتل عدداً منهم وأمن الناس (٥) وثارت كتامة وأقاموا طفلاً لقبوه المهدى ونصبوا له دعاة كدعاة أبى عبد الله ، كما ادعوا أن أبا عبد الله حىٌ لم يمت فاجتمع اليه كثير من الناس وزحفوا إلى ميلة فأرسل إليهم ابنه أبا القاسم فقاتلهم وانتصر عليهم (٦) .

---

(١) الداعى ادريس : عيون الأخبار – السبع الخامس ص ١١٧ .

(٢) المصدر السابق ص ١١٨

(٣) المقريزى : اتعاظ الحنفا ج ١ / ص ٦٨ .

(٤) المصدر السابق ص ٧٢ .

(٥) ابن خلدون : العبر ج ٤ / ص ٤٨ ، المقريزى · المقفى الكبير ص ٩٠ .

(٦) الداعى ادريس : عيون الأخبار – السبع الخامس ص ١٢٢ .

ويذكر ابن خلدون أن ثورة أخرى هبت فى طرابلس سنة ٣٠٠هـ/٩١٢ فأخرجوا واليهم من قبل المهدى فبعث ابنه أبا القاسم فحاصرها طويلاً ثم فتحها ، وقضى على الثوار (١) .

وأعد المهدى حملة إلى مصر سنة ٣٠١ هـ/٩١٣م ولكنها فشلت فى تحقيق أهدافها وهزم أفرادها (٢) ، وخرج أهل صقلية عن طاعته وقبضوا على عاملهم ودعوا للمقتدر العباسى سنة ٣٠٤هـ/٩١٦م فاستطاع أن يعيدهم إلى حوزة الخلافة الفاطمية مرة أخرى (٣) ، وأعد حملة ثانية إلى مصر بقيادة ابنه وولى عهده أبى القاسم فلم تفلح كسابقتها .

استطاع المهدى القضاء على المناوئين لخلافته وشرع فى بناء عاصمة جديدة محصنة تحصيناً قوياً لتستطيع الصمود إذا ما هبت ثورة مفاجئة على أسرته وسميت بالمهدية نسبة إليه وقال هذه المدينة بنيتها لتعتصم بها الفواطم ساعة من نهار (٤) ، ويبدو أنه أقامها لتكون قاعدة انطلاق لحملات الفاطميين البحرية فى حوض البحر المتوسط فضلاً عن اتخاذها مركزاً لتجارتهم ، لذا نجده يتخذ الوسائل الكفيلة بتدعيم قواته ومنشآته فيأمر بإصلاح دار الصناعة القديمة التى كانت قائمة فى إفريقية فكانت السفن تسير للدار فيجرى إصلاحها وتجديدها ، وبنى المهدى دار صناعة أخرى فى مدينته الجديدة تتسع لنحو مائة مركب (٥) معظمها من نوع الشوانى (٦) ، ويذكر الإدريسى أن المهدية كانت ذات إقلاع وحط للسفن الحجازية القاصدة إليها من بلاد المشرق والمغرب وتجلب إليها البضائع(٧).

---

(١) ابن خلدون : العبر ج ٤ / ص ٤٩ .

(٢) انظر الحديث عن الحملات الفاطمية على مصر .

(٣) ابن خلدون : العبر ج ٤ / ص ٤٩ .

(٤) المقريزى : المقفى الكبير ص ٩٢-٩٣ ، الادريسى : نزهة المشتاق ج ١ / ص ٢٨٣ ، الحميرى : الروض المعطار ص ٥٦١ . سيد أمير على : مختصر تاريخ العرب ص ٤٨٥ .

(٥) د . صابر دياب : سياسة الدول الاسلامية فى حوض البحر المتوسط ص ٩٨ - ٩٩ .

(٦) الشوانى : جمع شينى . وهى أقدم أنواع السفن الحربية وهى سفن كبيرة الحجم كثيرة الحمولة وكان الفاطميون يقيمون فيها أبراجاً وقلاعاً مربعة للدفاع والهجوم (د . صابر دياب : سياسة الدول الاسلامية ص ١٠٧ - ١٠٨) .

(٧) الادريسى : نزهة المشتاق ج ١ / ص ٢٨١ .

وبعد حكم استمر أربعاً وعشرين سنة توفى عبيد الله المهدى سنة ٣٢٢هـ/٩٣٤م وخلفه ابنه القائم (١) .

القائم بأمر الله أبو القاسم محمد: (٣٢٢-٣٣٤هـ/٩٣٤-٩٤٥)

ولى أبو القاسم الخلافة بعد أبيه عبيد الله المهدى وتلقب بالقائم (٢) فاشتدت عليه الثورات ففى طرابلس خرج عليه محمد بن طالوت القرشى وادعى أنه ابن المهدى فاجتمع له من البربر عدد كبير زحف إلى مدينة طرابلس ليأخذها فهزم وقتل جماعة من أصحابه ثم ضعف أمره وتبين للبربر كذبه فقتلوه (٣) .

وفى سنة ٣٢٤هـ/٩٣٦م استعان بعض الفارين من مصر بالقائم فأرسل حملة باءت بالفشل لهزيمة أفرادها على يد الاخشيد وجنوده ، وأشد الثورات التى تعرض القائم لها ، وظل خطرها قائما حتى وفاته الثورة التى أشعل نارها أبو يزيد مخلد بن كيداد ، وهو من قبيلة زناتة (٤) التى كانت تنقم على الفاطميين لإيثارهم الكتاميين بالمناصب (٥) ، وقد نشأ أبو يزيد بتوزر وتعلم بها القرآن وشب على تعاليم الخوارج الصفرية ، ورحل بعد ذلك إلى تاهرت فاشتغل بتعليم الصبيان (٦) حتى استولى أبو عبد الله الشيعى عليها فرحل أبو يزيد إلى إحدى مدن قسطيلية ، وتابع تعليم الصبيان ونشر الدعوة

---

(١) ابن حماد : أخبار ملوك بنى عبيد ص ٤٩ .

(٢) المقريزى : المقفى الكبير ص ١١٣ ، الداعى إدريس : عيون الأخبار - السبع الخامس ص ١٥٧ ويرى كل من ابن خلدون وابن دقماق أن اسمه « نزار » (ابن خلدون : العبر ج ٤ / ص ٤٨ ، ابن دقماق : الجوهر الثمين ج ١ / ص ٢٤٤.

(٣) الداعى إدريس : عيون الأخبار - السبع الخامس ص ١٧٢ .

(٤) ابن حماد : أخبار ملوك بنى عبيد ص ٥٣ .

(٥) د . سرور : الدولة الفاطمية بمصر ص ٢٨ .

(٦) ابن خلدون : العبر ج ٤ / ص ٥٢ .

ضد الشيعة الاسماعيلية وعقائدهم ، وزاد عدد أتباعه فلما توفى المهدى وجد أن الوقت مناسب لإعلان ثورته فأرسل إلى عبد الرحمن الناصر الأموى صاحب الأندلس يطلب العون منه واتجه إلى جبل أوراس واتخذه معقلاً له (١) وانطلق منه يوقع بالجيوش الفاطمية الهزيمة تلو الهزيمة ويستولى على المدن واحدة بعد أخرى ، وعندما استولى على مرماجنّة أهداه رجل من أهلها حماراً أشهب فكان يمتطيه وهو يدعو للثورة حتى لقب باسم « صاحب الحمار » (٢) .

لم يمض وقت طويل حتى سقطت مدن كثيرة في يد أبى يزيد بينما اقتصر حكم القائم على المهدية وقليل من المدن المحصنة على الساحل (٣) ، إذ تقدم أبو يزيد ونزل على رقادة فى مائة ألف مقاتل وسيطر على القيروان وهزم الجند الفاطمى بها (٤) وملكها فى صفر سنة ٣٣٣هـ/٩٤٤م (٥) ، ثم اتجه إلى المهدية عاصمة الفاطميين حيث يقيم القائم فهاجمها أربع مرات ، وكل مرة يبوء بالفشل ، ويصاب بالخسائر الفادحة (٦) ، وعندئذ شدد أبو يزيد الحصار على المدينة ، ويصور الداعى ادريس الموقف آنذاك بقوله : « وتمادى الحصار على من بالمهدية وهرب منهم كثير فى المراكب إلى الروم ومصر وطرابلس وصقلية » (٧) .

وفى جمادى الآخرة سنة ٣٣٤هـ اتجه أبو يزيد إلى مدينة سوسة وحاصرها (٨) ليستولى عليها بالقوة وأثناء حصاره لها توفى القائم بأمر الله (٩) .

---

(١) د . العدوى : المجتمع المغربى ص ٢٦٣ .

(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا ج ١ / ص ٧٦ ، ابن خلدون : العبر ج ٤ / ص ٥٢ .

(٣) سيد أمير على · مختصر تاريخ العرب ص ٤٨٦ .

(٤) المقريزى · المقفى الكبير ص ١٢١ .

(٥) ابن خلدون . العبر ج ٤ / ص ٥٣ .

(٦) سيد أمير على مختصر تاريخ العرب ص ٤٨٦ .

(٧) الداعى إدريس : عيون الأخبار – السبع الخامس ص ٢١٠ .

(٨) المصدر السابق

(٩) ابن خلدون : العبر ج ٣ ص ٥٥ .

المنصور أبو الطاهر إسماعيل (٣٣٤-٣٤٣ هـ/٩٤٥-٩٥٣م)

توفى القائم بأمر الله فى شوال سنة ٣٣٤هـ/٩٤٥م فخلفه ابنه أبو الطاهر إسماعيل الملقب بالمنصور (١) فكتم موت أبيه ولم يظهر عليه حزناً حتى لا يعلم أبو يزيد فتقوى عزيمته ، فأبقى الخبر سراً ، وأكثر العطايا والصلات ، ولم يَتَسمَّ بأمير المؤمنين (٢) ، ولم يغير السكة ولا الخطبة (٣) ، ويبدو أنه أراد إتباع سياسة تقرب إليه أهل البلاد وتوحد صفوفهم فيستطيع التغلب على أبى يزيد ، فبدأ عهده بإطلاق المحبوسين الذين حبسهم القائم بسبب القدح فى الدولة ، ووصل الفقراء والمساكين ، ووجه مراكب كثيرة مشحونة بالطعام إلى مدينة سوسة المحاصرة ، وأخذ يتأهب للقتال فأرسل إلى مدينة سوسة عدة مراكب حربية مليئة بالجند الذين استطاعوا هزيمة أبى يزيد ففر إلى مدينة القيروان مقهوراً (٤) ، وتبعه الجند الفاطمى ووقعت عدة معارك أسفرت عن هزيمته مرة أخرى ، وفرح الفاطميون فرحاً شديداً يعبر عنه الداعى إدريس بقوله : « لما أصبح الإمام عليه السلام من ليلة الفتح يوم الجمعة أخرج أحمالاً كثيرة من الدنانير والدراهم فتصدق بها وفرقها فى الفقراء والمساكين وذوى الحاجات من المسلمين وتولى تفريقها فى القيروان قاضى الإمام » (٥) ثم كتب كتاباً إلى كافة كتامة يخبرهم بفتح القيروان ويحثهم ويستنهض هممهم لمساعدته فى القضاء على أبى يزيد (٦) واستعان بزعيم قبيلة صنهاجة زيرى ابن مناد الصنهاجى ووحد صفوفه حتى تمكن بعد عدة معارك من هزيمة أبى يزيد هزيمة ساحقة وألقى القبض عليه وقتل فى سنة ٣٣٦هـ/٩٤٨م (٧) بعد أن عانت الدولة الفاطمية منه

---

(١) الداعى إدريس . عيون الأخبار - السبع الخامس ص ٢٣٠ .

(٢) المقريزى : المقفى الكبير ص ١٤٤ .

(٣) ابن خلدون : العبر ج ٤ / ص ٥٥

(٤) الداعى إدريس . عيون الأخبار - السبع الخامس ص ٢٣٥ .

(٥) المصدر السابق ص ٢٥٢

(٦) المصدر السابق ص ٢٥٧ .

(٧) الداعى إدريس : عيون الاخبار - السبع الخامس ص ٣٠٦ .

نحواً من أربع عشرة سنة كادت أن تسقط خلالها على يد البربر الذين يطالبون باستقلالهم عن الفاطميين الذين أتوا من خارج البلاد ، وتولوا الخلافة على أيديهم وبمساعدتهم ، هذا من ناحية البربر الذين استغلوا ثورة أبى يزيد لاستعادة سلطانهم ، أما أبو يزيد فقد كان رجلاً من الخوارج النكادية الذين لا يؤمنون بمبادئ الشيعة التى قامت على أساسها الدولة الفاطمية (١) ، فانتفض يعلن خروجه وثورته عليها .

ولما قتل أبو يزيد أظهر المنصور موت أبيه وتسمى بالخلافة وتقدم باثبات اسمه بالسكة ، دار الضرب (٢) فطبعت الدنانير والدراهم وسميت بالمنصورة نسبة إليه (٣) .

وقضى المنصور البقية الباقية من خلافته فى إعادة تنظيم أمور دولته فأنشأ أسطولاً كبيراً وأسس مدينة المنصورة التى نسبت إليه على مقربة من القيروان واتخذها حاضرة للفاطميين (٤) وفى سنة ٣٣٩هـ/٩٥١م عين أبا القاسم الحسن بن على بن أبى الحسين الكلبى والياً على صقلية وهو أول من وليها من هذه الأسرة ، وظل هذا المنصب وراثياً فى أسرة الحسن بعد وفاته وفى سنة ٣٤٠هـ/٩٥٢ سيّر أسطولاً عظيماً إلى صقلية بقيادة فرج الصقلبى فسار مع الحسن بن على إلى قلورية ولقيا ملجان الرومى ومعه ثلاثون ألفاً من الجند أغاروا على قلورية فأنزل بهم هزيمة شديدة على شواطئ إيطاليا وعاد فرج بالغنائم إلى المهدية (٥) .

وكان المنصور شجاعاً قوياً ، وقد دام ملكه سبع سنين وثمانية عشر يوماً وتوفى آخر شوال سنة ٣٤١هـ/٩٥٣م(٦) .

---

(١) د . سرور : الدولة الفاطمية فى مصر ص ٢٩ ، د الشيال : الفتح الفاطمى لمصر ص ٤٢٧ .

(٢) المقريزى : المقفى الكبير ص ١٧١ ، اتعاظ الحنفا ج ١ / ص ٨٦ .

(٣) الداعى إدريس : عيون الاخبار – السبع الخامس ص ٣١٦ .

(٤) د . حسن إبراهيم · تاريخ الإسلام السياسى ج ٣ / ص ١٦٣

(٥) المقريزى : المقفى الكبير ص ١٨٥ ، الداعى إدريس · عيون الأخبار – السبع الخامس ص ٣٢٨ .

(٦) المصدر السابق ص ١٨٩ .

المعز لدين الله (أبو تميم معد (٣٤١-٣٦٥ هـ/٩٥٣-٩٧٦م)

عمل منذ بداية عهده على توطيد نفوذ الخلافة فى بلاد المغرب فيذكر المقريزى أنه أرسل عساكره إلى جبل أوراس الذى كان ملجأ لكل الخارجين على الدولة ، وكان يختبئ به بنوكملان ومليلة من قبائل هوارة فدخلوا فى طاعته بعد فترة عصيان طويلة لمن سبقه من الخلفاء (١) ، وعفا عنهم ، وقد تميز بالعقل والهمة وحسن التدبير ، فأرسل إلى نوابه يحثهم على الإحسان إى البربر جميعاً فعظم أمره فى أعينهم (٢) .

وأمر جوهر الصقلى بتتبع الخارجين على الحكم الفاطمى فى بلاد المغرب الأقصى فتحرك سنة ٣٤٧هـ/٩٥٧م على رأس جيش كثيف يضم كثيراً من المغاربة منهم زيرى بن مناد الصنهاجى زعيم قبيلة صنهاجة ، فسار الجيش إلى تاهرت واستولى عليها لخروج واليها يعلى بن محمد الزناتى عن طاعة الفاطميين (٣) . ثم سار منها إلى فاس وبها صاحبها أحمد بن بكر الذى أغلق أبوابها فحاصرها مدة ، فلما استعصت عليه تركها إلى سجلماسة وكان صاحبها محمد بن الفتح بن واسول من الخارجين على الفاطميين وتلقب بالشاكر لله وخوطب بأمير المؤمنين ، وضرب السكة باسمه واستمر على ذلك ست عشرة سنة ، فلما جاء جوهر الصقلى هرب منه فتتبعه حتى قبض عليه ، وأخذه أسيراً ومضى حتى وصل إلى ساحل المحيط الاطلسى ، ولم يمتنع عليه سوى سبتة وطنجة ثم عاد إلى فاس فقاتلها مدة طويلة حتى فتحها (٤) بمعاوية زيرى بن مناد الصنهاجى ، وقبض على صاحبها (٥) .

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ج ١ / ص ٩٢ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) ابن الأثير . الكامل ج ٧ / ص ٢٦١ ، المقريزى : اتعاظ الحنفا ج ١ / ص ٩٣ - ٩٤ .

(٤) المقريزى اتعاظ الحنفا ج ١ / ص ٩٤٠ ، المقفى الكبير ص ٣٢٩ ، ابن الأثير : الكامل ج ٧ / ص ٢٦٢ .

(٥) د . حسن إبراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ١١٢ - ١١٣ ، د . سرور : الدولة الفاطمية فى مصر ص ٥٢ ، د. الشيال : الفتح الفاطمى لمصر ص ٤٢٨ ، د . حسن أحمد محمود : دراسات فى تاريخ مصر ص ٤ ، برناردلويس : الدعوة الاسماعيلية الجديدة ص ٤٤ ، جروينباوم : حضارة الإسلام ص ٢٥١ .

استقرت الأمور ببلاد المغرب للمعز لدين الله مما جعل المؤرخين يصفونه بالتعقل والاتزان والعدل بين الرعية ، والحزم والقوة فى قمع الفتن ، وإقامة الإدارة على أساس منظم ، فقد سنّ القوانين للاتجار ، وقسم الإمارات إلى مناطق وعهد بإدارتها إلى رجال أكفاء ، ووضع تحت إمرتهم الشرطة ، والجنود لإقرار الأمن وحفظ النظام ، وأعاد تنظيم الجيش والأسطول وشجع التجارة والصناعة (١) .

ولما دانت بلاد المغرب للمعز أعدّ حملة لفتح مصر بقيادة جوهر الصقلى نجحت فى تحقيق أهدافها وفى الفصل التالى سوف نتحدث عن انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر فى عهد المعز لدين الله . وسنعرض للمحاولات الفاطمية السابقة للفتح ، وأسباب اهتمام الفاطميين بمصر عن غيرها من الأمصار الإسلامية التى تدين بالولاء للعباسيين .

---

(١) سيد أمير على : مختصر تاريخ العرب ص ٤٨٧ .

الفصل الخامس
انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر

كان العلويون دائماً يهدفون إلى قيام خلافة يتولاها آل على بن أبى طالب ومن أجل ذلك اشتد صراعهم ضد الأمويين ومن بعدهم العباسيين ، وبعد جهود كبيرة ، وتضحيات كثيرة استطاع الاسماعيليون تكوين الدولة الفاطمية التى تنتمى إلى آل على وسمى أول حاكم من حكامها بأمير المؤمنين ، وهكذا قامت خلافة فى بلادالمغرب تنافس آل العباس فى بغداد .

ولم ينس العلويون أبداً أن آل العباس خدعوهم ثم حاربوهم وشردوهم وشتتوا شملهم ، لذا كان الانقضاض على العباسيين هدفهم الثانى بعد قيام دولتهم ، ولما كانت بلاد المغرب فقيرة ضعيفة الموارد كثيرة الاضطراب تسودها الثورات من حين لآخر ، وبعيدة عن الولايات الخاضعة للعباسيين شخص الفاطميون بأبصارهم تجاه مصر ، وهى أول جزء من أملاك العباسيين يجاور الدولة الفاطمية من ناحية المشرق وتمتاز بخصبها ونمائها وفيض مواردها ، وهدوء الأمر فيها بالاضافة إلى موقعها الجغرافى المتميز من الناحيتين السياسية والحربية ، إذ يفرض عليها موقعها أن تتصل اتصالاً وثيقاً بآسيا عبر شبه جزيرة سيناء وبعالم البحر الأبيض المتوسط ، وبالبحر الأحمر والشرق الأقصى ثم القارة الإفريقية والفاطميون يعلمون أن قرب مصر من بلاد الشام وفلسطين والحجاز ييسر لهم الاستيلاء على هذه البلدان بعد فتح مصر مما يساعد على تأسيس نفوذ الفاطميين السياسى والدينى فى ثلاثة من المراكز الإسلامية الكبيرة ، وهى الفسطاط والمدينة ودمشق ، لذا نجد المهدى بعد استقراره فى بلاد المغرب يعد العدة لغزو مصر فأعد حملتين فشلتا وأرسل ابنه القائم حملة ثالثة فشلت أيضاً ، ولم يكتب النجاح إلا للحملة الرابعة التى تمت فى عهد المعز لدين الله .

الحملة الفاطمية الأولى فى عهد عبيد الله المهدى :

كان عبيد الله المهدى يعلم أن دعاته الذين استقبلوه فى مصر سوف يساعدونه فى الاستيلاء عليها ويمهدون الطريق إليها ، ولكنه لم يكن يعلم أن العباسيين سيدافعون عن مصر ويقفون له بالمرصاد ، فأعد جيشاً كبيراً من المغاربة فى سنة ٣٠١هـ/٩١٣م بقيادة حباسة بن يوسف أحد زعماء

كتامة ، واتجه هذا الجيش للاستيلاء على برقة التى كانت آنذاك ضمن أملاك مصر ، وقد ضمن الجيش مائتى مركب من المراكب الحربية (١) وسار حباسة بن يوسف بجيشه الى برقة وتقابل عند سرت مع أبى النمر أحمد بن صالح واليها من قبل أبى منصور تكين والى مصر الذى أمده بجيش كبير (٢) فاقتتلا ولم ينتصر أحدهما على الآخر (٣) فأمر والى مصر بعزل أبى النمر أحمد بن صالح عن برقة وتولية خير المنصورى .

ويذكر الكندى أن خبر عزل أبى النمر وصل إلى حباسة من مصر قبل وصول كتاب أبى منصور تكين لأبى النمر فأرسل حباسة إليه يقول : « ما الذى يحملك على حربنا وأنت معزول » وأرسل إليه بكتاب ورد عليه من مصر فيه خبر عزله (٤) .

والحقيقة أن ورود خبر عزل والى برقة إلى حباسة قبل أن يصل إلى الوالى نفسه يدل على سرعة نشاط الدعاة الشيعة الموجودين بمصر واتصالهم الدائم مع الفاطميين كعيون لهم داخل مصر .

انصرف أبو النمر إلى برقة وتبعه جباسة ، فمضى أبو النمر إلى مصر بعد أن عرف بخبر عزله فدخل حباسة برقة وملكها (٥) .

وأرسل تكين إلى برقة الوالى الجديد خير المنصورى فوصل بصحبة قائد آخر يدعى عبد العزيز الجرشى فوقع بينهما الحسد والتباغض فى وقت يحتاجان فيه إلى الوحدة والترابط فخرج إليهما حباسة واستغل خلافهما فهزمهما وانصرفا إلى مصر عقب الهزيمة (٦) .

وكتب حباسة إلى عبيد الله المهدى يخبره ويطلب المدد ويبدو أن المهدى أراد أن يكون لابنه القائم بأمر الله شرف فتح مصر فأرسله إلى حباسة كى يتولى القيادة ويتم المهمة ويتولى فتح مصر(٧) فخرج

---

(١) المقريزى : المقفى الكبير ص ٣٩ .

(٢) الكندى : تاريخ ولاة مصر ص ٢٠٢ .

(٣) المقريزى · المقفى الكبير ص ٣٩ .

(٤) الكندى : تاريخ ولاة مصر ص ٢٠٣ .

(٥) المقريزى . المقفى الكبير ص ٣٩

(٦) الكندى : تاريخ ولاة مصر ص ٢٠٣ .

(٧) الداعى إدريس . عيون الأخبار – السبع الخامس ص ١٢٦ .

القائم كما يقول الداعي إدريس من رقادة فوصل طرابلس في المحرم سنة ٣٠٢هـ/٩١٤م وكتب إلى حباسة أن يبقى مكانه في برقة حتى يأتيه ، فلم يصبر حباسة ورأى أن يتقدم لفتح مصر (١) .

واستطاع دخول الاسكندرية بجيشه ومعه ما يزيد على مائة ألف جندي (٢) ، وتبعه القائم بأمر الله إلى الاسكندرية فدخلها وشرع ينظم الأمور بها ، فولى القضاء أحمد بن ميسرة ، وولى الإسكندرية مطنب بن ربيع الملوسي وأمر المؤذنين فأذنوا فيها الأذان الشيعي (حي على خير العمل) (٣) فبادر والى مصر تكين يطلب المدد من الخليفة العباسي (٤) ، فأمده الخليفة المقتدر بجيش كبير على رأسه القاسم بن سيما الفرغاني أحد القادة العباسيين الكبار وجمع آخر من القادة (٥) ، وبدأت الاستعدادات المصرية بعد وصول المدد لقتال الفاطميين ، والتقى تكين بجيش القائم بالقرب من الإسكندرية فدارت عدة معارك بينهما ونفذت مؤنة القائم فأسرع بالرحيل إلى الفيوم للحصول على الطعام لجنده (٦) فعاد تكين إلى مصر وعسكرت قواته بالجيزة .

ويجدر الإشارة إلى أن مسير القائم بأمر الله إلى الفيوم لطلب المؤن والطعام لجنده دون غيرها من المدن المصرية الأخرى يبين مدى فهم الفاطميين لأوضاع مصر فهماً تاماً ولطبيعة أقاليمها الخصبة الثرية ، ويذكر الكندي : أن حباسة سار من الإسكندرية وعسكر بمشتول بالقرب من الجيزة فخرج المصريون له ولم يتخلف عن الخروج أحد من الخاصة والعامة ، وبعد يومين من الاستعدادات التقى الجيشان فهزم الفاطميون بقيادة حباسة وفر جنودهم وتتبعهم جمع من المصريين (٧) فخرج عليهم كمين من قوات الفاطميين فقتل منهم نحو عشرة آلاف جندي (٨) ، ويبدو أن هذا الكمين كان من قوات

---

(١) المصدر السابق .

(٢) عريب بن سعد : صلة تاريخ الطبري ص٥ ، المقريزي : المقفى الكبير ص ٣٩ ، العصامي : سمط النجوم ج ٣ / ص٤١ .

(٣) الداعي إدريس . عيون الأخبار – السبع الخامس ص ١٢٧ .

(٤) عريب بن سعد : صلة تاريخ الطبري ص ٥١ .

(٥) الكندي : تاريخ ولاة مصر ص ٢٠٤ ، المقريزي : المقفى الكبير ص ٣٩ .

(٦) الداعي إدريس : عيون الأخبار – السبع الخامس ص ١٢٩ .

(٧) الكندي : تاريخ ولاة مصر ص ٢٠٤ .

(٨) المصدر السابق .

القائم بأمر الله حين قدم من الفيوم للاشتراك فى المعركة إذ يذكر الداعى إدريس أنه بعد انهزام حباسة أرسل إليه القائم بأمر الله يأمره بالتوقف وأن الحرب لم تبلغ حد الهزيمة فلم يمكنه الرجوع (١) فخرج القائم بقواته من مصر ومعهم حباسة بن يوسف الذى أمر المهدى بقتله (٢) ولعل أمر المهدى بقتل حباسة يرجع إلى عدم طاعته للقائم واندفاعه للقتال مما تسبب فى هزيمة جند الفاطميين .

ولقد بعث الخليفة العباسى المقتدر إلى مصر بإمدادات أخرى بقيادة مؤنس الخادم ، وبعض القادة الآخرين فوصلوا إلى مصر بعد انصراف الفاطميين عنها (٣) .

دخل مؤنس الخادم إلى مصر ، وعزل تكين عن ولايتها ، وتولى ذكا الأعور ولاية مصر خلفاً لتكين فى صفر سنة ٣٠٢هـ/٩١٥م ، وشرع ينظم الأمور بها فجعل ابنه مظفر بن ذكا نائباً له بالاسكندرية (٤) وأمده بعدد من الجند والقادة لتأمين الإسكندرية من حملات الفاطميين عليها .

والحقيقة فإن هذه الحملة كشفت للعباسيين أن بمصر شيعة تؤيد الفاطميين وتؤازرهم وقد عبر الشاعر ابن مهران (٥) عن ذلك بقوله :

وقد وافى حباسة فى كتام ... بكل مهند ، وبكل خطىْ
وأقبل جاهلاً حتى تخطّى ... وجاز بجهله حد التخطى
بكتب جماعة قد كاتبوه ... من أقباط بمصر وغير قبطى
وكل كاتبوه ونافقونا ... وكل فى البلاد له موطىّ

ونتيجة لهذا بدأ ذكا الأعور ولايته لمصر بتتبع كل من اتهم بأنه من أعوان الفاطميين فسجن كثيراً منهم وقطع أيدى وأرجل البعض الآخر (٦) .

ويبدو أن غرض المهدى من إرسال هذه الحملة هو استكشاف الأحوال بمصر ومعرفة مدى قوته،

---

(١) الداعى إدريس : عيون الأخبار – السبع الخامس ص ١٢٨ .

(٢) الكندى : تاريخ ولاة مصر ص ٢٠٦ ، المقريزى : المقفى الكبير ص ٤٠ .

(٣) عريب بن سعد : صلة تاريخ الطبرى ص ٥٢ .

(٤) الكندى : تاريخ ولاة مصر ص ٢٠٦ .

(٥) المصدر السابق ص ٢٠٥

(٦) المصدر السابق ص ٢٠٦ .

والاطمئنان إلى نشاط دعاته ويؤكد ذلك قول الداعى إدريس عن المهدى حين تلقى القائم بعد عودته فقد سلم عليه وضمه إليه ، ثم قال : « إلا حاجة فى نفس يعقوب قضاها » (١) .

الحملة الفاطمية الثانية فى عهد عبيد الله المهدى :

تحركت هذه الحملة بقيادة القائم بأمر الله فى يوم الاثنين أول ذى القعدة سنة ٣٠٦هـ/٩١٨م(٢)، وأقبل يريد الإسكندرية فهرب أهلها ، وجلوا عنها ، وخرج منها الأمير مظفر بن ذكا الأعور (٣) فدخلت مقدمة الجيش الفاطمى إلى الإسكندرية يوم الجمعة الثامن من صفر ٣٠٧هـ/٩١٩م (٤) ، ولما علم الأمير ذكا الأعور الرومى والى مصر بذلك أخذ يتأهب لأمر الحرب وشرع فى بناء حصن على الجسر الغربى بالجيزة وخندق على عسكره بها ، لكنه مرض ومات بالجيزة فى نفس العام ، فأمر المقتدر بتولية أبى منصور تكين مرة ثانية على مصر خلفاً لذكا ، وشرع فى اتمام استعداداته ونزل بالجيزة (٥) ، وتقدم القائم بأمر الله الفاطمى إلى الاسكندرية فدخلها ومعه طوائف كبيرة من الجند (٦) ويبدو أن القائم شعر بالغرور لدخوله الإسكندريه دون مقاومة تذكر فظن أن الأمور سوف تكون مهيأة له بمصر فكتب إلى أهل مكة يدعوهم إلى طاعته ، ويعدهم بحسن السيرة ، فأجابوه أن لهذا البيت رباً يدفع عنه ، ولن نؤثر على سلطاننا غيره ، ورفضوا طاعته (٧) .

ولما وصلت أخبار الحملة إلى بغداد بادر المقتدر بالله العباسى إلى إرسال مؤنس الخادم وجنده، فلما وصل مؤنس إلى مصر حدثت بينه وبين القائم عدة وقعات (٨) ، فأرسل المهدى مدداً لجيشه إذ وصلت ثمانون مركباً إلى الإسكندرية مشحونة بالعتاد والجند فبعث المقتدر ثمل الخادم صاحب مراكب

---

(١) الداعى إدريس : عيون الأخبار – السبع الخامس ص ١٣٥ .

(٢) المقريزى : المقفى الكبير ص ١١٥

(٣) الكندى : تاريخ ولاة مصر ص ٢٠٧ .

(٤) المقريزى : المقفى الكبير ص ١١٦ .

(٥) المصدر السابق .

(٦) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ج ٦ / ص ٥٠١ .

(٧) عريب بن سعد : صلة تاريخ الطبرى ص ٧٧ .

(٨) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ج ٦ / ص ٥٠١ .

طرسوس إليهم فوصل إلى رشيد ودار قتال شديد انتهى بإحراق مراكب الفاطميين وأسر الكثير من الجند (١) .

وسار القائم من الإسكندرية إلى الفيوم فنزلها واستولى على جزيرة الأشمونين كلها واجتبى خراج الفيوم (٢) ، وحين بلغ مؤنساً خروج القائم من الإسكندرية أرسل ثمل الخادم فدخلها وأخرج منها أصحاب القائم ثم عاد إلى الجيزة كى ينضم إلى مؤنس وقواته المتجهة إلى الفيوم (٣) .

ويبدو أن مؤنساً لجأ إلى سياسة اللين والمخادعة فكتب إلى القائم يرغبه ويرهبه ويقول له : إن أطاع بنى العباس كان له الأمان وإقطاع الناحية التى ملكها ويحلف له مغلظات الأيمان بالأمان (٤) ، ويذكر المقريزى : أن القائم استنكر قوله وكتب إليه كتاباً يقول فيه : « فإنى أحمد الله الذى لا إله إلا هو، وصل كتابك وترجمته من مؤنس مولى أمير المؤمنين ، ولعمرى لقد أعظمت الفرية على الله عز وجل بتجرئك على الكذب فإن أمير المؤمنين صلوات الله عليه قد خلفته بالقيروان غير أنك بدأت فى أول كتابك بشئ تذكر أن الله خصّ ولد العباس بالخلافة من دون آل الرسول عليهم السلام ، والقيام بأمر الأئمة ولعمرى لقد قلت يا جاهل قولاً يجب عليك الاستغفار منه إذ كنت كاذباً فى مقالتك غير صادق بما لفظت به ، بل الله عز وجل اختص عليا صلوات الله عليه وولده من بعده خاصة دون غيره من آله » (٥) .

وواضح أن نشاط هذه الحملة لم يكن مقتصراً على الأعمال العسكرية ؛ بل صاحبها نشاط دعائى كبير لصالح الفاطميين ، ولتشويه صورة العباسيين ، وكان القائم على رأس دعاة الفاطميين فى مصر يقوم بهذه الدعاية من خلال المكاتبات والخطب والأشعار (٦) ويذكر المقريزى أنه جرت بين القائم ومؤنس الخادم مكاتبات وأشعار بعث بها مؤنس الخادم إلى الخليفة العباسى وأورد منها قصيدة للقائم(٧) يقول فيها :

---

(١) الكندى : تاريخ ولاة مصر ص ٢٠٨ ، ابن الاثير : الكامل ج ٦ / ص ٥٠١ ، المقريزى : المقفى الكبير ص ١١٦ .

(٢) عريب بن سعد : صلة تاريخ الطبرى ص ٧٥ .

(٣) الكندى : تاريخ ولاة مصر ص ٢٠٩ .

(٤) الداعى إدريس : عيون الأخبار – السبع الخامس ص ١٣٣ – ١٣٤ .

(٥) المقريزى : المقفى الكبير ص ١٢٤ .

(٦) د . أحمد كامل : مصر بين المذهب السنى والمذهب الاسماعيلى فى العصر الفاطمى ص ٩٠ .

(٧) المقريزى : المقفى الكبير ص ١٢٦

أبعد نبي الله ثم ابن عمه ... وسبطيه والهادين والسادة النجب
يكون إمام المسلمين ورأسهم ... وقيمّ دين الله فى أرضه شغب (١)
صبرت وفى الصبر نجاح ربما ... تعجل نو أمر فأخطأ ولم يصب
إلى أن أراد الله إعزاز دينه ... فقمت بدين الله قومة محتسب

شعر العباسيون بخطورة الادعاءات التى أوردها القائم فى خطبه وأشعاره فأوعزوا إلى شعرائهم للرد عليه ، فتولى محمد بن يحيى الصولى تفنيد ادعاءاته بقصيدة يقول فيها :

عجبت وما يخلوا الزمان من العجب ... لذى خطل فى القول أهدى لنا الكذب
وجاء بملحون من الشعر ساقط ... فأخطأ فيما قال فيه ولم يصب
تباعد عن قصد الصواب طريقه ... فما عرفت تأويل إعرابه العرب
ولو كان ذالب ورأى موفق ... لقصر عن ذكر القصائد والخطب
فما أنت يا مهدى السفاهة والخنا ... أين لى فقد حقت على وجهك الريب
فلو كنت من أولاد أحمد لم يغب ... عن الناس ما تسمو إليه من النسب (٢)

وبعد هذه المكاتبات لم يصل الطرفان إلى اتفاق ووقع الغلاء والوباء فى عسكر القائم فمات منهم كثير (٣) ففر هارباً إلى برقة (٤) ومنها إلى المهدية فى رجب سنة ٣٠٩هـ/٩٢١م (٥) وكان الظفر لمؤنس الخادم فلقب حينئذ بالمظفر (٦) .

الحملة الثالثة فى عهد القائم بأمر الله :

دار صراع على ولاية مصر بين كل من محمد تكين وأحمد ابن كيغلغ ومحمد بن طغج الإخشيد عقب وفاة أبى منصور تكين والى مصر من قبل الخليفة العباسى ، وكان هذا الصراع نتيجة لما كان

---

(١) شغب هى أم الخليفة العباس المقتدر (السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٣٧٨) .
(٢) عريب بن سعد : صلة تاريخ الطبرى ص ٧٦ .
(٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج ٦ / ص ٥٠١ .
(٤) الكندى : تاريخ ولاة مصر ص ٢٠٩ .
(٥) المقريزى : المقفى الكبير ص ١١٨ .
(٦) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج ٦ / ص ٥٠١ .

يدور فى بغداد من خلع للخلفاء وتولية وعزل (١) ، واستطاع محمد بن طغج أن ينال هذه الولاية ، وأراد أحمد بن كيغلغ منعه من دخول مصر فلم يستطع ، فسلم القيادة إليه ، لكن أنصار ابن كيغلغ رفضوا العمل مع الاخشيد وتركوا مصر إلى برقة يستنهضون القائم بأمر الله أن يبعث معهم بجيش إلى مصر، ويذكر الكندى أن القائم استجاب وأرسل جيشاً بقيادة أحد الفاطميين (٢) ، وكان على مقدمته بحكم الأعور (٣) فدخل الإسكندرية فى ربيع الأول سنة ٣٢٤هـ/٩٣٦م فأعد الأمير محمد بن طغج الإخشيد الجيوش وجعل على قيادتها أخيه الحسن وقائده صالح بن نافع وسيره إلى الإسكندرية ، فالتقوا مع الجيش الفاطمى فى معركة كبيرة هزم الفاطميون فيها ، وقتل أميرهم ، وأسر منهم جمع كبير ودخل الحسن بن طغج الإسكندرية ثم عاد إلى مصر بالأسرى فطيف بهم ثم سجنوا وقدر الكندى عددهم بمائة وثمانين رجلاً (٤) .

---

(١) ولى أبو منصور تكين مصر للمرة الثالثة من قبل المقتدر العباسى سنة ٣١١هـ/٩٢٣م على صلاتها بعد أن صرف عنها أحمد بن كيغلغ ، ولما قتل المقتدر سنة ٣٢٠هـ/٩٣٢م وبويع أبو منصور القاهر بالله أقره عليها ثم مات تكين بمصر سنة ٣٢١هـ/٩٣٣م وجعل ابنه محمد مكانه فلما ثارت عليه الجند لطلب الأرزاق خرج الى الشام ثم عاد مدعيا ولايتها من قبل القاهر الى أن جاء كتاب تولية الاخشيد عليها للمرة الأولى سنة ٣٢١هـ/٩٣٣م ودعى له بها وهو مقيم بدمشق فكانت ولايته عليها اثنين وثلاثين يوما ولم يدخلها ، ثم وليها أحمد بن كيغلغ ولايته الثانية من قبل القاهر فى نفس العام ولما وردت الأخبار بخلع القاهر وولاية الراضى بن المقتدر عاد محمد بن تكين مدعياً مرة أخرى أن الخليفة أقامه على مصر وحدثت مناوشات بينه وبين أنصار ابن كيغلغ إلى أن وردت الأخبار بمسير محمد بن طغج الذى وليها من قبل الراضى على صلاتها وخراجها ودخل مصر فى شهر رمضان سنة ٣٢٣هـ/٩٣٥م (الكندى : تاريخ ولاة مصر ص ٢١١ - ٢١٥) .

(٢) يذكر الكندى أن القائد الفاطمى يدعى يعيش الكتامى بينما يذكر كل من المقريزى وابن الأثير وابن خلدون والعصامى المكى أن القائد الفاطمى هو خادمه زيدان (انظر الكندى : تاريخ ولاة مصر ص ٢١٤ ، المقريزى : المقفى الكبير ص ١٩ ، ابن الأثير ، الكامل ج ٧ / ص ١٠٠ ، سمط النجوم للعصامى ج ٣ / ص ٢١٤)

(٣) بجكم الأعور أحد عمال مصر كان متولياً الشرطة سنة ٣١٧هـ/٩٢٩م فى عهد أبى منصور تكين ولما مات وتولى أحمد بن كيغلغ أقره على عمله فلما تسلم الاخشيد مصر كره العمل معه وفر مع الخارجين عليه إلى برقة ثم عاد مع جيش القائم ، ولما هزم الجيش عاد إلى مصر فعفا عنه الإخشيد وتوفى سنة ٣٢٨هـ/٩٣٩م وبجكم الأعور يختلف عن أبى الحسين بجكم الذى خدم محمد بن رائق وكانت له جولات مع البريدى (المقريزى : المقفى الكبير ص ١٠٦-١٠٨) .

(٤) الكندى ، تاريخ ولاة مصر ص ٢١٤ - ٢١٧

موقف القائم من مصر بعد فشل حملته العسكرية :

بعد فشل الحملة الثالثة على مصر لجأ القائم إلى سياسة اللين والدهاء ، وعمل على كسب صداقة الإخشيدكى يستميله إلى طاعته فأرسل إليه كتاباً مع رسول قرأه على خاصته ، وأرفق به رقعة كتبها بخطه ولم يطلع أحداً عليها وجاء فيها : « قد خاطبتك أعزك الله فى كتابى المشتمل على هذه الرقعة بما لم يجز لى فى عقد الدين ، وما جرا به الرسم من سياسة أنصار يستجلبون وضمنت رقعتى ما لم يطلع عليه أحد من كتابى وذوى المكانة عندى ، وأرجو أن تردك صحة عزيمتك وحسن رأيك إلى ما أدعوك إليه فقد شهد الله على ميلى اليك ، وإيثارى لك ، ورغبتى فى مشاطرتك ما حوته يمينى واحتوى عليه ملكى وليس يتوجه لك العذر فى التخلف عن إجابتى لأنك قد استفرغت مجهودك فى مناصحة قوم لايرون إحسانك ولا يشكرون إخلاصك يخلفون وعدك ويحفزون ذمتك لم يعتقد منهم أحد حسن المكافأة ولا جميل المجازاة ، وليس ينبغى لك أن تعدل عن منهج نصحك وإيثار من آثرك إلى من يجهل موضعك ويضيع حسن سعيك ، وأنا أعلم أن طول العادة فى طاعتهم قد كره إليك العدول عنهم فإن لم تجد من نفسك معونة على إتباع الحق ولزوم الصدق فإننى أرضى منك بالمودة والأمر والطاعة حتى تقيمنى مقام رئيس من أهلك تسكن إليه فى أمرك وتعول عليه بمثل ذلك » (١) .

ولم يكن الإخشيد الذى اتصف بالدهاء ، وحسن التدبر ليخدع بحيل القائم فبين للرسول أنه لا يقرأ ولا يكتب ولا يستطيع أن يبوح بما فى نفسه لكاتب ، ثم قال : « وأنا أتدبر الجواب وأجيب عنه ويصل مع من أثق به وأسلك من حسن الموالاة ما لم يكن غيرى يسلكه » (٢) .

والحقيقة أن الإخشيد كان يعلم أن الدولة العباسية فى حالة ضعف شديد ، وأن الخلفاء فيها صاروا ألعوبة بين يدى الأتراك فشغلوا بأنفسهم عن غيرهم ، وهو يطمح للاستقلال بدولته وإن أبقى للعباسيين النفوذ الاسمى ، فهل يسلم نفسة لدولة فتية ناشئة ؟ لا لم يكن ليفعل وإنما أراد بجوابه ملاطفة الفاطميين ودفعهم عنه حتى يتقى حملاتهم المتكررة على مصر فيستطيع توطيد سلطانه وتدعيم مركزه بها وتقوية نفوذه بالشام خاصة أن العباسيين أنعموا عليه بولاية دمشق وزادوا فى اسمه لقب «

---

(١) ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب ص ٢٦ – ٢٧ ، د. سيده كاشف · مصر فى عصر الاخشيديين ص ٢٧٨ – ٢٧٩ ، د. سرور : الدولة الفاطمية ص ٦٣

(٢) المقريزى : المقفى الكبير ص ١٣٧ .

الإخشيد » فدعى له بهذا اللقب على المنابر سنة ٣٢٧هـ/٩٣٨م (١) .

وقد أراد الإخشيد الاستمرار فى المحافظة على سياسة الود مع الفاطميين فأرسل كتاباً للخليفة القائم يعرض عليه زواج ابنته من ولى عهده المنصور فأجابه القائم بكتاب جاء فيه : « وصل كتابك وقد قبلنا ما بذلت وهى وديعة لنا عندك ، وقد منحناها من بيت مالنا قبلك مائة ألف دينار فوصل ذلك إليها(٢) .

وجاء الرد الفاطمى مخيباً لآمال الإخشيد لأن القائم جعل مصر ملكاً للفاطميين ، والإخشيد أحد ولاته عليها ، وكان الاخشيد يطمح بهذا الزواج إلى إقامة علاقات ود وصداقة بهم مع الاحتفاظ باستقلال مصر وأن يعامل كحاكم مستقل فيرسل الفاطميون إليه الأموال والهدايا تدعيماً لهذا التصاهر ، ونتيجة لهذا توقفت اتصالاته مع الفاطميين حتى توفى .

الحملة الفاطمية الرابعة فى عهد المعز لدين الله :

سار المعز على نهج وسياسة سابقيه من الخلفاء الفاطميين فى الاهتمام بالسيطرة على مصر ، فأرسل حملة عسكرية صغيرة على الواحات بمصر لاستطلاع أمورها فى عهد كافور الاخشيدى ، وقاوم المصريون الحملة مقاومة شديدة ، وقتلوا كثيراً منهم وأجلوهم عن مصر (٣) فوجد المعز أن سياسة القوة العسكرية لن تجدى فى عهد كافور فلجأ إلى المكر والدهاء فأرسل دعاته من بلاد المغرب يدعون كافور إلى طاعته فاتبع كافور سياسة سيده الاخشيد من قبل فلم يظهر العداء للفاطميين ، بل استقبل دعاة المعز ولاطفهم (٤) ويذكر ابن تغرى بردى أن كافور كان يهادى المعز صاحب المغرب ويظهر ميله إليه ، وكذا يذعن بالطاعة لبنى العباس ويدارى ويخدع هؤلاء وهؤلاء وتم له الأمر » (٥) .

ويبدو أن نشاط الدعاة الاسماعيلية قد ازداد فى عهد كافور لأن المقريزى يذكر أن دعاة

---

(١) ابن سعيد · المغرب فى حلى المغرب ص ٢٦ .

(٢) المقريزى : المقفى الكبير ص ١٣٢ .

(٣) ابن سعيد . المغرب فى حلى المغرب ص ٢٧ .

(٤) المقريزى : الخطط ج ٢ / ص ٢٧ .

(٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٤ / ص ٦ .

الفاطميين استطاعوا أن يأخذوا البيعة للمعز على كثير من الجند الإخشيدية والكافورية وسائر الأولياء والكتاب (١) ، وقد بين ابن زولاق نشاط دعاة الفاطميين وهو يحكى عن سيبويه المصرى أنه كان يتلقى العون من أبى جعفر أحمد بن نصر أحد دعاة الفاطميين بمصر فلما أبطأ عليه برّه مرّ بالدار التى بناها أبو جعفر وقال : كافور الأسود غداً يؤخذ بأذنيه إنما بنيت هذه الدار لصاحب المغرب تؤخذ فيها البيعة على كل تابع ومتبوع وذليل ومرفوع تغير فيها الأحوال وتحمل إليها الأموال ، فلما بلغ ابن نصر ما قال أرسل إليه ما أرضاه (٢) .

ولعل خداع كافور للفاطميين جعل الداعى إدريس يقول : « إن الله هدى كافور إلى ولاية الأئمة من آل الرسول وطاعة أمير المؤمنين المعز لدين الله فدخل فى الطاعة وكاتب أمير المؤمنين (٣) ، إلا أن المقريزى يخالفه فى هذا القول ويروى عن دعاة المعز فى مصر أنهم كانوا يقولون : « إذا زال الحجر الأسود ملك مولانا المعز لدين الله الأرض كلها ، وبيننا وبينكم الحجر الأسود « يعنون كافورا » (٤) ومعنى ذلك أن الفاطميين كانوا يعتبرون كافور حجر عثرة فى سبيل تحقيق أطماعهم فى السيطرة على مصر .

لذا نجد المعز يشرع فى إعداد خطه لغزو مصر فيأمر فى سنة ٣٥٥هـ/٩٦٦م بحفر الآبار على الطريق من إفريقية إلى مصر وعبدّ الطرق ، وبنى المنازل للاستراحة على طول الطريق ، كما حث دعاته على تكثيف نشاطهم بمصر (٥) ، وعندما وصلت الأخبار إلى المعز بموت كافور أعد حملة عسكرية بقيادة جوهر الصقلى استطاعت هذه الحملة فتح مصر دون عناء يذكر ، مما دعا بعض المستشرقين إلى القول بأن مصر فتحت بسرعة وهدوء نسبى وبدون سفك دماء (٦) ، وأن العساكر

---

(١) المقريزى : الخطط ج ٢ / ص ٢٧ .

(٢) ابن زولاق : كتاب أخبار سيبويه المصرى ص ٤٠ .

(٣) الداعى إدريس : عيون الأخبار - السبع السادس ص ١٣٥

(٤) المقريزى : اتعاظ الحنفا ج ١ / ص ١٠٢ .

(٥) المصدر السابق ص ٩٥ .

(٦) جاستون فيت : دليل موجز للآثار ص ١٠ ، كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٢٥٣ .

الفاطمية قهرت وادى النيل (١) وصارت قلة شيعية تحكم أغلبية عظمى من الرعايا السنيين (٢) والحقيقة أن هناك أسباباً أدت إلى نجاح هذه الحملة نجملها فيما يلى :

أولاً : ضعف الدولة وسوء الأحوال فى مصر :

بعد وفاة كافور اجتمع رجال الدولة وأجمعوا رأيهم على تولية أحمد بن على بن الإخشيد (٣) ، وكان عمره يومئذ إحدى عشرة سنة وسبعة أيام ، وتولى أموره الوزير جعفر بن الفرات وتعاقدوا على أن يكون الحسن بن عبيد الله بن طغج خليفة له (٤) وليس أدل على ضعف الدولة آنذاك من تولية هذا الصبى ، ويؤيد ذلك رواية ابن زولاق قوله عن سيبويه المصرى : « أمّا هذا من العجائب ومن عظائم المصايب أن يقعد فى أعلى المراتب ، ويؤهل للنوايب صبى غير بالغ ولا آيب ، ولا قارئ ولا كاتب ، ولا حامل سيف ولا ضارب » (٥) وقد استقلّ جعفر بن الفضل بن الفرات بالوزارة وتدبير المملكة لأحمد بن على بن الإخشيد ، وقبض على جماعة من أرباب الدولة وصادرهم ومنهم يعقوب بن كلّس الذى فرّ الى بلاد المغرب (٦) ، وقد اضطربت الأمور فى عهده فيقول المقريزى : « كثر الإضطراب وتعددت الفتن ، وكانت حروب كثيرة بين الجند والأمراء قتل فيها خلق كثير وانتهت أسواق البلد و أحرقت أماكن عديدة ، فاشتد خوف الناس ، وغلت الأسعار ، وتعذر وجود الأقوات حتى بيع القمح كل ويبة بدينار ، واختلف العسكر فلحق كثير منهم بالحسن بن عبيد الله طغج وهو يومئذ بالرملة (٧) .

فقدم الحسن بن عبيد الله وقبض على الوزير جعفر وصادر أمواله واستوزر كاتبه الحسن بن جابر الرياحى خلفاً له (٨) .

---

(١) برنارد لويس : الدعوة الاسماعيلية الجديدة ص ٤٥ .

(٢) جروينباوم : حضارة الإسلام ص ٢٥١ .

(٣) الكندى : تاريخ ولاة مصر ص ٢٢٣ .

(٤) المقريزى : المقفى الكبير ص ٣٢٠ .

(٥) ابن زولاق : أخبار سيبويه المصرى ص ٥٣ .

(٦) المقريزى : المقفى الكبير ص ٣٢٢ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ / ص ٣٤٧ .

(٧) المقريزى : إغاثة الأمة بكشف الغمة ص ١٢ .

(٨) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ / ص ٣٤٧ .

ويبدو أن الحسن لم يفلح فى إصلاح أمور البلاد فأطلق سراح الوزير وسلم إليه أمر مصر وغادرها إلى الشام فى مستهل ربيع الآخر سنة ٣٥٨هـ/٩٦٩م (١) ، ويذكر كثير من المؤرخين (٢) أن الفساد عمّ البلاد وشملها الخراب فكتب بعض المصريين إلى المعز لدين الله يطلبون قدومه إلى مصر لإنقاذها من الفوضى التى كادت أن تودى بها ، ويلح هنا سؤال لماذا طلب المصريون عون الفاطميين ؟ ولم تركوا العباسيين ؟ .

الحقيقة أن مصر منذ زمن بعيد وهى تتعاطف مع العلويين فلما شعر العباسيون بذلك أمر الخليفة المتوكل بإخراج العلويين من مصر (٣) ، كما أن الدعوة الفاطمية راجت رواجاً كبيراً على أيدى الدعاة الشيعيين فى مصر ، فلم يجد المصريون غضاضة فى الاستعانة بدولة تنتسب للعلويين خاصة أن العابسيين شغلوا عنهم بخلافاتهم مع الأتراك .

ثانياً: ضعف الخلافة العباسية :

بدأت عوامل الضعف تسرى فى كيان الدولة العباسية منذ العصر العباسى الثانى ، فاستبد الأتراك بأمور الحكم ، وصار الخلفاء فى أيديهم مجرد أدوات يحركونها بمحض إرادتهم ومن تصدى لهم قتل أو خلع أو سملت عينيه (٤) ، ومنذ سنة ٣٣٤هـ/٩٤٥م والبويهيون يستبدون بالسلطة وأمور الدولة كافة فى أيديهم حتى صار تنصيب الخلفاء وعزلهم أو قتلهم طوع بنانهم (٥) ويصف الداعى إدريس حال العباسيين آنذاك بقوله : « ضعف أمر بنى العباس وتغلب عليهم وزراؤهم ، وملك أمرهم أمراؤهم فصاروا بين مجندل ومقتول أو مخلوع مسمول أو مضروب على يده مشوه خلقه فتحكم عليهم الأعاجم

---

(١) المصدر السابق .

(٢) ابن خلكان · وفيات الأعيان ج ١ / ص ٣٧٩ ، المقريزى · المقفى الكبير ص ٣٢٣ ، الداعى إدريس : عيون الأخبار – السبع السادس ص ١٣٦ ، ابن إياس . بدائع الزهور ج ١ / ق ١ / ص ١٨٤ .

(٣) الكندى . تاريخ ولاة مصر ص ١٥٥

(٤) يذكر السيوطى أنه فى سنة ٣٢٠ هـ/ قتل الخليفة العباسى المقتدر وفى سنة ٣٢٢هـ قبض على القاهر وسملت عينه حتى سالتا على خديه وفى سنة ٣٣٣ هـ قبض على المتقى وسملت عينه ، وفى سنة ٣٣٤هـ خلع المستكفى وسملت عينه (السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٨٤ – ٣٩٧) .

(٥) د . حسن إبراهيم : المعز لدين الله ص ٧٧ .

وأبقى الله كل ظالم منهم بظالم فلم يملكوا فى الملك عقداً وحلاً ولا قطعاً فى الأمر ولا وصلاً » (١) .

ونتيجة لضعف الخلافة انتشرت الثورات وقامت الحركات الاستقلالية فقامت ثورة الزنج فى إقليم البصرة والجزء الجنوبى الغربى من فارس ودامت خمس عشرة سنة (٢٥٥ هـ - ٢٧٠ هـ/ ٨٦٩ - ٨٨٤م) وتلتها ثورة القرامطة الذين أضعفوا هيبة الخلافة بما ألقوه من الخوف والفزع فى قلوب بادية الشام وأهلها وهددوا حدود مصر الشرقية ، وعاثوا فى الجزيرة العربية فساداً (٢) وصاحب هذه الثورات قيام الدول المستقلة ففى الشرق قامت الدولة الصفارية (٢٥٤ - ٢٩٠ هـ/٨٦٨ - ٩٠٣م) والدولة السامانية (٢٦١ هـ - ٢٨٩ هـ) وفى الغرب قامت الدولتان الطولونية والإخشيدية ، واستولت الدولة الفاطمية على شمال إفريقية ، وفى الشمال قامت الدولة الحمدانية فى نواحى الموصل وحلب (٣).

ثالثاً: حسن استعداد الفاطميين وقوتهم:

كان المعز يتابع الأمور فى مصر عن طريق دعاته فيها فلما تأكد من تدهور الأحوال بها بعد وفاة كافور ثم استغاثة بعض المصريين به ، أمر قائده جوهر الصقلى أن يستعد لفتح مصر بعد أن جمع كل ما استطاع جمعه من الجند والأموال فيذكر المقريزى أن المعز أنفق على إعداد هذه الحملة ٢٤ مليون دينار (٤) بالإضافة إلى أكثر من ألف ومائتى صندوق من المال للإنفاق على الحملة (٥) وحشد للجيش من المغاربة والكتاميين ما يزيد على مائة ألف فارس (٦) ، وصفهم الشريف أبو جعفر مسلم بن محمد أحد العلويين بمصر بأنهم « مثل جمع عرفات كثرة وعدة » (٧) .

ويبين الداعى إدريس أن الحملة الفاطمية الرابعة تحركت من المغرب فى ربيع الأول سنة

---

(١) الداعى إدريس : عيون الأخبار - السبع السادس ص ١٢١ .

(٢) د . حسن إبراهيم : المعز لدين الله ص ٧٦ ، د. جمال الشيال الفتح الفاطمى لمصر ص ٤٢٨ .

(٣) المصدر السابق .

(٤) المقريزى : اتعاظ الحنفا ج ١ ص ٩٢ .

(٥) الداعى إدريس : عيون الأخبار - السبع السادس - ص ١٣٧ .

(٦) المقريزى : المقفى الكبير ص ٣٣٠ .

(٧) المقريزى : اتعاظ الحنفا ج ١ / ص ١٠٧ .

٣٥٨هـ/٩٦٩م ووقف المعز بنفسه لوداع قائد الحملة وجنده وقال لهم : « والله لو خرج جوهر هذا وحده بسوطه لفتح مصر ، ولتدخلن إلى مصر آمنين بالأردية من غير حرب تسلمون على أهل مصر ، ولينزلن جوهر فى خرابات ابن طولون ، ويبتنى مدينة تسمى القاهرة تقهر الدنيا » (١) ، وأمر أولاده وإخوته وسائر رجال الدولة أن يمشوا بين يديه وهو راكب وبالغ فى تكريمه لما سوف يقوم به من عمل عظيم ، وكتب إلى جميع من يمر عليهم من عماله يأمرهم أن يترجلوا إليه عند لقائه ويمشوا فى خدمته ، وكان موكبه عظيماً أشاد به شعراؤهم ومنهم محمد بن هانئ الذى وصف هذه الحملة فقال (٢) .

رأيت بعينى فوق ماكنت أسمع ... وقد راعنى يوم من الحشر أروع
غداة كان الأفق سد بمثله ... فعاد غروب الشمس من حيث تطلع
ألا إن هذا حشد من لم يذق له ... غرار الكرى جفن ولابات يهجع
إذا حل فى أرض بناها مدائناً ... وإن سار عن أرض ثوت وهى بلقع
رحلت إلى الفسطاط أول رحلة ... بأيمن فأل بالذى أنت تجمع

وفى داخل مصر نشط دعاة الفاطميين لاستمالة القواد ووجوه الرعية للتعاون مع الحملة ، وأرسل إليهم المعز أعلاماً كى يفرقوها فيمن يستجيب لهم وأمرهم أن ينشروها إذا قاربت عساكره مصر (٣) ، ويبدو أن الغرض منها طمأنة جنده ليعرفوا أن بمصر أنصاراً يؤيدونهم ونتيجة للأسباب السابقة نجح الفاطميون فى حملتهم على مصر لأنهم لم يجدوا حاكماً قوياً يتصدى لهم ، ولم يجدوا قوة من العباسيين فأصبح الطريق ممهداً أمامهم .

الفتح الفاطمى لمصر :

سار جوهر من المغرب إلى مصر ، وقد عبدت الطرق ، وحفرت الآبار وبنيت المنازل للاستراحة

---

(١) الداعى إدريس : عيون الأخبار – السبع السادس ص ١٣٨ .
(٢) المقريزى : المقفى الكبير ص ٣٣٠ – ٣٣١ .
(٣) المصدر السابق ص ٣٣٢ .

على طول الطريق (١) ، ونزل بجيوشه إلى تروجة بقرب الإسكندرية (٢) وكانت مصر تعانى من الشدة والغلاء والوباء واضطراب الأمور (٣) فلم يجد جوهر فى الإسكندرية مقاومة تذكر فأمر جنده بمعاملة المصريين معاملة طيبة ، وعدم التعرض لهم بسوء (٤) وعندما وصلت الأخبار إلى الفسطاط بمقدم جوهر جمع الوزير أبو الفضل جعفر بن الفضل بن الفرات الناس بداره واتفقوا على مراسلة جوهر لطلب الصلح وأعدوا وفداً على رأسه الشريف أبو جعفر مسلم بن عبيد الله الحسينى شيخ الأشراف العلويين بمصر ، ويذكر المقريزى أن الوفد إتجه إلى جوهر ولم يتخلف عن تشييعهم قائد ولا كاتب ولا عالم ولا شاهد ولا تاجر ولقيهم فوافقوه ، واشترطوا عليه فأجابهم إلى ما التمسوه (٥) وكتب لهم كتاب أمان يتضمن ما يلى :

١ - أن تترك الحرية الدينية للمصريين فى إقامتهم على مذاهبهم .

٢ - إقامة الحج الذى تعطل وتأمين طرقه .

٣ - إصلاح النواحى الاقتصادية وتجديد السكة ومنع الغش فيها .

٤ - نشر الأمن والعدل وإسقاط الرسوم الجائرة .

٥ - إجراء المواريث على كتاب الله وسنة نبيه - صلى الله عليه وسلم - .

٦ - إصلاح المساجد وتعيين المؤذنين والأئمة وصرف الرواتب لهم من بيت مال المسلمين .

٧ - أن يتمتع أهل الذمة بحريتهم الدينية .

٨ - حماية المصريين والدفاع عنهم .

وبذلك نجد أن جوهر قد حقق للمصريين ما التمسوه منه ، ولم يطلب منهم تغيير مذهبهم السنى إلى المذهب الشيعى لكن ثمة سؤال يطرح نفسه ، لم استجاب جوهر لمطالب المصريين كلها ؟ وللإجابة على هذا السؤال نقول :

---

(١) د. الشيال : الفتح الفاطمى لمصر ص ٤٣٠ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٤ / ص ٣٠ .

(٣) المقريزى : المقفى الكبير ص ٣٣١ .

(٤) د . حسن إبراهيم : المعز لدين الله ص ٨٥ .

(٥) المقريزى : الخطط ج ٢ / ص ٣٤٠ ، د . حسن على حسن : دراسات فى تاريخ مصر الإسلامية ص ١٨٩ ، ١٤١١هـ / ١٩٩٠ م .

أولاً : المصريون رغم تعاطفهم مع العلويين يرفضون اعتناق المذهب الشيعى ، بل يرون أن معتنقيه من الرافضة ، ويؤيد ذلك قول المقريزى أنه « فى شهر رمضان سنة ٣٥٣هـ/٩٦٤م أخذ رجل يعرف بابن الليث الملطى ينسب الى التشيع فضرب مائتى سوط ودرة ثم ضرب فى شوال خمسمائة سوط ودرة وجعل فى عنقه غل وحبس ، وكان يتفقد فى كل يوم لئلا يخفف عنه ويبصق فى وجهه ، فمات فى محبسه ليلاً ودفن فمضت جماعة إلى قبره لينبشوه ، ووصلوا إلى القبر فمنعهم جماعة من الإخشيدية والكافورية فأبوا وقالوا هذا قبر رافضى فثارت فتنة » (١) .

ثانياً : دعاة الفاطميين رغم نشاطهم بمصر منذ عهد المهدى لم يستطيعوا نشر مذهبهم بين المصريين كما فعل دعاتهم بالمغرب مثل الحلوانى وأبى سفيان وأبى عبد الله الشيعى فلم نَرَ للشيعة الاسماعيلية أى موقف سياسى خلال الأحداث التى مرت بها مصر قبل مقدم الفاطميين فلم تكن لهم قوة تذكر .

ثالثاً : كان جوهر يخشى رفض مطالب المصريين فيثير نفوسهم ويعرض نفسه لعدائهم وربما للثورة عليه لأن الإنسان مهما كان ضعيفاً سيضحى بحياته فى سبيل الدفاع عن مذهبه الذى آمن به .

رابعاً : أراد جوهر تحقيق نصر عسكرى يدعمه بنجاح سياسى ليحظى برضا سيده المعز فوافق على مطالب المصريين ، ورغم ذلك فقد رفضت الجند الإخشيدية والكافورية الصلح وعزموا على القتال وأخذوا يعبئون الجند (٢) ، وتوجهوا نحو الجيزة لقتال جوهر فاستطاعت فرقة من الجند الفاطمى بقيادة جعفر بن فلاح عبور النيل عند منية شلقان (٣) فدار قتال بينهم وقتل كثير من المصريين (٤) ، وانهزم الباقون بعد قتال شديد ، وولوا الأدبار (٥) ، واجتمع المصريون عند الشريف العلوى أبى جعفر مسلم وطلبوا منه أن يكتب إلى جوهر فى إعادة الأمان ففعل ، وأعيد الأمان وهدأت

---

(١) الداعى إدريس : عيون الأخبار – السبع السادس ص ١٥٠ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) منية شلقان قرية شرقى القناطر الخيرية بمركز قليوب (المقفى حاشية ص ٣٣٨) .

(٤) المقريزى : المقفى الكبير ص ٣٣٨ .

(٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٤ / ص ٣٠ - ٣١ .

النفوس (١) ودخل جوهر الفسطاط على رأس جنوده ، ونزل بالمناخ وهو موضع القاهرة الآن (٢) .

جوهر يوطد نفوذه بمصر :

دخل جوهر الصقلى مصر وشرع فى توطيد نفوذه وتثبيت كيانه بما يلى :

أولاً : تأسيس مدينة القاهرة :

لما نزل جوهر بجنده فى المناخ الواقع شمال شرقى القطائع وضع أساس العاصمة الفاطمية الجديدة فى نفس الليلة ١٧ شعبان سنة ٣٥٨هـ/٩٦٩م ، وكان موقع المدينة قبل تأسيسها صحراء مغطاة بالرمال يمر بها الناس فى طريقهم من الفسطاط إلى عين شمس (٣) وفى يوم السبت لست بقين من جمادى الآخرة اختطت مدينة القاهرة فنزلت كل قبيلة أو فرقة من الجند فى مكان خاص بها وسمين خططها بالحارات فكانت حارة زويلة التى نزلت بها قبيلة زويلة ، والحارة البرقية التى نزل بها أهل برقة، وحارة كتامة التى نزلت بها قبيلة كتامة (٤) .

ويرى المقريزى أن غرض جوهر من اختيار هذا المكان هو « أن تصير حصناً فيما بين القرامطة وبين مدينة مصر ليقاتلهم من دونها فأدار السور اللبن مع مناخه الذى نزل فيه بعساكره وأنشأ من داخل السور جامعاً وقصراً وأعدها معقلاً يتحصن به وتنزله عساكره واحتفر الخندق من الجهة الشامية ليمنع اقتحام العساكر القرامطة إلى القاهرة وماوراءها من المدينة » (٥) ويقال إن جوهر لما بنى القصور وأدار عليها السور سماها المنصورية (٦) ويبدو أنه أراد بذلك التقرب إلى الخليفة المعز لدين الله بإطلاق اسم حاضرة الفاطميين المنصورية فى المغرب عليها وظلت تعرف بذلك ، فلما قدم

---

(١) المقريزى : المقفى الكبير ص ٣٢٩ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٤ / ص ٣١ .

(٣) د . الشيال : مصر فى العصر الفاطمى ص ٤٣١ .

(٤) المقريزى : الخطط ج ١ / ص ٣٦١ ، ابن سعيد : النجوم الزاهرة فى حلى حضرة القاهرة ص ٢٢ .

(٥) المقريزى : الخطط ج ١ / ص ٣٦١ .

(٦) المقريزى : اتعاظ الحنفا ج ٢ / ص ١١١

المعز لدين الله أطلق عليها القاهرة (١) ، وقد اختار المعز لها هذا الاسم من قبل فقد روى كل من المقريزى والداعى إدريس أن المعز عند وداعه لجوهر قال : « والله لو خرج جوهر هذا وحده بسوطه لفتح مصر ولتدخلن إلى مصر آمنين بالأردية من غير حرب تسلمون على أهل مصر ، ولينزلن جوهر فى خرابات ابن طولون ، ويبتنى مدينة تسمى القاهرة تقهر الدنيا » (٢) وقيل سميت القاهرة « لأنها تقهر من شذّ عنها ورام مخالفة أمرها ، وقدروا أن من فيها يملكون الأرض ويستولون على قهر الأمم » (٣) .

والحقيقة أن جوهر اتخذ من مدينة القاهرة حاضرة لولايته كما أشار عليه سيده المعز ، وحصناً يمنع عنه خطر المهاجمين ومركزاً لنشر عقائد المذهب الاسماعيلى بعيداً عن الفسطاط التى تموج بالسنيين الذين يختلفون مع الفاطميين فى المذهب الدينى (٤) .

ثانيا: بناء الجامع الأزهر:

تم تخطيط القاهرة بعد الفتح الفاطمى بعام ثم رأى جوهر ألا يفاجئ السنيين فى مساجدهم بشعائر المذهب الفاطمى خوفاً من عداء المصريين له ، فاهتم ببناء مسجد كبير يكون رمزاً لسيادة الدعوة الفاطمية ، كما كانت القاهرة رمزاً لسيادة الفاطميين على مصر (٥) وشرع فى بناء هذا الجامع يوم السبت لست بقين من جمادى الأولى سنة ٣٥٩هـ/٩٧٠م ، وانتهى بناؤه بعد عامين ففتح للصلاة فى شهر رمضان سنة ٣٦١هـ/٩٧٢م بصلاة الجمعة وقد كتب بدائر القبة التى فى الرواق الأول على يمين المحراب والمنبر ما نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، مما أمر ببنائه عبد الله ووليه أبو تميم معد الإمام المعز لدين الله أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه وأبنائه الأكرمين على يد عبده جوهر الكاتب الصقلى وذلك فى

---

(١) المصدر السابق .

(٢) المقريزى : المقفى الكبير ص ٣٢٩ ، الداعى إدريس : عيون الأخبار - السبع السادس ص ١٣٨ .

(٣) ابن سعيد : النجوم الزاهرة فى حلى حضرة القاهرة ص ٢٢

(٤) د . حسن إبراهيم : المعز لدين الله ص ٢١٠ - ٢١٢ .

(٥) د . سرور : الدولة الفاطمية فى مصر ص ٧٠

سنة ستين وثلاثمائة »[1] وقد عرف هذا الجامع بالجامع الأزهر وبجامع القاهرة[2] .

وكان الفاطميون يحتفلون بإقامة الصلوات يوم الجمعة والأعياد في الجامع وكثيراً ما كانت تقام بهذا الجامع إلى جانب الصلوات بعض الحفلات الدينية[3] وفي سنة ٣٦٥هـ/٩٧٦م بدأ الجامع يتحول إلى مركز لنشر المذهب الشيعي في مصر ، إذ يذكر المقريزي أن القاضي علي بن النعمان جلس في هذا العام يدرس مختصر أبيه في الفقه عن أهل البيت وسط الحاضرين بالجامع الأزهر[4] .

ثالثاً: قطع الخطبة للعباسيين بمصر :

أمر جوهر بقطع الخطبة للعباسيين في مصر ،[5] ، وبعد أن استمرت مدة خمسة وعشرين ومائتي سنة وثمانية أشهر منذ دخلها صالح بن علي بن عبد الله بن العباس في النصف من ذي الحجة سنة ١٣٢هـ/٧٤٩م ،[6] وأزال جوهر لبس السواد في الخطبة ، وكان شعار العباسيين[7] ، وألبس الخطباء البياض شعار الفاطميين[8] .

رابعاً: إصلاح الأحوال الاقتصادية في البلاد:

عندما دخل جوهر إلى مصر كانت البلاد تعاني من شدة الغلاء والفساد ففي سنة ٣٥٩هـ بدأ جوهر بالنظر في أمر الأسعار وضرب جماعة من الطحانين ، وطيف بهم ، وجمع سماسرة الغلات بمكان واحد ، وطلب ألا تباع الغلات إلا هناك ، ولم يجعل لمكان البيع غير طريق واحدة ، فكان لا يخرج

---

(١) المقريزي : الخطط ج ٢ / ص ٢٧٣ .

(٢) المصدر السابق ص ٣٦٢ .

(٣) د . سرور : الدولة الفاطمية في مصر ص ٧١ .

(٤) المقريزي : الخطط ج ٢ / ص ٣٤١ .

(٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٤ / ص ٣٢ .

(٦) الداعي إدريس : عيون الأخبار – السبع السادس ص ١٥٥

(٧) المصدر السابق .

(٨) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٤/ ص ٣٢ .

قدح قمح إلا ويقف عليه سليمان بن عزة المحتسب (١) كما أنفذ على بن الوليد قاضى عسكره وبين يديه أحمال مال ومناد ينادى من أراد الصدقة فليتجه إلى دار الداعى أبى جعفر أحمد بن نصر ففرق فيهم الأموال (٢) ويذكر الداعى إدريس أن المعز أرسل مائة وخمسين ألف درهم إلى جوهر وأمره بتفريقها كصدقة على الضعفاء والمساكين من أهل مصر (٣) ، كما ضرب السكة باسم المعز لدين الله وكتب عليها من وجه : دعا الإمام معد ، لتوحيد الإله الصمد المعز لدين الله أمير المؤمنين ضرب هذا الدينار بمصر فى سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة وعلى الوجه الآخر · لا إله إلا الله محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، على أفضل الوصيين ووزير خير المرسلين (٤) ، وأمر أن يجعل الدينار المعزى بخمسة وعشرين درهماً ونصف (٥) ، وقرر إلغاء الدنانير المتقية (٦) وتخفيض قيمة الدينار الراضى (٧) بخمسة عشر درهماً حتى يطرد من السوق تدريجياً خاصة بعد تفضيل الدينار المعزى عليه فى المعاملات الحكومية (٨) ووصل الخراج إلى ٣.٤٠٠.٠٠٠ فى عهد جوهر (٩) .

خامساً : تأمين حدود مصر بالاستيلاء على بلاد الشام :

وجه جوهر أنظاره صوب بلاد الشام للعمل على فتحها رغبة فى تأمين حدود مصر من ناحية

---

(١) المقريزى : إغاثة الأمة بكشف الغمة ص ١٤ ، اتعاظ الحنفا ج ١ / ص ١٢٠ .

(٢) المقريزى · المقفى الكبير ص ٣٤٠ .

(٣) الداعى ادريس : عيون الأخبار – السبع السادس ص ١٦٩ .

(٤) المقريزى : المقفى الكبير ص ٣٤٢ .

(٥) المصدر السابق : ص ٣٤٧ .

(٦) الدنانير التقية تنسب للخليفة العباسى المتقى لله إبراهيم بن المقتدر العباسى (المقريزى : المقفى : حاشية ص ٣٤٨) .

(٧) الدينار الراضى هو الذى ضرب فى عهد الخليفة الراضى بالله محمد بن المقتدر العباسى (المصدر السابق حاشية ص ٣٤٧)

(٨) المقريزى : المقفى الكبير ص ٣٤٧ ، د . الشيال . مصر فى العصر الفاطمى ص ٤٣٩ .

(٩) المقريزى : الخطط ج ١ / ص ٩٩ .

الشمال الشرقى والوقوف فى وجه الروم والقرامطة.[1] لأن من يسيطر على دمشق يستطيع اتخاذها مركزاً لانطلاق حملاته إلى بلاد العراق [2] فيذكر ابن تغرى بردى أن جوهر أرسل جعفر بن فلاح إلى الشام فسار إلى الرملة واستولى عليها وقبض على الحسن بن عبيد الله بن الإخشيد ، وبعث به أسيراً إلى مصر [3] واستأنف سيره إلى طبرية فدخلها دون مقاومة تذكر من أهلها [4] واتجه إلى دمشق فملكها بعد عدة معارك [5] وأقيمت الخطبة للخليفة الفاطمى المعز لدين الله وحذف اسم الخليفة العباسى المطيع فى المحرم سنة ٣٦٠هـ/٩٧١م [6] .

سادساً: حماية مصر من القرامطة:

استطاع جوهر أن يحمى مصر من هجمات القرامطة عليها وأن يردهم على أعقابهم خاسرين بعد هجومهم على بلاد الشام ، وهزيمة الجند الفاطمى بها ، ومقتل القائد جعفر بن فلاح ثم انقضاضهم على مصر فى المحرم سنة ٣٦١هـ/٩٧٢م وتصدى جوهر لهم على أبواب القاهرة فدارت عدة معارك هزم القرامطة فيها وتشتت شملهم ، ونودى فى مصر من جاء بالقرمطى أو برأسه فله ثلاثمائة ألف درهم وبعض الخلع والهدايا [7] ، ويبدو أن هذا الإعلان جاء نتيجة لفرار زعيم القرامطة بعد هزيمته .

سابعاً: التغلب على الثورات التى قامت ضده بمصر:

تمكن جوهر من القضاء على الثورات التى هبت ضد الفاطميين بمصر ، ففى شعبان سنة

---

(١) د سرور : النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام والعراق ص ١٧ .

(٢) د. حسن إبراهيم المعز لدين الله ص ٩٣

(٣) ابن تغرى بردى · النجوم الزاهرة ج ٤ / ص ٣٢ .

(٤) المقريزى . المقفى الكبير ص ٢٢١ .

(٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٤ / ص ٣٢ .

(٦) المقريزى : المقفى الكبير ص ٣٤٤ .

(٧) المصدر السابق ص ٣٤٧ .

٣٥٩هـ/٩٧٠م ثار زيد الإخشيدى وانتهب صهرجت ولبس السواد ، ودعا للمطيع العباسى وكتب اسمه على أعلامه ، كما انتهب ضياعاً كثيرة وواقعته عساكر القائد جوهر بصهرجت فانهزم وقتل كثير من أتباعه ففرّ إلى تنيس حيث أسر وقتل (١) ، وفى سنة ٣٦١هـ/٩٧٢م ثار أهل تنيس على واليهم وقتلوا جماعة الإمام (٢) وخطبوا للخليفة العباسى فحاربهم جوهر وانتصر عليهم (٣) .

وفى نفس العام خرج على الفاطميين بالصعيد عبد العزيز بن إبراهيم الكلابى ودعا لبنى العباس فبعث إليه جوهر فى البحر أربعين مركباً عليها بشارة النوبى ، وأرسل قواتاً برية أخرى فاستطاعوا هزيمة الكلابى وأسره وطيف به وبمن معه فى القاهرة (٤) .

واستقرت الأمور لجوهر فظل يحكم مصر نحو أربع سنوات استطاع خلالها تأسيس القاهرة وبناء القصر الكبير والمسجد الجامع والقضاء على الثورات وفرض النفوذ الفاطمى على كل من مصر والشام ثم بلاد الحجاز التى قامت فيها دولة الأشراف سنة ٣٥٨هـ/٩٦٩م وخطبوا للمعز على منابر البلاد .

مصر حاضرة الخلافة الفاطمية :

قرر جوهر بعد استقرار الأمور بمصر أن يكتب للمعز يستدعيه ليتولى شئون الحكم فى البلاد ، ولما تأكد المعز من استقرار قواعده بالديار المصرية استخلف بلكين (٥) بن زيرى بن مناد الصنهاجى(٦) على المغرب وبلاد افريقية (٧) وجعل جميع الولاة فى المغرب تحت يده وألزمهم جميعاً

---

(١) الداعى ادريس : عيون الأخبار - السبع السادس ص ١٦٩ .

(٢) المقريزى . اتعاظ الحنفا ج ١ / ص ١٢٩ .

(٣) المصدر السابق ص ١٣٠ .

(٤) المصدر السابق ص ١٣١

(٥) يرى الداعى إدريس أن بلكين تعنى يوسف (انظر عيون الأخبار - السبع السادس ص ١٨٥) .

(٦) ابن خلكان · وفيات الأعيان ج ٥ / ص ٢٢٦

(٧) الداعى إدريس . عيون الأخبار - السبع السادس ص ١٨٥ .

طاعته (١) وخرج من المنصورية سنة ٣٦١هـ/٩٧٢م (٢) ومعه جميع أولاده وأخوته وعمومته وسائر ول المهدى ، ونقل معه توابيت أبائه المهدى والقائم والمنصور (٣) وكثير من الأموال (٤) لأنه ينوى الاستقرا بمصر ونقل عاصمة الخلافة الفاطمية إليها .

سار المعز إلى مصر فدخل الإسكندرية بعد مروره ببرقة (٥) فتقابل مع قاضى مصر أبى طاهر محمد بن أحمد الذهلى وأعيان البلاد (٦) وجلس يخطب فيهم قائلاً : انه لم يرد دخول مصر لزيادة فى ملكه ولا لزيادة فى ماله وإنما أراد إقامة الحق والحج والجهاد ، وأن يختم عمره بالأعمال الصالحة (٧) ويعمل بما أمر به جده رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وأطال فى وعظه حتى أبكى بعضهم وخلع على جماعة منهم (٨) بعد أن بين لهم أن هدفه هو اقامة أمور الدين والقضاء على الفساد والسير على نهج الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم – ثم غادر الإسكندرية إلى القاهرة فدخلها فى رمضان سنة ٣٦٢هـ/٩٧٣م ومعه كافة أهله وأصبحت مصر دار خلافة بعد أن كانت دار امارة (٩)

استهل المعز حكمه بإطلاق جماعة المعتقلين من الإخشيديين والكافورية الذين اعتقلهم جوهر وعدتهم نحو الألف (١٠) ثم اهتم بشئون مصر المالية فأصدر أمراً بمنع النداء بزيادة النيل ، وألا يكتب بذلك إلا إليه وإلى جوهر فإذا تم النيل ست عشرة ذراعاً أباح النداء (١١) وقد بين المقريزى الغرض من ذلك فقال : « إن الناس دائماً إذا توقف النيل فى أيام زيادته أو زاد قليلاً يقلقون ويحدثون أنفسهم

---

(١) المصدر السابق .

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٥ / ص ٢٢٦

(٣) المقريزى : اتعاظ الحنفا ج ١ / ص ١٣٤

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٥ / ص ٢٢٦ .

(٥) المصدر السابق .

(٦) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٤ / ص ٧٢ .

(٧) الداعى ادريس : عيون الأخبار – السبع السادس ص ١٩١

(٨) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٤ / ٧٢ .

(٩) المقريزى : اتعاظ الحنفا ج ١ / ص ١٣٤

(١٠) المصدر السابق ص ١٣٧

(١١) المصدر السابق ص ١٣٨

بعدم طلوع النيل فيقبضون أيديهم على الغلال ويمتنعون من بيعها رجاء ارتفاع السعر ، ويجتهد من عنده مال فى خزن الغلة إما لطلب السعر أو لطلب إدخار قوت عياله فيحدث بهذا الغلاء فإن زاد المال انحلّ السعر وإلا كان الجدب والقحط (١) فاستطاع المعز بفضل ذلك النظام الدقيق أن يحول دون احتكار الحبوب وأن يوفرها للناس جميعاً وأن يمنع ارتفاع الأسعار ، وفى سنة ٣٦٣هـ/٩٧٤م أسند أمور مصر المالية إلى أبى الفرج يعقوب بن كلّس ، وعسلوج بن الحسن وكتب لهما سجلاً قرئ يوم الجمعة على منبر جامع أحمد بن طولون (٢) فقاما بعملهما خير قيام وزادت إيرادات الدول فى عهدهما زيادة كبيرة (٣) .

وحينما هاجم القرامطة مصر فى عهده تغلب عليهم فى عدة معارك ، وأسر منهم ألفاً وثلاثمائة وطيف بهم على الإبل ثم اعتقلوا بالقاهرة (٤) ونتيجة لذلك أدرك ما قد تتعرض مصر له من خطر الهجوم عليها من ناحية البحر فاهتم بالأسطول وأمر بإنشاء دار لصناعة السفن فى المقس وأنشأ بها ستمائة مركب حربى لم ير مثلها فى البحر (٥) .

وفى ربيع الآخر سسنة ٣٦٥ هـ/ ٩٧٦م توفى المعز لدين الله أول الخلفاء الفاطميين بمصر وكان يدعى له على منابر مصر وبلاد المغرب والشام والحجاز ، وقد انتقلت الخلافة الفاطمية إلى مصر فى عهده ليستمر الحكم الفاطمى فى البلاد ما يزيد على قرنين من الزمان بعد عدة محاولات بدأت منذ مطلع القرن الرابع الهجرى ولم تتحقق إلا فى النصف الثانى منه ، بذل فيها الخلفاء الفاطميون الكثير من المال والعتاد والجهد المضنى فى سبيل الاستيلاء على مصر لإدراكهم العميق بأهميتها الكبرى ، وأنها البديل لأرض المغرب والطريق الموصل لتحقيق أحلامهم وأطماعهم فى السيطرة على بقية العالم الإسلامى بما تمتاز به مصر من الثروة الكبيرة والموقع الممتاز (٦) .

---

(١) المقريزى : الخطط ج ١ / ص ٦١

(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا ج ١ / ص ١٤٤ .

(٣) د . الشيال مصر فى العصر الفاطمى ص ٤٣٩

(٤) المقريزى : اتعاظ الحنفا ج ١ / ص ٢٠٩

(٥) المقريزى : الخطط ج ٢ / ص ١٩٥

(٦) د . حسن على حسن . دراسات فى تارخ مصر الإسلامية ص ١٩٨ .

الفصل السادس
الأيوبيون فى مصر

مدخل :

ضعت الخلافة العباسية فى بغداد ، والخلافة الفاطمية فى القاهرة فعانى العالم الإسلامى من ويلات الانقسام والفرقة فطمع الأوربيون فى بلادهم ، وهجموا عليها فيما يسمى بالحملات الصليبيه ، ولقد بدأت الحروب الصليبية على المسلمين بقوى شعبية أثارها بطرس الناسك وأمثاله من الدعاة المسيحيين الذين كانوا يطوفون بأوربا ويخطبون فى الناس ويدعونهم لأنقاذ الأماكن المقدسة من أيدى المسلمين (١) .

ولعل السبب فى تسمية هذه الحروب الصليبية أن الذى حمل راية الدعوى إلى تجميع هذه القوى للعمل ضد الشرق هى الكنيسة نفسها (٢) وقد استطاع الصليبيون فى الفترة ما بين ٤٩٠هـ/١٠٩٦م - ٤٩٢هـ/١٠٩٩م أن يستولوا على الرها وأنطاكية وبيت المقدس ،وبعد سنوات قليلة صار فى أيديهم الجزء الأكبر من فلسطين وساحل الشام ، ويعتبر سقوط صور فى أيديهم سنة ٥١٨هـ/١١٢٤م قمة انتصارهم الذى جاء نتيجة للتنازع والخلاف الذى قام بين أمراء السلاجقة (٣) .

على أن الانتصار الصليبى على المسلمين فى الحملة الصليبية ونجاحهم فى تأسيس إمارتى الرها وأنطاكية وطرابلس فضلاً عن مملكة بيت المقدس كان له أثر سئ ورد فعل عنيف على العالم الاسلامى(٤) مما دفع بعض الزعماء المخلصين فى الشرق الإسلامى للقيام بحركة جهاد كبرى ضد الصليبيين وقد ظهر بين أولئك الزعماء عماد الدين زنكى الذى عمل على حمل لواء الجهاد ضد الصليبيين وتوحيد الجبهة الاسلامية أمامهم كى يحقق هدفه ، وقد تابع ابنه نور الدين محمود الجهاد

---

(١) د . أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الإسلامى ج ٥ / ص ٤٤١ .

(٢) د . محمد حلمى : مصر والشام والصليبيون ص ١٨ .

(٣) د . السيد الباز : مصر فى عصر الأيوبيين ص ١٠ .

(٤) د . سعيد عاشور : الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام ص ١٠ - ١١

من بعده ثم أكمل مسيرتها البطل صلاح الدين الأيوبي مؤسس الدولة الأيوبية وفي هذا الفصل سنعرض لدور كل منهما ثم قيام الدولة الأيوبية ودورها في بناء الجبهة الإسلامية الموحدة وتأمين بلاد الحجاز وحمايتها من العدوان الصليبي .

عماد الدين زنكي وجهوده في محاربة الصليبيين :

يعد عماد الدين زنكي أول أبطال المسلمين الذين تعرضوا للغزو الصليبي وعملوا على توحيد الجهود الإسلامية في مقاومته فقد كان والده آق سنقر مملوكاً للسلطان ملكشاه السلجوقي الذي ولاه حكم حلب ، وقد تميز بالإخلاص والعدل بين الرعية ويذكر ابن الأثير أنه كان أحسن الأمراء سياسة لرعيته وحفظاً لهم وكانت بلاده بين رخص عام وعدل شامل وأمن واسع وكان الناس في عهده آمنين (١) وقتل آق سنقر إثر المعركة التي دارت بين ركن الدين بركياروق بن ملكشاه وبين عمه تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان وترك ولده عماد الدين زنكي وهو في الرابعة عشرة من عمره فالتف حوله جميع الأمراء وخصوه بعنايتهم ورعايتهم (٢) ، فنشأ بينهم نشأة عسكرية قوية وتدرج في المناصب القيادية حتى تولى إمارة الموصل سنة ٥٢١هـ/ ١١٢٧م (٣) ولما فرغ من تنظيم الأمور بها ، استولى على جزيرة ابن عمر ثم سار الى نصيبين وأخذها من الأراتقة (٤) واتجه منها الى حرّان التي كانت شبه محاصرة بالقوات الصليبية ومعرضة لهجماتهم المستمرة واستولى عليها (٥) وصار متاخماً لامارة الرها فاضطر لعقد هدنة مع جوسلين صاحبها (٦) حتى يتفرغ لاصلاح البلاد واعداد العدة اللازمة لمقاومة الصليبيين ، وكان من أهم الأمور لديه أن يعبر الفرات إلى الشام ليملك مدينة حلب وغيرها من البلاد الشامية (٧) حتى يوحد القوة الاسلامية في العراق والشام قبل قيامه بالجهاد ضد الصليبيين .

---

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٨ / ص ٤٩٥

(٢) القرماني : أخبار الدول وآثار الأول ص ٢٧٩ ، سيد أمير علي : مختصر تاريخ العرب ص ٢٩٤ .

(٣) المصدر السابق ، د . محمد حلمي : مصر والشام والصليبيون ص ٧٥ .

(٤) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٩ / ص ٢٤٤ ، ابن خلدون : العبر ج ٥ / ص ٢٦٣ .

(٥) ابن خلدون : العبر ج ٥ / ص ٦٤ ، د. سعيد عاشور الناصر صلاح الدين ص ١٥٠ .

(٦) ابن الأثير · الكامل ج ٩ / ص ٢٤٤ .

(٧) ابن خلدون . العبر ج ٥ / ص ٢٦٤

وفى أول المحرم سنة ٥٢٢هـ/١١٢٨م استولى عماد الدين على حلب (١) تلبية لرغبة أهلها الذين كانوا قد عانوا أشد صنوف المعاناة والاضطهاد من الصليبيين (٢) وكان هذا أمراً غاية فى الخطورة على الصليبيين فى شمال بلاد الشام لأنه كان يقطع الطريق بين الرها وغيرها من المستوطنات الصليبية (٣) ، واستصدر منشوراً من السلطان السلجوقى بأن تكون حلب من البلاد الداخلة فى حكمه بعد فتحها (٤) ، وفى العام التالى استولى على حماه (٥) وعلى عدة حصون بالشام (٦) .

ولما فرغ عماد الدين زنكى من أمر البلاد الشامية حلب وأعمالها وما ملكه وقرر قواعده عاد الى الموصل وديار الجزيرة ليستريح عسكره ثم أمرهم بالتجهز للغزو فتجهزوا وأعدوا واستعدوا وعاد إلى الشام وقصد حلب حيث قوى عزمه على قتال الصليبيين (٧) فسار فى سنة ٥٢٤هـ/١١٣٠م قاصداً حصن الأثارب وحاصره لشدة ضرره على المسلمين ، وهذا الحصن بينه وبين حلب ثلاثة فراسخ (٨) .

وكان من به من الفرنج يقاسمون حلب على جميع أعمالها الغربية (٩) ، وكان أهل حلب معهم فى ضر وضيق شديد فقد كانوا يغيرون عليهم وينهبون أموالهم ، فلما رأى زنكى ذلك صمم على حصار هذا الحصن فسار إليه لينازله فلما علم الإفرنج بذلك جمعوا فارسهم وراجلهم لما يعرفوه من قوة عماد الدين وشدة بأسه ، وجاء الإفرنج من إنطاكية لمساعدتهم فترك زنكى الحصن وسار إليهم فالتقوا واصطفوا للقتال ، وصبر كل فريق لخصمه واشتد الأمر بينهم إلى أن انهزم الإفرنج شر هزيمة ووقع كثير من فرسانهم فى الأسر وقتل منهم خلق كثير ، وكما يقول ابن خلدون « قتل كثير حتى بقيت

---

(١) الذهبى : العبر ج ٢ / ص ٤١٦ .
(٢) القرمانى : أخبار الدول ص ٢٧٩ .
(٣) د . قاسم عبده : ماهية الحروب الصليبية ص ١٣٦ .
(٤) ابن الأثير : الكامل ج ٩ / ص ٢٤٧ .
(٥) الذهبى : العبر ج ٢ / ص ٤١٧ .
(٦) المقريزى . السلوك ج ١ ق ١ / ص ٣٥ .
(٧) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج ٩ / ص ٢٥٤ .
(٨) ابن خلدون : العبر ج ٥ / ص ٢٦٥ .
(٩) ابن الأثير : الكامل ج ٩ / ص ٢٥٤ .

عظامهم ماثلة بذلك الموضع أكثر من ستين سنة » (١) ويذكر ابن الأثير : أنه مرّ بهذا المكان سنة ٥٨٤هـ/ ١١٨٨م فقيل له إن كثيراً من العظام باقية إلى ذلك الوقت » (٢) .

ولما فرغ المسلمون من ظفرهم عادوا إلى الحصن فتسلموه عنوة وكان له فى أيدى الفرنجة سنوات (٣) ، ثم قتلوا وأسروا كل من فيه ، وخربه عماد الدين ثم سار منه إلى قلعة حارم وهى بالقرب من انطاكية وكانت للإفرنج فحاصرها حتى صالحوه على نصف خراجها فأجابهم إلى ذلك وعاد عنهم وقد فرح المسلمون بهذا النصر المؤزر (٤) ، وأصبح عماد الدين زنكى بحكم موقعه الجغرافى أمير أقوى دولة إسلامية فى غرب آسيا فى زمنه (٥) .

وفى سنة ٥٢٥هـ/١١٣١م توفى السلطان السلجوقى محمود بن محمد بن ملكشاه ، وتولى ابنه داود خلفاً له فنازعه عمه السلطان مسعود الحكم ، وقد تدخل عماد الدين فى هذا الخلاف لصالح مسعود بن محمد بن ملكشاه الذى رفض الخليفة العباسى المسترشد أن يؤثره بالسلطنه ، وذهب عماد الدين إلى بغداد لحصار الخليفة العباسى ، لكن الخليفة أرسل إليه أحد قواده فهزم زنكى فاضطر إلى الهرب حتى وصل قرب قلعة تكريت منهزماً يريد عبور نهر دجلة حتى لا يقع بجيشه فى يد أعدائه ، وساعده نجم الدين أيوب حاكم تلك القلعة وأقام له المعابر حتى خلص إلى بلاده (٦) ولقد جمعت هذه المصادفة التاريخية بين عماد الدين زنكى والأخوين الكرديين نجم الدين أيوب وأسد الدين شيركوه فنشأت صداقة قوية بينهم (٧) .

ولما قتل الخليفة العباسى المسترشد عاد زنكى إلى سابق مكانته واستقرت له الأمور وذهب إليه نجم الدين أيوب وأخيه شيركوه ، ودخلا فى خدمته ، ولم يلبثا أن شاركا فى حروبه وسياسته وهى

---

(١) ابن خلدون . العبر ج ٥ / ص ٢٦٥ ، سيد الحريرى : الحروب الصليبية ص ٦٧ – ٦٨ .

(٢) ابن الأثير . الكامل ج ٩ / ص ٢٥٤ .

(٣) ابن خلدون . العبر ج ٥ / ص ٢٦٥ .

(٤) المصدر السابق .

(٥) د . محمد مصطفى زيادة : الدولة الأيوبية ص ٤٥٨ .

(٦) المقريزى : السلوك ج ١ ق ١ / ص ٣٥ .

(٧) د . محمد مصطفى زيادة الدولة الأيوبية ص ٤٥٨ .

العمل على تكوين جبهة إسلامية قوية للقضاء على الصليبيين (١) .

وغدا زنكى متحمساً لقتال الصليبيين يدفعه لذلك وجود أملاكه فى شمال الجزيرة وحلب وملاصقة لإمارتى الرها وانطاكية الصليبيتين القويتين ، وكان يرى أن الضرر كبير بوجود إمارة الرها وسط الجزيرة قريبة من بغداد عاصمة الخلافة العباسية وخرجت من هذه الإمارة غارات الفرنجة حتى عظم شرها وازداد على المسلمين (٢) ، إلا أنه رأى أن الجهاد ضد الصليبيين ان يثمر إلا بالاستيلاء على دمشق التى اتخذت سياسة المحافظة على مصالحها ، وكانت تلجأ إلى مهادنة الصليبيين فى بيت المقدس (٣) ، وفى سبيل ذلك شرع فى الهجوم على مدينة دمشق لكنه لم يتمكن إلا من فتح حمص وبعلبك (٤) ، وجعل على بعلبك نجم الدين أيوب (٥) .

أما دمشق فإن وزيرها معين الدين أنر راسل الصليبيين وطلب نجدتهم وخوفهم من زنكى أنه إذا ملك دمشق بادر بالاستيلاء على بيت المقدس ، ولا يترك لهم بلداً بالساحل ، فقرر الصليبيون المسير إلى دمشق لمساعدة صاحبها على قتال زنكى الذى اكتفى بالإغارة على حوران وعدة قرى من أعمال دمشق أحرقها وعاد إلى بلاده (٦) وقد عقد العزم على فتح الرها بعد خداع الصليبين ، ففى سنة ٥٣٩هـ/ ١١٤٤م اتجه إلى أسوار آمد كى يظن الصليبيون أنه يرغب فى الاستيلاء على آمد لكنه كان يرغب فى الرها الإمارة الصليبية المتاخمة لأملاكه ، وكان جوسلين صاحب الرها مصدر خطر فى أنحاء سوريا وديار بكر لما رأى انصراف زنكى إلى محاصرة آمد اتخذ طريقه إلى ضياع له بساحل الشام ، وعندئذ تقدم زنكى بعد أن وقف على ضعف حامية المدينة وحاصرها (٧) واستطاعت قواته أن تفتحها بعد حصار دام ثمانية وعشرين يوماً (٨) ، ونهب الناس الأموال وسبوا الذرية وقتلوا الرجال غير أن

---

(١) المصدر السابق .

(٢) د. عبد المنعم ماجد : الناصر صلاح الدين ص ٤٧ .

(٣) د . الباز العرينى : مصر فى عصر الايوبيين ص ١٨ .

(٤) ابن القلانسى . ذيل تاريخ دمشق ص ٤١٨ ، ٤٢٢ .

(٥) سيد أمير على : مختصر تاريخ العرب ص ٢٩٦ .

(٦) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج ٩ / ص ٣١٣ .

(٧) المصدر السابق ص ٣٣١ .

(٨) ابن خلدون : العبر ج ٥ / ص ٢٧٧ .

زنكى أوقف ما يجرى من النهب والسلب ثم تسلم سروج (١) وسائر الأماكن والقلاع التى كانت بيد الصليبيين شرقى الفرات (٢) .

وقد سمى هذا النصر بحق « نصر الأنصار » ، وكان المسيحيون يعتبرون الرها من أشرف مدنهم على وجه الإطلاق نظراً لكونها مقراً لاحدى اسقفياتهم من بعد بيت المقدس وانطاكية وروما والقسطنطينية ، وكانت فى الواقع مفتاح الجزيرة ، وبالاستيلاء عليها تمكنوا من إخضاع المناطق والحصون المجاورة لها (٣) .

وبانتزاع الرها من الصليبيين الذين سيطروا عليها نحواً من نصف قرن (٤) صارت أسبق الولايات الصليبية إلى الظهور هى أسبقها إلى السقوط ، وكان سقوطها نذيراً بتحويل مجرى الحوادث فى مصلحة المسلمين (٥) لأنه جعل وادى الفرات كله منطقة إسلامية كما ضمن للمسلمين السيطرة على طرق المواصلات التى تربط بين شمال الشام والعراق والجزيرة (٦) .

بعد هذا النصر الكبير أمضى زنكى العامين التاليين فى ترتيب أمور مملكته والعمل على استمرار مشروعاته بشأن إقامة دولة تضم الشام فضلاً عن ممتلكاته فاقدم على حصار حصن جعبر الواقع على نهر الفرات إلى الجنوب الشرقى من حلب لكن أحد غلمانه قتله أثناء نومه (٧) .

وبعد وفاة زنكى انقسمت مملكته إلى قسمين : القسم الشرقى وعليه ابنه الأكبر غازى ومقره مدينة الموصل ، والقسم الغربى وعليه ابنه الآخر نور الدين محمود ومقره مدينة حلب (٨) .

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٤٣٦ .

(٤) د . الباز العرينى : مصر فى عصر الأيوبيين ص ١٩

(٣) المصدر السابق .

(٤) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٣٤٧ .

(٥) د . فيليب حتى : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ص ٢٣٤ .

(٦) د . قاسم عبده : ماهية الحروب الصليبية ص ١٣٧ .

(٧) ابن الأثير · الكامل ج ٩ / ص ٣٣٩ ، ابن القلانسى · ذيل تاريخ دمشق ص ٤٤٤ .

(٨) ابن خلدون : العبر ج ٥ / ص ٢٧٨ ، العرينى : مصر فى عصر الأيوبيين ص ١٩ . د . محمد مصطفى زيادة : الدولة الأيوبية ص ٤٥٩ .

ولقد أدى الوضع الجغرافى للقسم الغربى إلى أن يتحمل صاحبه عبء المشكلتين الكبيرتين اللتين بذل والده فى معالجتهما معظم أيامه وهما دمشق والإمارات الصليبية الأخرى ، ويكفى للتدليل على هذا حدثان حدثا بعد وفاة زنكى أولهما أن الفرنجة انتهزوا فرصة وفاة زنكى وفى شبه غفلة من الأخوين بذلوا جهداً قوياً وسريعاً استردوا به إمارة الرها بمساعدة النصارى المقيمين فيها ، وحينما علم نور الدين بذلك لم ينتظر حتى يتفق مع أخيه صاحب الموصل الذى يقع فى المواجهة بالنسبة لموقع بلده من الرها ، بل أسرع إليهم وحاربهم بشجاعة منقطعة النظير حتى تمكن من استردادها من أيدى الفرنجة ودخل المدينة وقتل كثيراً من أهلها الأرمن النصارى الذين كانوا قد ساعدوا الفرنجة ضد المسلمين (١) .

وثانيهما أن صاحب دمشق وأعوانه اتجهوا إلى بعلبك وحاصرها وطلبوا من حاكمها نجم الدين أيوب أن يسلمها لهم فلم يقو نجم الدين على دفعهم عنها بالقتال وفضل الرضوخ لهم وسلم بعلبك ودخل فى خدمة أمراء دمشق (٢) .

ولقد كان أمراء دمشق يميلون للتعاون مع الفرنجة ليكونوا لهم سنداً ضد مطامع زنكى فيهم ، لذا لم يسع نور الدين محمود لاسترداد بعلبك ؛ بل تركها حتى يشعر أصحاب دمشق برغبته فى مسالمتهم ، وحتى يتعاونوا معه فى مواجهة الفرنجة ، ولم يكتف بذلك بل تزوج من ابنة معين الدين أنر صاحب دمشق (٣) حتى يطمئن ولتكون الصلة بينهما دافعاً على توحيد الكلمة والتصدى للصليبيين .

الحرب الصليبية الثانية :

لقد اصطدم نور الدين محمود بمحاولة استرداد الرها ، فقد أدى استيلاء المسلمين على هذا المعقل الهام إلى قيام الحملة المعروفة بالثانية من أوربا بقيادة كنراد الثالث ملك المانيا ولويس السابع ملك فرنسا غير أن اختلاف المصالح الشخصية بينهما وجه هذه الحملة إلى حصار دمشق (٤) بدلاً من استعادة الرها وزحفت قواتهم على دمشق وحاصرتها ، وقاوم أصحاب دمشق هذا الحصار الصليبى

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٤٤٩ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ٩ / ص ٣٤٥ .

(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٤٥٠

(٤) د . العدوى : تاريخ العالم الإسلامى ص ٣٠٩ .

وظل الصليبيون أمامها عاجزين عن اقتحامها غير أن قدوم نور الدين محمود وأخيه سيف الدين غازى لنجدة المدينة اضطرهم إلى رفع الحصار عنها وعاد لويس وكنراد إلى أوربا بعد فشل الصليبيين فى تحقيق شئ من أغراضهم فى دمشق والرها (١) وانتهت الحرب الصليبية الثانية .

نور الدين محمود وبناء الجبهة الإسلامية الموحدة:

استغلّ نور الدين محمود فشل الحملة الصليبية الثانية وعودة أصحابها مقهورين فى الهجوم على الفرنجة فجرد حملة قوية تمكنت من هزيمة الفرنجة وقتل أمير أنطاكية وكثير من الفرنجة معه ، واستولى على عدة قلاع فى شمال الشام (٢) .

والحقيقة أن حروب نور الدين ضد الصليبيين جعلته يؤمن بحقيقة لا مراء فيها وهى أنه لا أمل فى طرد أولئك الأعداء عن بلاد الشام ما لم تتحد القوى الاسلامية المبعثرة بين الفرات والنيل فى هيئة واحدة متكاملة أو جبهة قوية تقف كالبنيان المرصوص فى وجه الأعداء ، وكانت العقبة الكبرى أمامه فى سبيل تحقيق هذه الوحدة هى مدينة دمشق .

فقد وجد نور الدين صعوبات عديدة فى حربه مع الصليبيين طيلة الوقت الذى كانت دمشق فيه فى قبضة أمير مخادع متشكوك فى ولائه (٣) يخشى نور الدين باكثر مما كان يخشى الفرنجة (٤)

لذا رأى نور الدين ضرورة انضمام دمشق إليه تحقيقاً لتوحيد الجبهة الإسلامية التى بدأها أبوه، ولا سيما بعد أن امتدت ممتلكات الصليبيين إلى مدينة عسقلان (٥) وفى سنة ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م جهز حملة عسكرية للاستيلاء على دمشق ، وعين أسد الدين شيركوه لقيادة هذه الحملة ، ومن ثم بدأ شيركوه فى مفاوضة أخيه نجم الدين أيوب لتسليم دمشق ، وكما يقول المقريزى « كان لنجم الدين أيوب عمل كثير فى أخذ دمشق لنور الدين » (٦) إذ انتهت المفاوضات بتسليم المدينة وترحيب أهل دمشق بنور

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٤٦٦ ، ابن الأثير : الكامل ج ٩ / ص ٣٥٣

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ٩ / ص ٣٦٢ .

(٣) د . سعيد عاشور : الناصر صلاح الدين ص ٥٣ .

(٤) سيد أمير على : مختصر تاريخ العرب ص ٣٠

(٥) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٣٤٩ .

(٦) الذهبى : العبر . ج ٣ / ص ٥ .

الدين (١) الذى دخلها وأقطع صاحبها مجير الدين أبق حمص بدلاً منها (٢) ثم أخذها منه وأعطاه بلدة صغرى تدعى بالس (٣) .

ولقد ترتب على هذه الخطوة العظيمة وحدة بلاد الشام الإسلامية تحت زعامة نور الدين من الرها شمالاً حتى حوران جنوباً امتدت دولة إسلامة واحدة مركزها مدينة دمشق وجاء خطوة كبرى نحو تحقيق الجبهة الإسلامية الموحدة (٤) .

أما الأخوان نجم الدين أيوب وأسد الدين شيركوه فقد بلغا ذروة النفوذ والقوة بعد تسليم دمشق، إذ تعين أيوب حاكماً على هذه المدينة من قبل نور الدين الذى ميزه عن سائر رجاله بإعطائه حق الجلوس فى حضرته رعاية لسابق علاقته بأبيه زنكى وتعيين شيركوه نائباً للسلطنة بإقليم دمشق كما استقر بإقطاع كبير فى حمص (٥) .

والحقيقة أن هذه الأحداث أدت إلى أن تتجه إلى مصر أنظار كل من نور الدين فى حلب والصليبيين فى بيت المقدس (٦) ، إذ رأى نور الدين أن استيلاء الصليبيين على عسقلان فتح الطريق أمامهم إلى مصر ، على حين وضح للصليبيين أن استيلاء نور الدين على دمشق أتاح له تطويق مملكة بيت المقدس من الشمال وأنه سوف يتحول إلى مصر ويضمها إلى الجبهة الإسلامية لتطويق المملكة الصليبية من الناحية الجنوبية كذلك (٧) .

وجاءت أحوال الخلافة الفاطمية نفسها عاملاً ساعد نور الدين على الفوز بمصر والاستيلاء عليها ، إذ كانت مصر آنذاك نهباً للفتن والصراعات الداخلية التى تنهك قواها وتمزق شملها وصار الخليفة الفاطمى لا يمثل شيئاً من خلال استبداد الوزراء بشئون الحكم ، لهذا أصبح منصب الوزارة

---

(١) المقريزى : الخطط ج ٢ / ص ٢٣٣ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ٩ / ص ٣٩٨ .

(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٥٠٣ .

(٤) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٣٤٩ .

(٥) د . سعيد عاشور : الناصر صلاح الدين ص ٥٧ .

(٦) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج ٩ / ص ٤٣٥ .

(٧) د . العدوى : تاريخ العالم الإسلامى ص ٣١٠ .

محط أنظار قواد الجيش وكبار رجال الدولة فقامت بين بعضهم والبعض الآخر منافسات دامية فى سبيل الوصول إلى هذا المنصب ، ولم تستقر الأحوال إلا بتولية طلائع بن رزيك للوزارة سنة ٥٤٩هـ/١١٥٤م وتلقيبه بالملك الصالح (١) ولم يلبث أن قتل فى العاشر من شهر رجب سنة ٥٥٦هـ/١١٦١م بعد أن اقام بمصر وزيراً لمدة سبع سنين استطاع فيها أن يقرّ السلام فى البلاد لفترة وجيزة بعد أن مزقت شملها الفتن والخلافات ثم تولى ابنه رزيك بن طلائع الوزارة خلفاً له (٢) .

عادت الفتن والمنازعات من جديد ، إذ نسب الصراع بين رزيك ابن الوزير القتيل وخلفه فى الوزارة وبين شاور بن مجير السعدى الذى سبق لطلائع أن عينه حاكماً على مصر العليا واتخذ من قوص قاعدة لحكمه ، إذ أراد الوزير الجديد عزل شاور عن قوص ليتم له الأمر (٣) فاشتعل القتال بينهما وكتب فيه النصر لشاور وقتل رزيك (٤) وتولى شاور الوزارة (٥) ولقبه الخليفة الفاطمى العاضد بأمير الجيوش ومكنه من أموال بنى رزيك (٦) ، لكن شاور وابناءه أساءوا السيرة فى الرعية مما جعل أحد القواد ويدعى أبو الأشبال ضرغام بن عامر يخرج عليه ويخلع طاعته بالتواطؤ مع الخليفة العاضد (٧) وكانت بينهما وقعة قتل فيها ابن شاور الأكبر وأخوه وعدد من أنصاره وتولى ضرغام الوزارة ولقب بالمنصور (٨) بعد فرار شاور الذى اضطر أن يخلى له الميدان ويهرب إلى دمشق مستنجداً بنور الدين محمود ، وعرض عليه شروطاً مغرية إذا أعانه على استرجاع أمره بمصر ، فتعهد أن يعطى لنور الدين نفقات الحملة وثلث إيراد مصر سنوياً (٩) ، ويكون معه من أمراء الشام من يختاره نور الدين

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ج ٣ / ص ٢١٨ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٥ / ص ٣٤٥ .

(٣) المقريزى : اتعاظ الحنفا ج ٣ / ص ٢٥٤ .

(٤) المصدر السابق ص ٢٥٩ .

(٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٥ / ص ٣٤٥ - ٣٤٦ .

(٦) ابن خلدون : العبر ج ٤ / ٩٩ .

(٧) ابن تغردى بردى . النجوم الزاهرة ج ٥ / ص ٣٤٥ - ٣٤٦ .

(٨) المقريزى : اتعاظ الحنفا ج ٣ / ص ٢٦١ .

(٩) ابن الأثير . الكامل فى التاريخ ج ٩ / ص ٤٦٥ .

للإقامة معه فى مصر ، ويتصرف بأوامر نور الدين واختياره فأجابه نور الدين بعد تردد (١) .

ويبدو أن نور الدين علم بأن رسل الفرنجة قد ذهبوا إلى ضرغام لطلب مال الهدنة (٢) وكان الصالح بن رزيك قد قرر للفرنج فى كل سنة على مصر ثلاثة وثلاثين ألف دينار يحملها إليهم (٣) فخشى نور الدين على مصر منهم فقرر أن يستجيب لطلب شاور ولأن فى هذه الاستجابة تحقيق لخطته التى كان يهدف من ورائها إلى توحيد الجبهة الإسلامية توطئة لمقاومة الخطر الصليبى والقضاء عليه ، وعهد الى أسد الدين شيركوه بهذه المهمة .

حملة شيركوه الأولى على مصر :

أرسل نور الدين جيشاً كبيراً بقيادة أسد الدين شيركوه فى جمادى الأولى سنة ٥٥٩هـ/١١٦٤م(٤) وأصطحب أسد الدين معه ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب (٥) واتجهوا إلى مصر لمساعدة شاور على العودة للوزارة من جديد .

ولما علم ضرغام بخروج هذا الجيش وقرب وصوله إلى مصر أصابه الخوف والهلع إذ لم يكن الجيش فى حالة تمكنه من المقاومة أو إحراز النصر فأرسل إلي الصليبيين يستنجد بهم ويعدهم بزيادة القطيعة المقررة لهم فرفض ملكهم عمورى عرضه وأبلغه أنه لا يأتى إلا بأمر الخليفة لا بأمر الوزراء(٦).

ووصل أسد الدين شيركوه إلى مصر ومعه شاور وانتصر على جيش ضرغام بعد أن تفرق عنه قواده وأعوانه فقتل وأعيد شاور إلى الوزارة مرة أخرى (٧) .

غير أن شاور كان يتصف بالغدر والخيانة فلم يفِ بما تعهد لنور الدين محمود من التزامات

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ج ٣ / ص ٢٦٤ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) المصدر السابق ص ٢٥٩ .

(٤) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج ٩ / ص ٤٦٥ ، الذهبى · العبر ج ٣ / ص ٣١ .

(٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٥ / ص ٣٤٦ .

(٦) المقريزى : اتعاظ الحنفا ج ٣ / ص ٢٧٦

(٧) ابن خلدون : العبر ج ٤ / ص ١٠٠ .

ورفض أن يدفع لشيركوه المبلغ المتفق عليه (١) ؛ بل طلب إليه الانسحاب بجيشه والعودة إلى الشام (٢) فرفض شيركوه الاستماع له وعسكر بجيشه عند مدينة بلبيس وتحصن بها (٣) ، واستنجد شاور بملك بيت المقدس الصليبي الذى رحب بدعوته وأسرع بجيشه نحو مصر لأنه كان يخشى أن يملك نور الدين محمود مصر فتصبح قوى الصليبيين وأملاكهم فى الشام محاصرة بقوى نور الدين من الشمال والجنوب ؛ واستطاع شيركوه أن يصمد أمام الجيوش المصرية والصليبية التى حاصرته فى مدينة بلبيس لمدة ثلاثة أشهر دون أن ينالوا منه شيئا (٤) .

ولما أحس نور الدين بما يهدد جيشه فى مصر من خطر بدأ يضغط على أملاك الصليبيين بالشام فتوجه إلى حصن حارم وقتل كثيراً من الصليبيين كما أسر عدداً من كبار قادة الصليبيين مثل صاحب انطاكية وصاحب طرابلس (٥) واتجه إلى حصن بانياس وفتحه (٦) وخشى ملك بيت المقدس على إمارته فأرسل يفاوض شيركوه فى طلب الصلح على شرط انسحابه من مصر وتركها لأصحابها(٧).

ويبدو أن شيركوه لم يكن يعلم بالانتصار الذى أحرزه نور الدين على الصليبيين وكانت جيوشه تحارب على قلة من المؤونة ، ولم يكن له عند بلبيس حلفاء يساعدونه ولهذا سرّه أن يفاتحه الفرنج بالصلح على أن يخرج هو وهم جميعاً من مصر .

وبانسحابهما معاً من مصر انتهت الجولة الأولى من النزاع بين نور الدين والصليبيين على مصر .

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٥ / ص ٣٤٧ .

(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا ج ٣ / ص ٢٧٤

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٥ / ص ٣٤٧ ، ابن الأثير الكامل ج ٩ / ص ٤٦٦ .

(٤) الذهبى : العبر ج ٣ / ص ٣١ .

(٥) ابن الأثير : الكامل ج ٩ / ص ٤٦٧ - ٤٦٨ .

(٦) المصدر السابق ص ٤٦٩

(٧) المقريزى · اتعاظ الحنفا ج ٣ / ص ٢٧٧

حملة شيركوه الثانية على مصر :

كان لحملة شيركوه الأولى أهميتها إذ تعرف شيركوه على سوء الأحوال فى مصر وضعفها وأيقن بضرورة الاستيلاء على مصر للتغلب على الصليبيين وأن يكون نائباً عن نور الدين فيها بعد فتحها ، لذا أخذ يهون أمرها عليه حتى وافق على رأيه وأرسل الحملة الثانية على مصر سنة ٥٦٢هـ/١١٦٧م بقيادة شيركوه نفسه (١) وصحبه جماعة من الأمراء (٢) وابن أخيه صلاح الدين (٣) ووصل شيركوه إلى مصر ، وعبر النيل عند أطفيح ونزل بالجيزة (٤) .

وما أن علم شاور بقدوم شيركوه حتى أرسل يستنجد بحلفائه الصليبيين فأسرع إلى نجدته عمورى ملك بيت المقدس خوفاً من أن يمتلك نور الدين مصر (٥) وتقابل الجيشان فى صعيد مصر قرب المنيا فى موضع يعرف بالبابين ، وانتصرت قوات شيركوه انتصاراً باهراً ، وأبلى صلاح الدين بلاءً حسناً وحمل على الأعداء بقوة فرّق بها جموعهم وبدد شملهم (٦) . وتوجه شيركوه بعد انتصاره إلى الإسكندرية فسلمها أهلها إليه فجعل ابن أخيه صلاح الدين نائباً عنه فى حكمها وكانت هذه هى المرة الأولى التى تولى فيها صلاح الدين الإمارة وتحمل المسئولية وقد أثبت أنه جدير بذلك ، فإنه ما أن توجه عمه أسد الدين إلى الصعيد لجباية أمواله وأخذ غلاله حتى أصلح الصليبيون والمصريون عساكرهم وتوجهوا إلى الإسكندرية فحاصروا صلاح الدين ورفاقه واشتد الضيق على المحاصرين ولكن صلاح الدين أظهر من البطولة والشجاعة ما جعله يتحمل هذا الحصار ويرفض الاستسلام (٧) .

ولما علم شيركوه بخبر هذا الحصار قدم من الصعيد يحمل معه المؤن والأموال فتشجع المقاتلون وقويت نفوسهم ، وصمدوا للقتال حتى وصل رسل الفرنج والمصريون يطلبون الصلح وبذل الصليبيون

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ / ص ٣ .

(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا ج ٣ / ص ٢٨٢ .

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٥ / ص ٣٤٨ .

(٤) ابن خلدون : العبر ج ٤ / ص ١٠٠ .

(٥) ابن الأثير : المصدر السابق .

(٦) المقريزى : اتعاظ الحنفا ج ٣ / ص ٢٨٤ ، ابن خلدون : العبر ج ٤ / ص ١٠٠ .

(٧) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ / ص ٥ .

والفاطميون لشيركوه خمسين ألف دينار بالإضافة إلى ما جمعه من أموال فأجابهم إلى ذلك بشرط أ يقيم الصليبيون فى بلاد فوافقوا على ذلك (١) .

ولعل السبب الذى دعا الصليبيين إلى طلب الصلح هو الهجمات المتوالية التى قام بها نور الدين محمود على ممتلكاتهم فى حصن الأكراد وبانياس (٢) .

حملة شيركوه الثالثة على مصر :

خرج شيركوه من مصر إلى الشام عقب حملته الثانية على مصر ، لكن الصليبيين لم يغادروا البلاد إلا بعد أن اتفقوا مع شاور على أن يكون لهم بالقاهرة حامية ، وأن تكون أبوابها بيد فرسانهم ليمتنع نور الدين من إنقاذ عسكره إليهم ، ويكون لهم من دخل مصر مائة ألف دينار سنوياً (٣) ويبدو أن ملك بيت المقدس أراد من بقاء هذه الحامية أن تكون سنداً لهم وعوناً فى الاستيلاء على مصر متى ابتعدت جيوش شيركوه عنها ، ولما اطمأن لذلك جهز حملة عسكرية على مصر واستولى على مدينة بلبيس فى الثانى من صفر سنة ٥٦٤هـ/١١٦٩م وفتكت جيوشه بأهل المدينة وذبحوا كثيراً منهم (٤) وأغراهم هذا الانتصار فتقدموا إلى الفسطاط فأمر شاور بإحراقها بعد أن طلب إلى أهلها الانتقال منها إلى القاهرة (٥) ثم عرض على عمورى مبلغاً كبيراً من المال مقابل الجلاء عن مصر ووافق الصليبيون على ذلك خوفاً من قدوم نور الدين محمود (٦) لكن جماعة من المصريين الذين كانوا يكرهون شاور حثوا الخليفة العاضد على مراسلة نور الدين لكى يأتى لمساعدة مصر على أعدائها ، فما هو إلا أن أرسل إليه العاضد يستنجد به ، ووعده بثلث خراج البلاد وأن يقيم شيركوه عنده فى عسكره ، وأن يقطع الجنود أرضاً خارجة عن الخراج الذى جعله لنور الدين (٧)

---

(١) ابن الأثير الكامل ج ١٠ / ص ٤ ، الذهبى . العبر ج ٣ / ص ٣٧

(٢) المصدر السابق ص ٥

(٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج ١٠ / ص ٤ .

(٤) المقريزى · اتعاظ الحنفا ج ٣ / ص ٢٩٣

(٥) ابن الأثير الكامل فى التاريخ ج ١٠ / ص ١٦

(٦) المصدر السابق

(٧) المصدر السابق ص ١٣

والحقيقة أن الشروط التى وعد بها العاضد كانت شروطاً لا تبررها إلا الضرورة القصوى التى كانت تمر بها مصر ، لذا أرسل نور الدين إلى شيركوه يستدعيه من إقطاعه بحمص ثم طلب إليه أن يتجهز للمسير إلى مصر ، وأعطاه مائتى ألف دينار وثياباً وسلاحاً ودواب وأذن له أن يختار من العسكر ألفى فارس وأعطى نور الدين كل فارس من هؤلاء عشرين ديناراً ينفقها أثناء تجهيز الحملة(١) وجند شيركوه ستة آلاف فارس من التركمان (٢) وكان لشيركوه بصفته أمير إقطاع حمص عساكر فى خدمته يبلغ عددهم خمسمائة مملوك وكردى فانضم هؤلاء إلى الآلاف الثمانية منهم الفرسان (٣) وانضم إليه جماعة من الأمراء منهم عز الدين جرديك ، وغرس الدين قلج ، وشرف الدين برغش ، وعين الدولة الياروقى ، وقطب الدين ينال المنجى ، وابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب (٤) الذى قرر عدم المسير مع عمه بعد ما عاناه من شدة أثناء حصار الإفرنج له بالاسكندرية إلا أن نور الدين أقنعه بالمسير فأذعن وكأنما يساق إلى الموت (٥) ووصل الجميع إلى مصر سنة ٥٦٤هـ/١١٦٩م وكان عمورى ملك الفرنج عند وصول جيش نور الدين واقفاً يطلب من شاور الوفاء بوعده فى المال المتفق عليه ، فلما أتى الجيش الإسلامى بقيادة شيركوه ورأى عمورى موقفه الحرج وهو بين شاور من جهة وشيركوه من جهة أخرى فلم يستطع البقاء وعاد إلى الشام دون أن يصطدم بالجيش القادم وبقى شيركوه وحده بمصر ففرح به المصريون واستبشروا بقدومه ، وكان الخليفة العاضد مبتهجاً به فأكرمه وخلع عليه ، وأجرى عليه وعلى عسكره الجرايات الكثيرة والإمامات الوافرة (٦) .

أما شاور فلم يكن راضياً عن وجود ذلك الجيش القوى وامتلأ قلبه حقداً وغيظاً لكنه لم يظهر شيئاً خوفاً وعجزاً وجعل يماطل فى تحقيق الشروط التى اتفق عليها العاضد ونور الدين ، ولما تبين لصلاح الدين وسائر الأمراء خداع شاور ومناوراته قرروا القبض عليه وأرسلوا إلى شيركوه يبلغونه

---

(١) المقريزى اتعاظ الحنفا ج ٢ / ص ٢٩٤

(٢) Cahen La Syrie du Nord P 378 Paris 1940

(٣) هاملتون جب التاريخ الإسلامى فى العصور الوسطى ص ٩٧

(٤) المقريزى : اتعاظ الحنفا ج ٢ / ص ٢٩٤

(٥) المصدر السابق ص ٢٩٤ – ٢٩٥ .

(٦) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج ١٠ / ص ١٤

بذلك فحضر وقد بلغت الأخبار الخليفة العاضد الذى أمره بقتله وقال « هذا غلامنا ولا خير فيه لك ولا لنا فامض حكم الله فيه » فقتل وحملت رأسه إلى العاضد (١) .

ولقد كان مقتل شاور نهاية للمتاعب والمصاعب التى تعرضت لها مصر أواخر العصر الفاطمى ولم يعد للصليبيين من ينصرهم فى البلاد ، وكان خروجهم من مصر فى نظر نور الدين فتحاً جديداً للبلد وحفظاً لسائر بلاد الشام .

وبعد مقتل شاور اختار الخليفة العاضد أسد الدين شيركوه ليكون وزيراً له وبالغ فى إكرامه وخلع عليه (٢) وكتب إليه تقليداً بالوزارة يقول فيه « هذا عهد لا عهد لوزير بمثله وتقليد أمانة رآك الله تعالى وأمير المؤمنين أهلاً لحمله والحجة عليك عند الله بما أوضحه لك من مراشد سبله ، فخذ كتاب أمير المؤمنين بقوة واسحب ذيل الفخار بأن اعتزت خدمتك إلى بنوّة النبوة ، واتخذ أمير المؤمنين للفوز سبيلاً(٣) « ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً » (٤) .

لكن الأجل لم يمهل شيركوه أكثر من شهرين وخمسة أيام إذ توفى يوم السبت الثانى من جمادى الآخرة سنة ٥٦٤هـ/١١٦٩م (٥) .

صلاح الدين وسقوط الخلافة الفاطمية :

توفى أسد الدين شيركوه بعد شهرين من توليه الوزارة ، وفكر الخليفة الفاطمى العاضد فى اختيار وزير له خلفاً لشيركوه ، وكان فى الجيش الشامى جماعة من كبار الأمراء وكان المتوقع أن يختار أحدهم وزيراً ، ولكن حدث ما لم يكن منتظراً إذ اختار العاضد الشاب صلاح الدين يوسف بن أيوب خلفاً لعمه ولقبه بالملك الناصر (٦) وكتب إليه تقليداً بالوزارة جاء فيه « هذا عهد أمير المؤمنين إليك وحجته عند الله تعالى عليك فأوفِ بعهدك ويمينك ، وخذ كتاب أمير المؤمنين بيمينك ، ولمن مضى بجدنا

---

(١) المقريزى . اتعاظ الحنفا ج ٣ / ص ٣٠١

(٢) ابن إياس بدائع الزهور ج ١ ق ١ / ص ٢٣٢ .

(٣) د الشيال مجموعة الوثائق الفاطمية ص ٤٠١ ، تاريخ ابن أبى الهيجاء لوحة (٢٣٦) .

(٤) سورة النحل من الآية ٩١ .

(٥) ابن الأثير · الكامل ج ١٠ / ص ١٥ .

(٦) ابن تغرى بردى النجوم الزاهرة ح ٥ / ص ٣٥٣ .

بجدنا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أحسن أسوة ولمن بقى بقربنا سلوة (١) »« تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً فى الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين » (٢) .

ويبدو أن العاضد اختار صلاح الدين للوزارة ظناً منه أنه سيكون أسلس قياداً وأسهل طاعة نظراً لصغر سنه .

ولقد كان اختيار صلاح الدين للوزارة مغضباً لكبار أمراء الجيش النورى إلا أن الفقيه ضياء الدين الهكارى سعى بينهم وبينه حتى أزال الجفوة وأقنعهم بأن يظلوا على الولاء له فقبلوا جميعاً (٣) إلا عين الدولة الياروقى فإنه رفض وقال أنا لا أحترم يوسف ، وعاد مع جماعته إلى الشام (٤) لكن نور الدين رضى عن ذلك الاختيار (٥) .

ولقد اتبع صلاح الدين سياسة حكيمة فى مصر ، فرأى أن يستميل قلوب المصريين لطاعته فعاملهم بالحب والسماحة وبذل الأموال مما حببهم فيه وقربهم إليه (٦) لذا صار موضع حسد وحقد من رجال القصر الفاطمى الذين اعتبروه دخيلاً عليهم ومغتصباً لحقوقهم وسعوا لإسقاطه ، وكان على رأس أولئك الناس مؤتمن الخلافة نجاح ، وكان من كبار رجال القصر (٧) فأرسل رسلاً إلى ملك بيت المقدس لترتيب هجوم داخلى وخارجى على قوات صلاح الدين فى وقت واحد لإسقاطه ، وكانت خطته أن يزحف الإفرنج على مصر بقواتهم حتى إذا وصلوا وخرج إليهم صلاح الدين زحف مؤتمن الخلافة بمجموعة خلفه فيقع صلاح الدين بين شقى الرحا ويتم القضاء عليه ، وكتب مؤتمن الخلافة الكتاب ، ووضعه داخل نعل جديدة وأعطاها إلى أحد أتباعه ليذهب بها إلى الإفرنج فوقعت النعل فى يد أحد رجال صلاح الدين فأوصلها إليه وعلم صلاح الدين تفاصيل المؤامرة قبل تنفيذها فترك مؤتمن الخلافة

---

(١) د . الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية ص ٤١٩ .

(٢) سورة القصص الآية ٨٣ .

(٣) ابن خلدون العبر ج ٤ / ص ١٠٣ ، تاريخ ابن أبى الهيجاء لوحة رقم (٢٣٧) .

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ / ص ١٧ .

(٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٥ / ص ٣٥٥ .

(٦) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ / ص ١٧ .

(٧) المقريزى : اتعاظ الحنفا ج ٣ / ص ٣١١ .

تحت مراقبته ولم يبادر بقتله حتى لا يثور أتباعه ومؤيديه وأمهله حتى خرج يوماً إلى قصر له خارج القاهرة فأرسل إليه صلاح الدين من قتله (١) .

وما أن قتل مؤتمن الخلافة حتى ثار أتباعه من الجند السودانيين وكانوا حوالى خمسين ألف رجل(٢) ، فقرر صلاح الدين التخلص منهم بضربة حاسمة وجهها إليهم بين القصرين الفاطميين حيث كانت أغلبيتهم تتحصن وتقيم ووقع بين الفريقين قتال كبير وكادت جيوش صلاح الدين تنهزم (٣) لولا أن أرسل جماعة من رجاله إلى محلتهم المعروفة بالمنصورة فأحرقها على أموالهم وأولادهم فلما بلغهم الخبر تركوا ميدان المعركة لانقاذ أسرهم فسهل بذلك على صلاح الدين هزيمتهم (٤) ثم اضطرت البقية الباقية منهم إلى الهجرة إلى الصعيد سنة ٥٦٥هـ/١١٦٩م (٥) .

ونتيجة لما أقدم عليه مؤتمن الخلافة أقبلت جيوش متحالفة من الصليبيين والبيزنطيين فى مائتين وعشرين سفينة استجابة لدعوته ونزلت هذه القوات على دمياط تهاجمها (٦) وضيقوا عليها الخناق فأرسل إليهم صلاح الدين الجيش بحراً وزودهم بالأسلحة والأموال (٧) وطلب من نور الدين أن يعاونه فى دحرهم وكتب إليه يقول : « إنى إن تأخرت عن دمياط ملكها الفرنج وإن سرت إليها خلفنى المصريون فى أهلها بالشر وخرجوا عن طاعتى وساروا فى إثرى والفرنج أمامى لا يبقى لنا باقية (٨) فأمده نور الدين بطائفة من الجند كما سار هو بنفسه للإغارة على بعض البلدان الصليبية أملاً فى تخفيف الحصار عن دمياط (٩) فلما رأى الفرنج تتابع الجند على مصر وهجوم نور الدين على بلادهم

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ج ٣ / ص ٣١٢ ، تاريخ ابن أبى الهيجاء لوحة رقم (٣٨) .

(٢) المصدران السابقان .

(٣) المصدران السابقان .

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ / ص ١٩ .

(٥) المقريزى : اتعاظ الحنفا ج ٣ / ص ٣١٤ .

(٦) د . محمد حلمى . مصر والشام والصليبيون ص ١٠٩ .

(٧) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٤٣ .

(٨) المقريزى : اتعاظ الحنفا ج ٣ / ص ٣١٥ .

(٩) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ / ص ٢٢

فرجعوا من حيث أتوا خائبين مدحورين بعد أن أقاموا على دمياط خمسين يوماً (١) وقتل منهم عدد كبير(٢) .

ولقد كان إجلاء الصليبيين عن سواحل دمياط بمثابة انتصار لصلاح الدين أقنع الخلافة الفاطمية والباقين من رجالها وكذلك القاهرة وأهلها بأنه يستطيع حماية البلاد من إغارة المغيرين عليها فضلاً عن حماية مركزه من مؤامرات المتآمرين (٣) .

وبدأ صلاح الدين خطواته لتوطيد أقدامه فى مصر فأرسل إلى نور الدين يطلب الباقين بالشام من أهله إلى مصر ليستعين بهم فى وظائف الدولة وعلى رأسهم أبوه نجم الدين أيوب (٤) الذى وصل إلى مصر فى جمادى الآخرة سنة ٥٦٥هـ/١١٦٩م فجعله صلاح الدين على بيت المال (٥) وأقطع أخوه شمس الدولة تور انشاه قوص وأسوان وعيذاب ، وأناب تورانشاه عنه فى قوص شمس الخلافة محمد ابن مختار (٦) وقبض صلاح الدين على بقية أمراء الدولة واستولى على إقطاعاتهم وأقام أصحابه عوضاً عنهم وأعطاهم إقطاعاتهم ليضمن ولاءهم وإخلاصهم (٧) .

ثم رأى أن يتقدم خطوة أخرى فى سبيل القضاء على الفاطميين فأبطل الأذان بحى على خير العمل محمد وعلى خير البشر ، ثم أمر أن يذكر فى الخطبة يوم الجمعة الخلفاء الراشدون أبو بكر وعمر وعثمان وعلى وتم ذلك يوم الجمعة العاشر من ذى الحجة سنة ٥٦٥هـ/١١٦٩م (٨) وبدأ صلاح الدين كذلك بتعميم حركة إنشاء المدارس فى مصر ، وقد كان الهدف منها محاربة المذهب الشيعى والدعوة للمذهب السنى وتدريسه ، وكانت أول مدرسة أنشأها صلاح الدين هى المدرسة الناصرية التى انشئت

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ / ص ٢٢ .

(٢) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٤٢ .

(٣) د. محمد مصطفى زيادة : الدولة الأيوبية ص ٤٦١ .

(٤) المقريزى : اتعاظ الحنفا ج ٣ / ص ٣١٦ ، تاريخ ابن أبى الهيجاء لوحة رقم (١٣٩) .

(٥) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٤٤

(٦) المقريزى : اتعاظ الحنفا ج ٣ / ص ٣١٧

(٧) المقريزى : الخطط ج ١ / ص ٢٣٣ .

(٨) المقريزى : اتعاظ الحنفا ج ٣ / ص ٣١٧

فى الفسطاط لتدريس المذهب الشافعى (١) ولم تكن فى مصر من قبل مدارس لأحد من الفقهاء ، ثم أنشأ مدرسة أخرى لتدريس المذهب المالكى بجوار جامع عمرو بن العاص عرفت باسم المدرسة القمحية(٢) .

وخطا صلاح الدين خطوة أخرى فعين صدر الدين عبد الملك بن درباس الشافعى قاضياً للقضاة فى سائر الديار المصرية شافعية (٣) ومن حينئذ اشتهر مذهب الشافعى ومذهب مالك بمصر وتظاهر الناس بهما ، واختفى مذهب الشيعة الإمامية والاسماعيلية ، وبطل مجلس الدعوة بالجامع الأزهر وغيره (٤) .

سقوط الخلافة الفاطمية :

بعد أن مهد صلاح الدين البلاد وهيأها للتغيير الذى يريده قرر قطع الخطبة للفاطميين والدعوة للخليفة العباسى المستضئ ، وقد صادفت رغبته هذه إلحاح نور الدين بتغيير الخطبة فانتهز فرصة مرض الخليفة العاضد ، وجمع الأمراء واستشارهم فى قطع الخطبة له فمنهم من أقدم على تأييده ومنهم من خشى الموافقة على ذلك ، وكان بمصر وقتذاك رجل أعجمى يقال له « الأمير العالم » رأى ماهم فيه من الاحجام والتردد فأعلن استعداده لإعلان سقوط الخليفة الفاطمى ثم أخذ سبيله إلى المسجد فى أول جمعة من المحرم سنة ٥٦٧هـ ١١٧٢م وألقى بالفسطاط أول خطبة باسم الخليفة العباسى المستضئ ، وكتب بذلك إلى سائر بلدان مصر ففعلوا ، ولم يحتج أحد ، وكما يقول ابن الأثير « لم ينتطح فيها عنزان » (٥)

وكان العاضد قد اشتد به المرض فتوفى فى العاشر من المحرم سنة ٥٦٧هـ (٦) ولم يدر شيئاً

---

(١) المقريزى : الخطط ج ٢ / ص ٣٦٣ .

(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا ج ٣ / ص ٣١٩ .

(٣) ابن اياس : بدائع الزهور ج ١ ق ١ / ص ٢٣٤

(٤) المقريزى · اتعاظ الحنفا ج ٣ / ص ٣١٩ - ٣٢٠ .

(٥) ابن الأثير · الكامل ج ١٠ / ص ٣٣ ، تاريخ ابن أبى الهيجاء لوحة رقم (٢٤٠) .

(٦) العماد الاصفهانى : سنا البرق الشامى ص ٥٨ .

عما حدث (١) فلما وصل الخبر إلى بغداد بإعادة الخطبة لبنى العباس بمصر فرح أهل بغداد بذلك وزينت مدينة بغداد سبعة أيام فرحاً بهذا الحدث الكبير (٢) وسيرت الخلع إلى صلاح الدين ونور الدين محمود (٣) .

وبموت العاضد انتهت الدولة الفاطمية بعد أن حكمت مصر قرابة قرنين من الزمان وأصبح صلاح الدين الحاكم المطلق فى مصر ليس لأحد فيها كلمة سواه فأخذ فى إصلاح أمر الديار المصرية وأبطل المكوس والمظالم وأظهر العدل فضج الناس له بالدعاء (٤) .

وبسقوط الدولة الفاطمية على يد صلاح الدين الذى أصبح نائباً لنور الدين فى مصر انضمت مصر إلى الجبهة الإسلامية الموحدة ، ورحب المصريون بذلك ، ومما يدل على موقف المصريين من الخلافة الفاطمية أن هذه الخلافة زالت فى يسر وسهولة وظل المصريون على موقفهم الهادئ المسالم أما بقايا الفاطميين فأخذت تدير المؤامرات لاسترداد سلطانها (٥) ومن هذه المؤامرة التى حدثت سنة ٥٦٩هـ/١١٧٤م (٦) وكان يتزعمها الشاعر عمارة اليمنى ومعه أتباع الدولة الفاطمية من الموظفين وبقايا الجند السودان وخدم القصر الفاطمى الذين سعوا لإقامة أحد أولاد العاضد وإسقاط صلاح الدين (٧) واتفق المتآمرون مع الصليبيين فى بيت المقدس على أن تغزو قواتهم مصر ، وفى نفس الوقت يهاجم ملك صقلية الإسكندرية (٨) فيقوم المتآمرون بالثورة فى القاهرة والفسطاط فيقع صلاح الدين بين نارين ، ووضعت الترتيبات فى القاهرة وبيت المقدس وصقلية ، وأرسل ملك بيت المقدس رسولاً إلى صلاح الدين يحمل تحياته فى الظاهر ويحمل فى الحقيقة الترتيبات للمتآمرين (٩) .

---

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٤٥٠ .

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور ق ١ ج ١ / ص ٢٣٤ .

(٣) ابن الأثير : ج ١٠ / ص ٢٣ .

(٤) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ق ١ / ص ٢٣٧ .

(٥) د . العدوى : تاريخ العالم الإسلامى ص ٢٦٨ .

(٦) المقريزى : السلوك ج ١ ق ١ / ص ٥٣ - ٥٤ .

(٧) المصدر السابق .

(٨) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج ١٠ / ص ٥٤ .

(٩) المصدر السابق .

وقد كشف القاضى زين الدين بن نجا أسرار المؤامرة لصلاح الدين الذى قام بالقبض عليهم ، وصلب زعماء هذه المؤامرة (١) .

صلاح الدين وبناء الجبهة الاسلامية الموحدة :

لما تولى صلاح الدين الأمور فى مصر خلفاً لشيركوه أخذ يتعاون مع نور الدين محمود من أجل بناء الجبهة الإسلامية الموحدة للقضاء على الصليبيين ، لذا نجده بعد فشل الحملة الصليبية على دمياط يتخذ قراراً بالهجوم على الصليبيين فأغار على الرملة وعسقلان وهاجم داروم وغزة ، وأحدث بأسوار داروم الخارجية ثغرات وقتل عدداً كبيراً من السكان ثم عاد إلى مصر حيث عمّر المراكب وحملها إلى ساحل أيلة على الجمال وركبها الصناع هناك ، وشحنها بالمقاتلين وزحف إلى أيلة التى حصنها الصليبيون وحاصرها حتى فتحها عنوة (٢) وصار ميناء أيلة على البحر الأحمر تحت سيطرة مصر (٣).

وحينما توفى الخليفة العاضد وأصبح صلاح الدين الحاكم الفعلى لمصر نائباً عن نور الدين أقام الخطبة له فى المساجد بعد الخليفة العباسى ، وضرب النقود باسمه ، وأرسل له الهدايا اعترافاً بالجميل وتجديداً للولاء (٤) لكن بعض أمراء الجيش النورى الذين امتنعوا عن خدمة صلاح الدين ورفضوا الاقامة معه فى مصر أخذوا يوغرون صدر نور الدين عليه وكاد أن ينشأ خلاف بينهما لولا أن تدارك نجم الدين أيوب الأمر بحكمته وأعاد الود والصفاء بينهما (٥) .

وفى سبيل تأمين مصر اتجه صلاح الدين إلى النوبة سنة ٥٦٨هـ/١١٧٣م وفتحها بعد أن تأكد خطرها على استقرار مصر بتحالف فلول السودانيين مع أصحاب النوبة وتحولهم جميعاً إلى بؤرة ثورية تهدد أمن مصر واستقرارها من ناحية الجنوب . ولهذا كان فتح النوبة ضرورة حربية لتأمين مصر من هذا الخطر (٦) إلا أن ابن الأثير يرى أنه فتح النوبة ليتخذها ملجأ له إذا قرر نور الدين عزله عن

---

(١) أبو شامة : الروضتين ج ١ / ص ٢١٩ - ٢٢٠ .

(٢) ابن خلدون العبر ج ٥ / ص ٢٣٢ .

(٣) كارل بروكلمان تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٣٥٢

(٤) المقريزى السلوك ج ١ ق ١ / ص ٤٥

(٥) ابن الاثير الكامل ج ١٠ / ص ٣٦

(٦) د. محمد حلمى مصر والشام والصليبيون ص ١١٧ .

مصر وأنه وجد فيها فقرا شديدا فقرر فتح اليمن بدلا منها (١) .

والحقيقة أن تلك الحملة لم تكن الا لتطهير جنوب مصر من بقايا السوادنيين الثائرين بالصعيد حتى تكون مصر كلها مطمئنة له من البحر الى أقصى حدودها الجنوبية .

أما من ناحية اليمن فقد أراد صلاح الدين ارسال جيشه الى هناك رغبة فى أن يملك طرف البحر الأحمر من الجنوب كما ملك ثغر أيلة على رأسه من الشمال ليمنع الخطر الذى كان فى ذلك الوقت يهدد البلاد المقدسة من الصليبيين (٢) لذا توجه اليها تورا نشاه سنة ٥٦٩هـ/١١٧٤م وفتحها وقضى على الشيعة بها (٣) .

وظلت العلاقات حسنة بين صلاح الدين ونور الدين محمود إلى أن توفى نور الدين سنة ٥٦٩هـ/١١٧٤م (٤) فأخذ صلاح الدين على عاتقه مهمة إتمام بناء الجبهة الإسلامية للقضاء على الصليبيين ، على أن الجو لم يكن مهيأ تماماً لإتمام مهمته إذ تولى الملك الصالح إسماعيل الحكم فى المملكة النورية الشاملة لدمشق وحلب عقب وفاة والده ، ولم يكن يبلغ من العمر حينذاك إلا الحادية عشرة(٥) فأصبحت السلطة الفعلية فى يد أمراء أبيه الذين اتفقوا على عزل صلاح الدين فى مصر حتى لا يرنو ببصره نحو الشام ، لكنهم اختلفوا فيما بينهم وانقسموا ، إذ بادر سيف الدين غازى ابن أخى نور الدين إلى الاستقلال بما يليه من البلاد وأعلن نفسه أميراً على الجزيرة وبقيت دمشق فى يد الملك الصالح وإن كانت فى الحقيقة فى يد شمس الدين بن المقدم الذى استولى على الملك الصالح باسم الوصاية ، وظلت حلب فى يد شمس الدين على بن الداية أكبر الأمراء النورية (٦) .

وبذلك توزعت دولة نور الدين محمود إلى ثلاث دويلات تركز كل منها حول واحدة من المدن الرئيسية الموصل وحلب ودمشق ، وأصبحت مصر بحكم هذا الوضع معزولة عن بلاد الشام وتحولت

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ / ص ٤٥ .

(٢) محمد فريد : صلاح الدين الأيوبى ص ٨٢

(٣) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٤٦ .

(٤) الذهبى : العبر ج ٣ / ص ٥٥ .

(٥) ابن خلدون : العبر ج ٥ / ص ٢٩٧ .

(٦) العماد الاصفهانى : سنا البرق الشامى ص ٧٣ – ٧٤ ، ابن خلدون : العبر ج ٥ / ص ٢٩٧ .

الجبهة الموحدة بالشام إلى حالة يرثى لها من التفرقة والانقسام (١) فانتهز الإفرنج الفرصة وهجموا على بانياس واستطاعوا استعادتها من المسلمين ولم يستطع شمس الدين بن المقدم صدّ هجماتهم فصالحهم على مال يعطيه لهم وأسرى يطلقهم ممن كانوا فى دمشق منذ حروب نور الدين (٢) فلما علم صلاح الدين بذلك ثار وغضب وكتب إليهم يقول : « لو أن نور الدين علم أن فيكم من يقوم مقامى أو يثق به مثل ثقته بى لسلم إليه مصر التى هى أعظم ممالكه وولاياته ، ولو لم يعجل عليه الموت لم يعهد إلى أحد بتربية ولده والقيام بخدمته غيرى ، وأراكم قد تفردتم بمولادى وابن مولاى دونى ، وسوف أصل إلى خدمته وأجازى إنعام والده بخدمه يظهر أثرها وأقابل كلا منكم على سوء صنيعه فى ترك الذب عن بلاده » (٣) .

ثم قرر صلاح الدين أن يبادر إلى حسم الأمور ، فاعترضه أمران الأول وصول أسطول ملك صقلية سنة ٥٧٠هـ/١١٧٥م ، وهجومه على الإسكندرية ، ويرجع السبب فى ذلك إلى مكاتبة عمارة اليمنى وأعوانه لهم ، على أن الصليبين رأوا فى شجاعة أهل الإسكندرية ما أفزعهم وتدفقت عليهم الإمدادات من قبل صلاح الدين حتى تحقق النصر الباهر (٤) فعادوا إلى بلادهم مدحورين بعد أن استولى المسلمون على أعداد كبيرة من آلاتهم وأسلحتهم (٥) .

والأمر الثانى حركة كنز الدولة ، وهو أحد قادة الفاطميين نزح إلى أسوان وأقام بها والتف حوله السودانيون وجماعة على المذهب الاسماعيلى فأوهمهم أنه يستطيع إعادة الدولة الفاطمية ثم توجه بهم إلى قوص وأعمالها فجهز إليه صلاح الدين أخاه الملك العادل فى جيش كبير فحلّت الهزيمة به وبشيعته وقضى بذلك على آخر محاولات الفاطميين فلم تقم لهم بعدها قائمة (٦) .

وبعد أن فرغ صلاح الدين من أمر مصر وتثبيت قواعد دولته فيها شرع يفكر فى المسير للشام

---

(١) د . محمد حلمى : مصر والشام والصليبيون ص ١٢٢ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ / ص ٧ .

(٣) المصدر السابق .

(٤) العماد الأصفهانى : سنا البرق الشامى ص ٧٧ - ٧٩ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ / ص ١١ - ١٦ .

(٥) ابن خلدون . العبر ج ٥ / ص ٢٣٧ .

(٦) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٤٧ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ / ص ١٦ .

وواتته الفرصة عندما كتب إليه نائب السلطان بدمشق يدعوه إلى التقدم نحوها ليتسلمها بعد أن أدرك أن صموده أمام الفرنجة سيضر بموقفه وبموقف دمشق واستجاب صلاح الدين لهذه الدعوة (١) .

وسار صلاح الدين حتى وصل بصرى وقابله أميرها بالترحاب والتكريم ، وبعدها رحل إلى دمشق فخرج إليه أهلها وعسكرها ورحبوا به وأعلن أنه إنما جاء فى خدمة الملك الصالح ونصرته وسلمت له القلعة بدمشق (٢) .

بعد أن انتهى صلاح الدين من دمشق أقام فيها قليلاً يصلح ما فسد فيها ويرتب شئونها ثم سلمها إلى أخيه سيف الإسلام طغتكين (٣) ثم سار إلى الشام نحو حمص وحماه وهو يعلن أنه إنما جاء لنصرة الملك الصالح ليمنع عنه جور ابن عمه سيف الدين غازى من جهة واستبداد أمرائه من جهة أخرى ، واعتداء الفرنج على بلاده من جهة ثالثة ، ثم قام بفتح مدينة حمص دون قلعتها فترك من يحاصرها ويحمى المدينة (٤) ثم سار إلى حماة وكان الوالى عليها عز الدين جورديك فأخبره صلاح الدين أنه فى طاعة الملك الصالح إسماعيل وإنما جاء لحفظ البلاد من الفرنج ، واسترداد ما أخذه سيف الدين صاحب الموصل من البلاد فى الجزيرة فاقتنع والى حماة وسلمها له (٥) ، وقبل أن يكون رسولاً لصلاح الدين إلى سعد الدين كمشتكين الذى اغتصب ولاية حلب من حاكمها الأصلى شمس الدين بن الداية وأودعه وأولاده السجن ثم انحاز إلى الإفرنج ليتقوى بهم (٦) .

وفى جمادى الأولى سنة ٥٧٠هـ/ ١١٧٥م سار صلاح الدين إلى حلب بعد رفض الصالح اسماعيل ومن معه الصلح واشتبك معهم لكنهم استماتوا فى القتال وأرسلوا يطلبون مساعدة الفرنج الذين انتهزوا الفرصة واتجهوا نحو حمص (٧) فاضطر صلاح الدين إلى رفع الحصار عن حلب وعاد ليقاتل الفرنج لكنهم تركوا حمص ولم يخاطروا بمحاربته عندما رأوه يتحرك ضدهم ، أما هو فاغتنم

---

(١) د . محمد حلمى : مصر والشام والصليبيون ص ١٢٥

(٢) ابن خلدون : العبر ج ٥ / ص ٣٣٨

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ / ص ١٩ .

(٤) ابن خلدون : العبر ج ٥ / ص ٣٣٩ .

(٥) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ / ص ٢٩ .

(٦) ابن خلدون : العبر ج ٥ / ص ٣٣٩ .

(٧) القريزى : السلوك ج ١ ق ١ / ص ٥١ .

الفرصة (١) كي لا يجعل من ورائه قلعة تهدد ظهره فاستولى على قلعة حمص التي كانت إلى ذلك الحين تقاومة ثم استولى كذلك على بعلبك (٢) .

وقدم سيف الدين غازى صاحب الموصل إلى الشام بجيوش متحالفة من الجزيرة العراقية لمساعدة أصحاب حلب ، فقد كان يخشى أن يقوى ملك صلاح الدين ويصبح خطراً على استقلاله في الجزيرة ، واتجه الجميع نحو حماه التي ذهب صلاح الدين إليها استعداداً للقاء ودارت معركة عنيفة انهزمت فيها الجيوش المتحالفة عند « قرون حماة » وكان من نتائج هذا النصر الباهر أن أمر صلاح الدين بقطع الخطبة للصالح وإزالة اسمه من السكة في بلاده (٣) .

ثم عاد إلى حلب فحاصرها حتى اشتد الأمر على من بها ففاوضوه في الصلح على أن يبقى كل من الجانبين ما في يده من البلاد وبهذا أصبح ملك صلاح الدين ممتدا من مصر إلى حماة (٤) .

لم تمض إلا أيام قليلة على عقد هذا الصلح حتى قدمت الرسل من جهة الخليفة بالتشريفات السلطانية والأعلام السود وتوقيع بسلطة بلاد مصر والشام وغيرها (٥) فسار ونزل على حصن بعرين وفتحه ثم رجع الى حماة ومنها إلى دمشق (٦) .

غير أن الصلح بين الجانبين لم يدم طويلاً إذ جمع سيف الدين غازى جيشاً جيداً ضخماً من بلاد الجزيرة وتقدم لحرب صلاح الدين مرة أخرى وكان اللقاء قرب حلب عند « تل السلطان » (٧) فهزمت قوات سيف الدين وهرب عائداً في ذعر وهلع إلى الموصل ، وتبع صلاح الدين المنهزمين إلى حلب وأرسل بعوثه إلى الحصون المجاورة مثل منبج وإعزاز ففتحهما وأصبحت حلب معزولة وسط أملاكه ، ورأى من بها ضعفهم وقلتهم فتفاوضوا [illegible] ، وكان رسول القوم إليه ابنة نور الدين محمود التي لم يتجاوز سنها عندئذ العاشرة من عمرها ، فترك حلب ، ونزل لهم عن « إعزاز »

(١) المصدر السابق
(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب ج ٢ / ص ٣٠
(٣) المصدر السابق
(٤) المقريزى السلوك ج ١ ق ١ / ص ٥٩
(٥) المصدر السابق / ص ٥٩ - ٦٠
(٦) ابن واصل مفرج الكروب ج ٢ / ص ٣٤
(٧) المصدر السابق : ص ٣٦ - ٣٩

إكراماً لابنة نور الدين (١) .

وكان أول عمل اهتم به صلاح الدين بعد الصلح محاولته القضاء على الاسماعلية الذين حاولوا قتله ، وكان لهم قلاع بالشام فذهب إليها ونهب عسكره منها غنائم كثيرة ولم يرجع عنها إلا بعد شفاعة خاله شهاب الدين الحارمى (٢) .

ثم بدأ صلاح الدين أول حلقة من سلسلة مواقعه ضد الفرنج لرد الصليبيين عن مهاجمة أملاكه فى مصر والشام وتأمينها فسار إلى عسقلان سنة ٥٧٢هـ/١١٧٠م فأسر كثيراً من الفرنج وأخذوا الغنائم ثم اتجهوا إلى الرملة فاقبل عليهم الأعداء وقد تفرقت سرايا المسلمين ولم تتوخ الحذر فهزمت قوات صلاح الدين فى ذلك اليوم (٣) .

ويبدو أن انتصار الفرنج فى الرملة شجعهم على مهاجمة المسلمين فى الشام فساروا إلى حماة ، وكان صاحبها شهاب الدين الحارمى خال صلاح الدين فانهزموا شر هزيمة (٤) وعندما ساروا إلى قلعة حارم بقرب حلب هزموا أيضا ، ولم يستطيعوا استردادها (٥) .

وكان صلاح الدين قد عاد إلى مصر بعد هزيمته فى الرملة ليصلح ما أفسدته تلك الهزيمة (٦) ثم عاد إلى الشام لمنازلة الفرنج حيث رجحت كفة المسلمين فهزموا أعداءهم غير مرة حينما أغاروا على أعمال دمشق (٧) ولذا قرر صلاح الدين ضرب العدو فى عقر داره وكما يقول ابن واصل استقر رأى السلطان ومن معه من المسلمين على اقتحام أرض العدو فاتجه فى الثانى من المحرم سنة ٥٧٥هـ/١١٧٩م وهاجم الصليبيين فى مرج عيون صوب البقاع فانتصر انتصاراً ساحقاً وأوقع عدداً كبيراً من رجالهم فى الأسر ، وأطلق ألف أسير من المسلمين من بينهم الفقيه ضياء الدين عيسى

---

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٥٢ .

(٢) ابن خلدون . العبر ص ٢٤٠

(٣) ابن واصل · مفرج الكروب ج ٢ / ص ٥٨

(٤) المصدر السابق · ص ٦٤ .

(٥) المقريزى : السلوك ج ١ ق ١ / ص ٦٥

(٦) ابن شداد . النوادر السلطانية ص ٥٤ .

(٧) ابن خلدون : العبر ج ٥ / ص ٣٤٣

الهكارى (١) ، ولم ينس صلاح الدين الحصن الذى أقامه الصليبيون عند بيت يعقوب عليه السلام سنة ٥٧٤هـ/ ١١٧٨م على مسافة يوم من دمشق ونصف يوم من صفد وطبريه (٢) وكانت حامية الحصن تتحكم فى طريق القوافل ؛ بل إنهم منعوا مرور قوافل المسلمين ، وسار صلاح الدين نحو هذا الحصن الذى كان يسمى مخاضة الأحزان (٣) ، وفى سنة ٥٧٥هـ/١١٧٩م حاصر الحصن ثم جاء النقابون فنقبوا السور وألقوا فيه النار فسقط وملك المسلمون الحصن وأسروا كل من فيه ، وأطلقوا من كان فيه من أسرى المسلمين وأمر صلاح الدين بتدمير الحصن حتى ألحقه بالأرض (٤) .

بعد هذه المعارك المحدودة بين صلاح الدين والصليبيين لم يظهر أمراء حلب والموصل من الاستعداد ما يدل على أنهم سوف يساعدونه فى القتال ضد الصليبيين فقرر صلاح الدين أن يتخذ الموقف الملائم كى يضمن انضمامهم إليه ، وعاد إلى مصر يوم الإثنين الثامن عشر من رجب سنة ٥٧٦هـ/ ١١٨٠م وأناب عنه بالشام ابن أخيه عز الدين فرخشاه صاحب بعلبك (٥) ويبدو أنه أراد أن يستعد للمرحلة القادمة التى سوف يقوم بها من أجل بناء الجبهة الاسلامية الموحدة .

تأمين الحجاز فى نطاق بناء الجبهة الإسلامية الموحدة :

لم يكد صلاح الدين يستقر بمصر فى سنة ٥٧٧هـ/١١٨١م حتى قام أرناط صاحب الكرك وهو من أشد الصليبيين عداوة للمسلمين بمحاولة لضرب الاسلام فى أقدس مقدساته ، وإرهاب المسلمين (٦) فجمع عساكره وعزم على المسير إلى تيماء (٧) والتوجه منها إلى المدينة المنورة للاستيلاء عليها (٨) ،

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ / ص ٨٠ – ٨٢ .

(٢) المصدر السابق ص ٧٢ .

(٣) ابن خلدون العبر ج ٥ / ص ٣٤٣ .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ / ص ٨٠ – ٨٢ .

(٥) المصدر السابق ص ١٠١ .

(٦) ألبير شاندور : صلاح الدين الأيوبى ص ١٦٠ .

(٧) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ / ص ١٠١ .

(٨) ابن الأثر : الكامل فى التاريخ ج ١٠ / ص ١٠٥ .

ولما علم بذلك عز الدين فرخشاه نائب صلاح الدين بالشام (١) انطلق بالعساكر الدمشقية إلى الكرك وهاجمها وأخذ ينهب ويخرب وظل مرابطاً تجاه القوات الصليبية ، ولما أدرك أرناط إصرار المسلمين على البقاء حتى يتفرق جمعه رجع عن عزمه (٢) لحماية إمارته ، وأثناء عودته استولى على قافلة للحجاج كانت متجهة من دمشق جنوباً فى طريقها إلى مكة ، ذلك أن هذه القافلة لم تتردد فى عبور الأراضى الخاضعة للفرنج ثقة منهم بالهدنة المعقودة بين بلدوين الرابع وصلاح الدين ، لكن أرناط خان التعهد وأسر الحجاج وأخذهم إلى حصنه فى الكرك ، واستولى على أموالهم والأضاحى المخصصة للكعبة (٣) ووجه صلاح الدين احتجاجاً شديداً إلى ملك القدس طالباً منه إطلاق سراح الدمشقيين وإعادة القافلة وحمولتها والسجاد والذهب وخمسة وعشرين قنطاراً من الشموع المنهوبة فأرسل الملك إلى أرناط يأمره أن يعيد كل ما أخذ لكنه أبى ولم يصدع بالأمر (٤) وحدث آنذاك أن قذفت الأمواج على الشاطئ المصرى مركباً كبيراً قادماً من أبولية (٥) على متنه ألفان وخمسمائة راكب من الفرنج كانوا فى طريقهم لزيارة القدس فألقتهم الريح على ثغر دمياط فغرق عدد كبير منهم وأسر الباقون ، وكان عدة من أسر ألفاً وستمائة وتسعين نفساً (٦) رداً على أسر أرناط لحجاج المسلمين .

وفى سنة ٥٧٨هـ/ ١١٨٢م فكر أمير الكرك أرناط فى مهاجمة مكة والمدينة مرة أخرى ، ولما كان قد فشل فى عبور الصحراء ومهاجمة المدينة فى المرة الأولى ، عزم هذه المرة على مداهمة الأماكن الإسلامية المقدسة بحراً عبر الساحل الغربى بوضعه أسطولاً فى البحر الأحمر (٧) على طريقة

---

(١) ابن واصل · مفرج الكروب ج ٢ / ص ١٠١ .

(٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج ١٠ / ص ١٠٥

(٣) البير شاندور : صلاح الدين الأيوبى ص ١٦١

(٤) المصدر السابق .

(٥) المصدر السابق .

(٦) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ / ص ١١٤ ، العماد الاصفهاني · سنا البرق ص ١٩٤ .

(٧) البير شاندور : صلاح الدين الأيوبى ص ١٦٤

القراصنة كما وصفه أحد المؤرخين الغربيين بقوله : « إن الأفاق الذى سبق له أن قام بمسيرات كبرى على صهوات الخيل فى كيليكية وما بين النهرين وفلسطين وسهوب ، وادى عربة لم يتردد فى تحويل فرسانه إلى قراصنة وحملهم على مهاجمة السفن الإسلامية الماخرة عباب الأحمر معرقلين تجارتها ، قاطعين طريق الحج بين إفريقية وآسيا »(١) .

والحقيقة أن استيلاء صلاح الدين على أيلة كان يمكنه من تهديد الشوبك والأراضى الصليبية فى وادى عربة ، ولما كان من الصعب على الصليبيين الاحتفاظ بأيلة دون السيطرة على جزيرة القلعة «جزيرة فرعون» المواجهة لها فى خليج العقبة فكر أرناط فى الاستيلاء على هذه الجزيرة ضمن خطته(٢) التى بدأها ببناء خمس سفن كبرى للنقل ومراكب خفيفة وسريعة حملت أجزاؤها على ظهور الجمال إلى شواطئ البحر الأحمر وهناك جمعت وشحنت بالذخائر والمؤن والرجال ، وبعد أن سلحت بدأت أعمالها (٣) وسارت بقية السفن نحو عيذاب فقتلوا وأسروا كثيراً من المسلمين ، وأحرقوا فى بحر القلزم نحو ست عشرة مركباً ، وأخذوا بعيذاب مركباً يأتى بالحجاج من جدة وأخذوا فى الأسر قافلة كبيرة من الحجاج فيما بين قوص وعيذاب وقتلوا الجميع ، وأخذوا مركبين فيهما بضائع جاءت من اليمن وأخذوا أطعمة كثيرة من الساحل كانت معدة لميرة الحرمين (٤) ثم توجهوا إلى سواحل الحجاز وأغاروا عليها (٥) فعظم البلاء وأعضل الداء (٦) وأشرف أهل المدينة منهم على خطر كبير (٧) إذ لم يكن

---

(١) د . سعيد عاشور : الناصر صلاح الدين ص ١٦٦ .

(٢) ألبير شاندور : صلاح الدين الأيوبى ص ١٦٤ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ / ص ١٢٧ .

(٤) المقريزى . السلوك : ج ١ ق ١ / ص ٧٩ .

(٥) ابن خلدون : العبر ج ٥ / ص ٣٤٩ .

(٦) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ / ص ١٢٧ .

(٧) العماد الأصفهانى : سنا البرق الشامى ص ٢١٣ .

بينهم وبين المدينة أكثر من مسيرة يوم واحد (١) وكان صلاح الدين منشغلاً بحصار مدينة الموصل (٢) .

وحينما علم صلاح الدين بذلك أصدر أوامره إلى أخيه العادل كي يسرع بحماية الحرمين الشريفين فأمر العادل بأن تفكك فوراً السفن المائتان التى كانت تحمى مدخل ميناء دمياط وأن تنقل براً إلى القلزم (البحر الأحمر) حيث أعيد تركيبها وتسليحها ووضعت فى البحر وجمع فى الوقت ذاته بحارة شديدى البأس بالغى الشجاعة بقيادة حسام الدين لؤلؤ قائد الأساطيل بالديار المصرية فبدأ بأسطول الفرنج الذى يحاصر أيلة فمزقهم شر ممزق وبعد الانتصار عليهم أقلع يطلب الآخرين ، وانتهى إلى عيذاب فلم يجدهم فعاد إلى رابغ فوجدهم بساحل الحوراء (٣) فأوقع بهم وأطلق الأسرى من التجار ورد عليهم ما أخذ منهم من الأموال والمتاع (٤) ثم نزل إلى البر وسار وراء المنهزمين منهم فحصرهم فى شعب لا ماء فيه فأسرهم جميعا (٥) ، إلا أرناط فقد استطاع الفرار والهرب دون أن يعرف أحد كيف تسنى له ذلك (٦) .

أخذ حسام الدين لؤلؤ الأسرى وقد أهلّ موسم الحج فاقتاد اثنين منهم إلى منى لينحروا بها كما ينحر الهدى جزاء تجرئهم على حرم الله وحرم رسوله (٧) وعاد بالباقين إلى مصر (٨) ولقد وصف ابن جبير وصول هؤلاء الأسرى إلى مصر عندما كان بالإسكندرية فى شهر ذى الحجة سنة ٥٧٨هـ/

---

(١) ابن جبير الرحلة ص ٣٥ .

(٢) العماد الأصفهانى : سنا البرق الشامى ص ٢٠٧ .

(٣) ابن خلدون · العبر ج ٥ / ص ٣٤٩ - ٣٥٠ .

(٤) العماد الأصفهانى : سنا البرق الشامى ص ٢١٣

(٥) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ / ص ١٢٨ - ١٢٩ .

(٦) ألبير شاندور · صلاح الدين الأيوبى ص ١٦٦ .

(٧) ابن واصل · مفرج الكروب ج ٢ / ص ١٢٨ - ١٢٩ .

(٨) ابن خلدون : العبر ج ٥ / ص ٣٥٠ .

١١٨٣م بأنهم « ادخلوا البلد راكبين على الجمال ووجوههم إلى أذنابها وحولهم الطبول والأبواق » [١] .

وقد كتب الملك العادل إلى أخيه صلاح الدين يعرفه ذلك فورد عليه كتابه يأمره بضرب رقاب الأسرى جميعاً ولا يبقى منهم أحداً [٢] نتيجة فعلتهم الشنعاء وحتى يكونوا عبرة لغيرهم من الصليبيين فلا يتجرأ أحد منهم بعد ذلك فى الهجوم على الحرمين الشريفين ، وهكذا استطاع الأيوبيون حماية الحرمين وإعطاء الصليبيين درساً لا ينسى .

ولقد كان تأثير هذه المحاولة على صلاح الدين واضحاً حيث أنها وجهت نظره إلى الخطر الذى يتهدد دولته من ناحية الكرك ووادى عربة وهى المنطقة التى تقع بين شقى دولته فى الشام ومصر فضلاً عن الحجاز [٣] لذا بدأ يتمم عمله فى توحيد جهود المسلمين استعداداً للقاء الكبير مع الصليبيين ، وقد توجت جهوده بملك حلب سنة ٥٧٩هـ/ ١١٨٤م [٤] ، بالاتفاق مع صاحبها عماد الدين زنكى فى مقابل أن يعطيه سنجار ويكون تابعاً له فيها فأعطاها له وزاده الخابور ونصيبين والرقة وسروج [٥] وبذلك أصبح صلاح الدين آمناً على حدوده الشمالية وصار عماد الدين حاكماً على غرب بلاد الجزيرة وهى بلاد يسهل فتحها على يد صلاح الدين إذا خرجوا عن طاعته ولم يجد بعد ذلك صعوبة فى أخذ سائر القلاع الشمالية من الشام مثل حارم وكان يقنع من أصحابها الأمراء المسلمين بالخضوع بشرط أن يكونوا هم وعسكرهم مع المسلمين إذا دعاهم للجهاد [٦] وفى سنة ٥٨١هـ/١١٨٥م أعاد صلاح الدين الحصار على مدينة الموصل للاستيلاء عليها وترددت الرسل بينه وبين عز الدين مسعود صاحب الموصل

---

(١) ابن جبير . الرحلة ص ٣٤ .

(٢) ابن واصل . مفرج الكروب ج ٢ / ص ١٢٨ .

(٣) د . سعيد عاشور : الناصر صلاح الدين ص ١٧٠ .

(٤) ابن واصل . مفرج الكروب ج ٢ / ص ١٤١ .

(٥) العماد الأصفهانى . سنا البرق الشامى ص ٢٢٦ .

(٦) محمد فريد . صلاح الدين ص ١٢٠ .

الذى قبل أن يكون تابعاً لصلاح الدين ويخطب له على منابر بلاده ويضرب السكة باسمه وينزل له عن كل ماوراء نهر الزاب من بلاد الجزيرة وأن يكون طوع أمره إذا ندبه لقتال الصليبيين (١) .

وهكذا تحقق على يد صلاح الدين ما سعى إلى تحقيقه عماد الدين زنكى وابنه نور الدين محمود من أجل بناء الجبهة الإسلامية الموحدة لمواجهة الصليبيين والقضاء عليهم .

صلاح الدين والتصدى للصليبيين :

لم يكد صلاح الدين ينتهى من توحيد القوى الإسلامية تحت قيادته حتى أصبح مستعداً للقيام بهجوم شامل ضد الصليبيين بعد أن كان يكتفى بأن يكيل لهم الضربات ويمنعهم من الاعتداء على المسلمين أثناء قيامه ببناء الجبهة الموحدة ، ولم يبق إلا أن تسنح له الفرصة الملائمة كى يضرب ضربته، وسنحت له الفرصة فعلا حين عمد أرناط صاحب الكرك والمعروف بغدره وخيانته إلى نقض الهدنة المعقودة بينه وبين صلاح الدين (٢) .

ففى سنة ٥٨٢هـ/١١٨٦م تعرض لقافلة كثيرة الأموال والرجال مرت بأرضه وهى فى طريقها من مصر إلى الشام (٣) ومعهم جماعة من الجند لحمايتها فغدر بهم وأسرهم وأخذهم إلى الكرك واستولى على أموالهم ودوابهم وسلاحهم وأودع السجون من أسر منهم (٤) فأرسل إليه صلاح الدين يستنكر هذا العمل ويقبحه ويطلب إليه أن يرد ما أستولى عليه من المسلمين ويطلق سراح الأسرى فامتنع وأصرّ على عصيانه فنذر السلطان صلاح الدين دمه وأعطى الله عهداً إن ظفر

---

(١) العماد الأصفهانى : سنا البرق ص ٢٦٨ .

(٢) المصدر السابق ٢٨٩ .

(٣) ألبير شاندور . صلاح الدين الأيوبى ص ١٩٥ .

(٤) ابن الأثير الكامل ج ١٠ / ص ١٤٢ ، المقريزى . السلوك ج ١ ق ١ / ص ٩٢ .

به أن يقتله (١) .

ونتيجة لذلك كتب صلاح الدين إلى جميع البلاد يستنفر المسلمين للجهاد ويحثهم عليه ويأمرهم بالتجهز قدوم الحاج خوفاً عليهم من عذر أرناط صاحب الكرك له بكل ما يستطيعون ، ثم خرج من دمشق أواخر المحرم سنة ٥٨٣ هـ وتوجه إلى بصرى منتظراً قدوم الحاج خوفاً عليهم من غدر أرناط صاحب الكرك الذى كان ينوى الإيقاع بهم (٢) فلما وصل الحجاج سالمين سار إلى الكرك ونازلها وقطع ما حولها من الشجر وأفسد زروعها وكرومها ، ثم سار إلى الشوبك وفعل بها مثل ذلك ، وصاحب الكرك محاصر لا يستطيع أن يفعل شيئاً (٣) خاصة وأن صلاح الدين قد مكن لنفسه وأرسل قوة كبيرة من جيشه بقيادة مظفر الدين كو كبرى وبعض كبار الأمراء لكى ينشغل فرسان الهيئتين اللتين تأسستا لمساعدة الصليبيين فى الشرق وهما الداوية والاسبتاريه عن مساعدة الكرك ، وقد نجح فى تحقيق غرضه بعد أن انتصر المسلمون فى عكا عند صفورية وهلك عدد كبير من فرسان الفرنج المشهورين منهم مقدم الاسبتارية (٤) ووقع فى الأسر جماعة أخرى وعاد المسلمون فرحين مستبشرين بهذا النصر الكبير الذى يعد مقدمة فتوح صلاح الدين (٥) .

لما أتت صلاح الدين البشارة بانتصار المسلمين على الاستبارية والداوية وقتل وأسر عدد كبير منهم ترك الكرك وعاد إلى العسكر الذى مع ولده الملك الأفضل ، وقد تلاحقت سائر الأمراء والعساكر واجتمع بهم وساروا جميعاً فنزلوا بالأقحوانة بالقرب من طبرية وقد بلغت عدتهم اثنى عشر ألف فارس سوى المتطوعين فعبأ جيشه ونظمه وقسمه وعرف كل منهم موضعه وموقفه وأمره بملازمته (٦) وأقام

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ / ص ١٨٥ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ / ص ١٤٣ .

(٣) الأصفهانى : سنا البرق الشامى ص ٢٩٢ .

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ / ص ١٤٤ .

(٥) الأصفهانى : سنا البرق الشامى ص ٢٩٢ .

(٦) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ / ص ١٤٤ .

صلاح الدين بهذا المكان لمدة خمسة أيام (١) ثم رحل من الأقحوانة ونزل غربى طبرية على سفح الجبل فى يوم الأربعاء الحادى والعشرين من ربيع الآخر سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م متوقعاً أن الصليبيين إذا بلغهم ذلك قصدوه (١) فلم يتركوا منزلهم فى صفورية (٢) فنزل على طبرية بعد أن ترك جانباً من الجيش قبالة وجه العدو ونازل طبرية وزحف عليها فلم تلبث أن سقطت فى أيديهم ، وامتدت أيدى المسلمين إليها بالنهب والأسر والحريق والقتل غير أن قلعتها امتنعت عليه (٣) .

ويبدو أن صلاح الدين أراد من هجومه على مدينة طبرية أن يتحرك الجيش الصليبى لمساعدتها فيخرج من أماكنه فيلقاه صلاح الدين فى ميدان مفتوح (٤) وقد نجح صلاح الدين فى ذلك نجاحاً تاماً إذ أكره الفرنجة على التخلى عن المنطقة الغنية بينابيع صفورية الثرية وخضرة مراعيها وحال بينهم وبين بلوغ بحيرة طبرية وحصرهم فى منطقة من الأراضي الملتهبة التى لا يمكنهم معها أن يجدوا أى مصدر للمياه (٥) .

إذ عندما وصل إلى الصليبيين نبأ استيلاء صلاح الدين على طبرية انقسموا إلى رأيين فكان رأى البعض وعلى رأسهم القمص ديموند أن يظلوا حيث هم فى صفورية حيث يكون صلاح الدين هو البادئ بالهجوم عليهم فيقطع المسافة بين طبرية وصفورية فى صحراء جرداء فتصل قواته وقد انهكها التعب فينقضون عليه إلا أن أصحاب الرأى الآخر وعلى رأسهم أرناط صاحب الكرك أبوا إلا أن يكونوا هم المهاجمين وأن يباغتوا صلاح الدين عند طبرية قبل أن يستكمل استعداداته وتصل إليه الإمدادات(٦).

---

(١) العماد الأصفهانى : سنا البرق الشامى ص ٢٩٣ .

(٢) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٧٦ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ / ص ١٤٥ .

(٤) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٧٦ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ / ص ١٨٨ .

(٥) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ / ص ١٤٦ .

(٦) البير شاندور : صلاح الدين الأيوبى ص ٢٠٦

وبدأوا يتحركون لنجدة طبرية ولقاء جيش صلاح الدين الذى سرّ بذلك لنجاح خطته (١) فعاد مسرعاً عن طبرية وأعدّ جنده وجعلهم على الماء وأفنى ما أمامه من الصهاريج وكان الوقت صيفاً شديد الحرارة فلما أقبلت جنود الأعداء لم يستطيعوا بلوغ الماء الذى استولى عليه المسلمون ولم يجدوا فى الصهاريج التى أمامهم ماء بعد أن خربها صلاح الدين فاشتد بهم الظمأ والعطش ولم يستطيعوا الرجوع من حيث أتوا خوفاً من جيش المسلمين فكان هذا انتصاراً لصلاح الدين قبل أن يضرب ضربة واحدة ووثق المسلمون بالنصر قبل اللقاء فباتوا الليلة فى تكبير وتهليل (٢) .

وأصبحوا يوم السبت الخامس والعشرين من ربيع الآخر سنة ٥٨٣ هـ/١١٨٧م وقد اشتد بهم العطش وفرغ ما معهم من الماء فأخذتهم سهام المسلمين وكثرت فيهم الجراح واشتد عليهم الحر وصار كلما حملوا على المسلمين ليتيسر لهم ورود الماء صدوا وردوا واستولى عليهم الأسر والقتل فلجأوا إلى جبل حطين ليحميهم من الهلاك (٣) وصار الجيش الصليبى محاصراً تحدق به القوى الإسلامية وتحكم حوله الطوق شيئاً فشيئاً ، ولم يكن صلاح الدين قد زج بكل قواته لأنه احتفظ بقوى احتياطية للعملية الكبرى بعدما يستنزف الظمأ طاقة عدوه (٤) .

وتريث صلاح الدين لبدء هجومه العام حتى هبت ريح حارة من طبرية فأتاحت لقواته أن يحرقوا ما غطى الأرض من الأشواك ويابس الأعشاب واشتعلت النيران وأحاطت بالأعداء وزادت من خطورة موقفهم (٥) ثم بدأ الهجوم الكبير واشتد القتال من سائر الجهات وأوقع المسلمون بجنود الأعداء وألقوا خيمة الملك واستولوا على صليبهم الأعظم ، وقتلوا منهم الكثير بحيث لم ينج أحد منهم إلا بالوقوع فى الأسر وعندئذ ترجل صلاح الدين عن جواده وسجد شكراً لله على ما أحرزه من النصر (٦) وكان فيمن وقع فى الأسر منهم الملك جِي وأرناط صاحب الكرك وابن صاحب طبرية ، وصاحب جبيل ، ومقدم

---

(١) الأصفهانى : سنا البرق الشامى ص ٢٩٤ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٠/ ص١٤٦ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ / ص ١٩٠ .

(٤) الأصفهانى : سنا البرق الشامى ص ٢٩٦ .

(٥) البير شاندور : صلاح الدين الأيوبى ص ٢٠٧ .

(٦) ابن الأثير : سنا البرق الشامى ص ٢٩٦

الداوية وغيرهم من كبار القادة ، أما القومص ريموند فقد استطاع الهرب الى طرابلس حيث مرض وأهلكه الله (١) .

لما فرغ المسلمون من القتال أقيمت للسلطان صلاح الدين خيمة نزل فيها ثم أمر بإحضار ملك بيت المقدس وصاحب الكرك أرناط فأجلسهما بداخل خيمته وقد أخذ العطش من الملك كل مأخذ ، فطلب ماء فأحضر له الماء المثلج ، فشرب منه وناول بعضه لصاحب الكرك ، فقال السلطان للترجمان : قل للملك أنت الذى سقيته أما أنا فلا (٢) إن هذا الملعون لم يشرب الماء بإذنى فينال أمانى (٣) ثم قام وأنبه على سوء صنعه مع قافلة المسلمين وتطاوله على مقام النبوة حين قال لهم : « قولوا لمحمد يخلصكم »(٤) وقال له السلطان ها أنذا انتصر لمحمد – صلى الله عليه وسلم – ثم عرض عليه الإسلام فلم يقبل (٥) فقام صلاح الدين وضرب عنقه بيده تنفيذاً لوعده وبرأ بيمينه (٦) فلما قتله وسحب وأخرج ارتعدت فرائص الملك (٧) وظن أنه كرفيقه هالك (٨) فأحضره السلطان وطيب خاطره ، وهدأ من روعه وقال له : لم تجر عادة الملوك أن يقتلوا الملوك ، وأما هذا فإنه تجاوز حده فجرى عليه ما جرى (٩) ثم أمر به فأرسل إلى دمشق هو وبقية الأسرى (١٠) ثم توجه السلطان إلى طبرية ، ونازلها فأرسلت صاحبتها زوجة القمص ريموند تطلب الأمان لها ولأولادها وأصحابها ومالها فأجابها إلى ذلك وأمنها هى ومن معها فسلمت الحصن بما فيه (١١) وخرجت بمالها إلى طرابلس بلد زوجها وولى السلطان طبرية لصارم

---

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٧٧ .

(٢) المصدر السابق ص ٧٨ .

(٣) ابن الأثير · الكامل ج ١٠ / ص ١٤٨ .

(٤) ابن واصل . مفرج الكروب ج ٢ / ص ١٩٤ .

(٥) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٧٨ .

(٦) العماد الأصفهانى . سنا البرق الشامى ص ٢٩٧ .

(٧) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ / ص ١٤٨ .

(٨) العماد الأصفهانى · سنا البرق الشامى ص ٢٩٧ .

(٩) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٩٧ .

(١٠) العماد الأصفهانى : سنا البرق الشامى ص ٢٩٧ .

(١١) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ / ص ١٤٩

الدين قايماز النجمى (١)

ولقد وجه صلاح الدين اهتمامه بعد حطين مباشرة إلى الاستيلاء على أكبر عدد من الحصون والمدن الهامة فى أقصر وقت (٢) لذا اتجه مباشرة إلى عكا فوصلها فى ربيع الآخر سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م وخيم بالقرب منها وراء التل ، وفى الصباح وهو يبحث عن موضع للنزال خرج إليه كثير من أهلها يطلبون الأمان فأمنهم على أنفسهم وأموالهم وخيرهم بين الإقامة والرحيل فاختاروا الرحيل فتركهم السلطان ودخل المسلمون المدينة وسلمها صلاح الدين لولده الملك الأفضل (٣) ثم أرسل إلى أخيه العادل بمصر يبشره بذلك ، ويأمره أن يتجه إلى بلاد الفرنج من جهة مصر فيمن بقى عنده من العساكر لمحاصرة ما يليه منها فسارع إلى ذلك وسار إلى حصن مجدل يابا فحصره وفتحه وغنم ما فيه (٤) ثم سار إلى يافا وهى على الساحل فحصرها وملكها عنوة (٥) .

وفى أثناء مقام صلاح الدين بعكا أرسل عساكره إلى الناصرة وقيسارية ، وحيفا وصفورية ومعليا والشقيف والفولة والطور وغيرها من البلاد المجاورة لعكا فاستولوا عليها (٦) ثم استولى المسلمون على نابلس (٧) وتبنين وصيدا وجبيل وبيروت (٨) ثم سار السلطان إلى عسقلان لما لها من أهمية بسبب وقوعها على الطريق المؤدى إلى مصر فإذا أخذت أمنت الطريق واتصلت القوافل ، لذا أسرع لاستردادها وفى الطريق إليها استولى على الرملة وبيت لحم والخليل (٩) ثم اجتمع بأخيه الملك العادل الذى جاء بالعساكر المصرية وتم حصار المدينة لمدة أربعة عشر يوماً أرسل أصحابها إلى صلاح الدين يطلبون تسليم البلد على شروط اقترحوها فأجابهم صلاح الدين إليها وسيرهم ونساءهم وأموالهم

---

(١) ابن واصل . مفرج الكروب ج ٢ / ص ١٩٠

(٢) د . الباز العرينى . مصر فى عصر الأيوبيين ص ٨٥ .

(٣) ابن واصل . مفرج الكروب ج ٢ / ص ٢٠١ .

(٤) ابن الأثير . الكامل ج ١٠ / ص ١٥٠

(٥) المقريزى . السلوك ج ١ ق ١ / ص ٩٥ .

(٦) ابن واصل . مفرج الكروب ج ٢ / ص ٢٠٢

(٧) ابن الأثير . الكامل ج ١٠ / ص ١٥٠

(٨) المصدر السابق ص ١٥١ .

(٩) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ / ص ٢٠٩ .

وأولادهم إلى بيت المقدس ووفى لهم بالأمان (١) ثم استولى على حصون الداوية وهى غزة والنظرون وبيت جبريل (٢) وبعد الاستيلاء على عسقلان وما حولها من الجهات توجه صلاح إلى بيت المقدس (٣) وكان باليان الثانى ديبلين آمر القلعة (٤) وكانت مرتبته عندهم تقارب مرتبة الملك فجمع الفرسان بالمدينة وانضم إليهم أهل عسقلان وحشدوا قواتهم من أجل الدفاع عن المدينة (٥) وبقى صلاح الدين خمسة أيام حول المدينة يبحث عن موضع للقتال ثم رأى أن يبدأ القتال من جهة الشمال نحو كنيسة صهيون فنصب المنجنيقات ثم دار قتال شديد بين الطرفين فلما رأى الصليبيون شدة قتال المسلمين وتحكم المنجنيقات فى السور وأنهم أشرفوا على الهلاك ، اجتمعوا وصاروا يتشاورون حتى استقر رأيهم على الأمان وتسليم المدينة (٦) وتم الاتفاق أن يسمح لهم بالخروج من المدينة فى مدة أربعين يوماً بعد دفع الفدية المقررة وقدرها عشرة دنانير للرجل وخمسة للمرأة وديناران للطفل ومن لم يستطع يصبح أسيراً(٧) وتسلم صلاح الدين المدينة يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب سنة ٥٨٣هـ ورتب السلطان فى الجامع الأقصى من يقوم بوظائف الخطبة والامامة ثم حوّل كنيسة صند حنة مدرسة للفقهاء الشافعية ووقف عليها وقوفاً جليله وجعل دار البطرك رباطاً للفقراء (٨) .

ولقد عامل صلاح الدين الصليبيين معاملة حسنة ليعطى للبغاة المعتدين درساً فى السماحة والعدل والعفو عند المقدرة ليعرف أولئك الناس أن الإسلام دين الرحمة والإنسانية فأمر بابقاء المرضى فى المستشفيات التى كان يعالجهم فيها الاسبتاريون وتخلى عن كنيسة القبر المقدس للروم والسريان وأعفى بناء على أمره وأمر أخيه الملك العادل ألفاً وخمسمائة شخص من الفرنجة الفقراء من دفع

---

(١) ابن الأثير . الكامل ج ١٠ / ص ١٥٣ - ١٥٤ .
(٢) المقريزى · السلوك ج ١ ق ١ / ص ٩٦ .
(٣) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٨١ .
(٤) البيرشاندور : صلاح الدين الأيوبى ص ٢٢٩ .
(٥) ابن الأثير · الكامل ج ١٠ / ص ١٥٤ .
(٦) ابن ابن الأثير : الكامل ج ١٠ / ص ١٥٥ - ١٥٦ .
(٧) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٨٢ ، تاريخ ابن أبي الهيجاء لوحة رقم (٢٨٢) .
(٨) ابن واصل · مفرج الكروب ج ٢ / ص ٢٣٠ .

الجند فى المدينة لمنع أى عنف ، وكان يقصد من وراء ذلك منع أى عمل
ر (١) .

وينتهى من الاحتفالات التى أقيمت فرحاً بانتصارات
ـ من حلب بانتصارات المسلمين حتى حشد قواته وما
بكر والموصل وماردين لحصار صور (٢) ، فلما طال
سمي وحل الشتاء تركها صلاح الدين ورحل إلى عكا (٣) .
ـلاح الدين لمنازلة حصون كوكب والشوبك والكرك واستمر
نيت أزواد الصليبيين وذخائرهم وأكلوا دوابهم كما يقول ابن
سن الكرك الذى أرسل أصحابه إلى الملك العادل يطلبون منه
ذلك وتسلم منهم القلعة وأمنهم وتسلم أيضاً ما يقاربه من
توجه السلطان إلى قلعة صفد فحصرها إلى أن طلب أهلها
ى .رابع عشر من شوال سنة ٥٨٤ هـ/ ١١٨٨م (٦) وخرج أهلها
عنها إلى مدينة صور (٧) ثم استولى على حصن كوكب فى منتصف ذى القعدة سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨م(٨)
وبذلك سقطت مملكة بيت المقدس فى يد صلاح الدين ما عدا صور وحصن شقيف أرنون وطرابلس
وحصنان للداوية وحصن للاسبتارية ، و أنطاكية وحصن المرقب (٩) .

ومن مدينة صور نبعت المقاومة واشتدت ضد صلاح الدين ووقفت عائقاً بينه وبين تحرير بقية

---

(١) ألبير شاندور : صلاح الدين الأيوبى ص ٢٢٤ .

(٢) د . الباز العرينى : مصر فى عصر الأيوبيين ص ٨٨

(٣) العماد الأصفهانى : سنا البرق الشامى ص ٣٢٠ - ٣٢١ .

(٤) ابن الأثير . الكامل ج ١٠ / ص ١٧٥ .

(٥) المصدر السابق ص ١٧٦ .

(٦) ابن شداد . النوادر السلطانية ص ٩٥ .

(٧) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ / ص ١٧٦ .

(٨) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٩٥ .

(٩) د . الباز العرينى : مصرفى عصر الأيوبيين ص ٩٠ .

الممتلكات الصليبية القليلة إذ كثر جمع الفرنج بصور كما يصورهم ابن الأثير بقوله : « إن صلاح الدين كان كلما فتح مدينة أو قلعة أعطى أهلها الأمان وسيرهم إليها بأموالهم ونسائهم وأولادهم فاجتمع بها منهم عالم كثير لا يعد ولا يحصى ، ومن الأموال ما لا يفنى على كثرة الإنفاق فى السنين الكثيرة » (١) وخرجت حشود الصليبيين من صور رجالاً ونساء نحو عكا لمحاصرتها أملاً فى استعادتها من صلاح الدين (٢) كما أرسلوا الرسل إلى أوربا بقيادة بطريرك المدينة لاستنهاض همم ملوكها مما أسفر عنه تجهيز الحملة المعروفة باسم الحملة الصليبية الثالثة (٣) ، التى لم تلبث أن وصلت كذلك إلى عكا بقيادة ريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا وفيليب أجسطس ملك فرنسا وانضمت السفن والجند الإنجليزية والفرنسية إلى القوات الصليبية المحاصرة لعكا بقيادة جاى لوزجنان ملك بيت المقدس الصليبية الذى أطلق صلاح الدين سراحه بعد أن أقسم له ألا يقوم بعمل عدائى ضده مدة حياته ، وشددت الحصار على عكا من ناحيتى البر والبحر حتى سقطت فى أيديهم بعد سنتين من حصارها ، وجعلوا منها قاعدة رمزية لمملكة بيت المقدس بعد أن ذهبت مدينة بيت المقدس نفسها إلى المسلمين (٤) .

ثم رحل ملك فرنسا عن الشرق إلى بلاده بعد سقوط عكا على حين بقى ريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا سنة كاملة فى الشام ، وجعل من عكا قاعدة لاستعادة مملكة بيت المقدس فحارب المسلمين مرة أخرى فى أرسوف وهزمهم (٥) وامتلك يافا وحصنها (٦) غير أن أعمال ملك انجلترا لم تغير مجرى الحوادث لأن ما أحدثه صلاح الدين بالصليبيين تطلب مجهوداً شاقاً وكبيراً لا تستطيع حملة أوربية واحدة أن تمحوه فى بضع سنين والدليل على ذلك أن ملك انجلترا عمد إلى فكرة المفاوضة والمصالحة ليصل إلى تسوية مرضية تكفل بقاء الدولة الصليبية بالشام إلى جانب دولة صلاح الدين (٧) وفى الثانى

---

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج ١٠ / ص ١٨٣

(٢) المصدر السابق .

(٣) ألبير شاندور : صلاح الدين الأيوبى ص ٢٥٧ .

(٤) د . العدوى . تاريخ العالم الإسلامى ص ٣١٣ .

(٥) المقريزى : السلوك ج ١ ق ١ / ص ١٠٥ .

(٦) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ / ص ٢١٧ .

(٧) د . العدوى : تاريخ العالم الإسلامى ص ٣١٤ .

والعشرين من شعبان سنة ٥٨٨هـ/١١٩٢م عقد صلح الرملة بين صلاح الدين والصليبيين (١) الذى اتفق فيه الطرفان على أن تبقى المدن الساحلية التى افتتحها الصليبيون بين عكا ويافا بأيديهم وأن يؤذن لفئات الحاج المسيحى بزيارة بيت المقدس من قاعدتها الكبرى فى عكا (٢) .

وبعد جهاد طويل من أجل إعلاء كلمة الدين مرض صلاح الدين إذ غشيته حمى صفراوية اشتدت عليه ولزمته اثنى عشر يوماً وتوفى عقب صلاة الصبح من يوم الإربعاء السابع والعشرين من صفر سنة ٥٨٩هـ/١٩٩٣م (٣) .

الدولة الأيوبية بعد صلاح الدين :

توفى صلاح الدين الأيوبى دون أن يضع نظاماً خاصاً لولاية العهد ونتج عن ذلك قيام النزاع بين أفراد أسرته ، ثم استطاع العادل أخو صلاح الدين أن يخضع لسطانه جميع أبناء البيت الأيوبى ويوحد معظم أملاكهم تحت يده ، وغدا سلطاناً بمفرده على مصر ومعظم أجزاء الشام وضربت السكة باسمه (٤) واحتفظ العادل مدة حكمه بالعلاقات الودية مع الصليبيين ، وعمل على ترويج النشاط التجارى مع الإمارات اللاتينية بالشام والمدن الايطالية ذوات التجارة الواسعة فى الشرق مثل البندقية وجنوة وبيزا ، وأدى هذا التغير فى السياسة العامة للأيوبيين إلى تعديل الخطط التى وضعها صلاح الدين وبذل فى سبيلها الكثير ، إذ فضل السلطان العادل وخلفاؤه من بعده مهادنة الصليبيين بأى ثمن حفظاً لمصر من هجماتهم ، إلا أن هذه السياسة أدت إلى عكس المراد (٥) إذ أدرك الصليبييون بعد انتصارات صلاح الدين أن هذه الانتصارات يرجع إلى إمداد الجيوش الأيوبية بالسلاح والمال من مصر ولذا ينبغى أن يكون الهدف الحقيقى لجهودهم مصر لا الشام وصادف هذا التغير فى خطط الصليبيين دعوة البابا أنوسنت الثالث لإعداد حملة صليبية هى المعروفة بالخامسة فى التقسيمات الصليبية (٦) .

---

(١) ابن شداد . النوادر السلطانية ص ٢٣٣ .

(٢) د . العدوى : تاريخ العالم الإسلامى ص ٣١٤ .

(٣) ابن شداد . النوادر السلطانية ص ٢٤٦ .

(٤) المقريزى . السلوك ج ١ ق ١ / ص ١٥٢ - ١٥٣ .

(٥) د . العدوى . تاريخ العالم الإسلامى ص ٣١٤ .

(٦) د . العدوى : تاريخ العالم الاسلامى ص ٣١٥ .

وجمع جون دى برين john de Brienne ملك بيت المقدس جيشاً كبيراً من الصليبيين وأعلن أن مفتاح أورشليم فى القاهرة دون غيرها وقرروا القيام بحرب صليبية على مصر (١) ودخلت هذه الحملة فرع النيل الشرقى وحاصرت دمياط سنة ٦١٥هـ/ ١٢١٨م (٢) فأسرع السلطان العادل من شمال الشام إلى مصر لدفع هذه الحملة لكنه توفى (٣) فى السابع من جمادى الآخرة سنة ٦١٥ هـ/ ١٢١٨م بالقرب من دمشق (٤) .

وأعقب وفاة العادل انقسام الدولة الأيوبية مرة أخرى فتولى مصر ابنه محمد الملقب بالكامل ووقع على عاتقه عبء الدفاع عن مصر وتنفيذ السياسة التى اتبعها أبوه العادل واستطاع الصليبيون الاستيلاء على دمياط فى هذه الحملة (٥) فأرسل الكامل يطلب الصلح معهم ويقترح أن يسلمهم بيت المقدس وعسقلان وطبرية وصيدا وجبله واللاذقية وجميع ما فتحه صلاح الدين ما عدا الكرك ليسلموا دمياط فرفض الصليبيون هذا العرض السخى اعتقاداً منهم بأن الاستيلاء على مصر صار سهل المنال (٦) فاضطر المسلمون إلى قتالهم وعبر جماعة من المسلمين فى بحر المحلة الى الأرض التى عليها معسكر الفرنج وفتحوا مكاناً عظيماً فى النيل والفيضان بالغ أقصاه ، ولم يدركوا صعوبة السير فى الأراضى المصرية فى تلك الحال لجهلهم أحوال النيل وكثرة الترع وأغرقت الأراضى ولم يلبث الصليبيون أن وجدوا المياه تعزلهم عن قاعدتهم الحربية بدمياط ، فلم يستطيعوا التقهقر وتخطفتهم سهام المسلمين (٧) ولقوا الهزيمة الفادحة فأرسلوا للملك الكامل يطلبون الأمان لأنفسهم والجلاء التام عن الأراضى المصرية فى التاسع عشر من شهر رجب سنة ٦١٨هـ/١٢٢١م وتقررت الهدنة بين الفرنج والمسلمين مدة ثمانى سنوات (٨) وخرجوا من دمياط بلاد قيد ولا شرط بعد أن أقاموا فيها سنة واحدة

---

(١) د . عزيز سوريال عطية : الحروب الصليبية ص ٧٤ .

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ق ١ / ص ١٩٠

(٣) المصدر السابق .

(٤) ابن الأثير . الكامل ج ١٠ / ص ٣٩٣ .

(٥) د . العدوى : تاريخ العالم الإسلامى ص ٣١٦ .

(٦) ابن الأثير · الكامل ج ١٠ / ص ٣٧٩ .

(٧) المقريزى : السلوك ج ١ ق ١ / ص ٢٠٧

(٨) المصدر السابق ص ٢٠٩ .

وعشرة أشهر وأربعة وعشرين يوماً (١) على أن هذا الصلح الذى عقد بين السلطان الكامل والصليبيين لم يحل دون وقوع حرب صليبية أخرى كان على رأسها فردريك الثانى إمبراطور الدولة الألمانية وتعرف هذه الحرب عادة باسم الحرب الصليبية السادسة (٢) وهى تدل على مدى التردى والضعف الذى وصل إليه حكام الدولة الأيوبية إذ أقبل هذا الإمبراطور على رأس حملة قليلة العدد والعدة إلى الشام سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٩م (٣) بعد أن اتصل به الملك الكامل ليضمن مساعدته له فى صراعه ضد أخيه الملك المعظم فى دمشق (٤) وعقدت بينهما معاهدة عدت فى زمنها من أعجب المعاهدات التى عقدت بين المسلمين والمسيحيين عامة فقد نصت شروط المعاهدة على تسليم الكامل بيت المقدس للإمبراطور فردريك باعتباره ملك الدولة الصليبية بعد زواجه من أيزابل ملكة الأرض المقدسة فى كنيسة القيامة بالقدس (٥) وأن يسلم له كذلك بيت لحم والناصرة ، وطريق الحج من بيت المقدس إلى يافا وعكا على أن يبقى للمسلمين منطقة المسجد الأقصى فضلاً عن بعض المدن ، وعهد الإمبراطور فى مقابل ذلك بأن يكون عوناً للسلطان على جميع أعدائه ، وأن يعمل على منع الأمداد الصليبية عن الإمارات اللاتينية بأنطاكية وطرابلس وغيرها وأن يخبر السلطان الكامل بكل ما يصل إلى علمه من حركات صليبية فى أوربا ، ولقد أغضبت هذه المعاهدة المسلمين والمسيحيين على السواء فقال المسلمون إنها جاءت بالهوان والاستسلام ، على حين قال المسيحيون إن الامبراطور فردريك نزل إلى حد المفاوضة مع المسلمين بدلاً من محاربتهم لتخليص الأراضى المقدسة (٦) وأمر البابا بفرض المقاطعة الشاملة على المدينة المقدسة ما دام فردريك مقيماً هناك (٧) ويبدو أن البابا كان يود الحصول على أورشليم عن طريق الغزو وإراقة الدماء فقط (٨) .

---

(١) المصدر السابق

(٢) د . عزيز سوريال عطية . الحروب الصليبية ص ٧٥ .

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ق ١ / ص ٢٣٠ .

(٤) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٣٦٢

(٥) المرجع السابق .

(٦) د . العدوى : تاريخ العالم الإسلامى ص ٣١٧ .

(٧) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٣٦٢

(٨) د . عزيز سوريال عطية : الحروب الصليبية ص ٧٧

ثم حدث أثناء سلطنة الصالح أيوب بن الملك الكامل أن وصلت إلى الشواطئ المصرية حملة صليبية فرنسية بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا المعروف بالقديس (١) واستولت على دمياط سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م دون مقاومة فأسرع السلطان الصالح أيوب من دمشق إلى مصر حين بلغه نبأ استيلاء الصليبيين على دمياط لكنه توفى فى نفس العام بالمنصورة دون أن يقوم بعمل دفاعى لصد الصليبيين(٢) .

وبسبب هذه الوفاة المفاجئة ، وخوفاً من الصليبيين كتم أهل الدولة موته حتى لا تهتز نفوس الجند وقامت أم ولده شجرة الدر بالأمر ريثما يصل ولى العهد المعظم تورانشاه بن الصالح بعد أن أرسلوا فى طلبه من مكان إمارته بحصن كيفا (٣) .

وتمت على يد السلطان الجديد هزيمة الصليبيين لأن لويس التاسع وقع فى نفس الخطأ الذى وقعت فيه الحملة الصليبية السابقة على دمياط وذلك بتأجيل الزحف حتى أشهر الفيضان وامتلاء القنوات والترع بمياه النيل ، ولذا تعثرت جيوش الحملة فى طريقها حتى تجمع الجيش الأيوبى عند المنصورة حيث نزلت الهزيمة بالصليبيين كما نزلت بهم مرة أخرى عند فارسكور وهم يحاولون العودة إلى قاعدتهم الحربية بدمياط (٤) ووقع الملك لويس التاسع أسيراً فى أيدى المصريين واعتقل بالدار المعروفة بدار فخر الدين بن لقمان ولم يطلق سراحه إلا بعد أن دفع فدية كبيرة (٥) .

والحقيقة أن الفضل فى انتصار الأيوبيين وجلاء الصليبيين عن دمياط يرجع إلى البسالة والشجاعة التى أبداها جند المماليك أثناء القتال ، وذاق المماليك طعم السلطة والحكم فى الفترة بين وفاة الصالح نجم الدين أيوب وحضور ابنه السلطان تور انشاه ، وقد أحس تور انشاه بأن المماليك وعلى رأسهم شجرة الدر زوجة أبيه يحاولون الاستئثار بالحكم ويسعون لخلعه من السلطنة فأخذ يأتمر بهم كما أخذوا يأتمرون به ، وأغرت شجرة الدر أخيراً المماليك بقتلة وانتهى بذلك حكم الأيوبيين وقامت الدولة المملوكية (٦) .

---

(١) كارل بروكلمان . تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٣٦٣ .
(٢) ابن خلدون : العبر ج ٥ / ص ٤١٥ .
(٣) المصدر السابق ص ٤١٦ .
(٤) د . العدوى · تاريخ العالم الإسلامى ص ٣١٨ .
(٥) ابن خلدون · العبر ج ٥ / ص ٤١٧
(٦) د العدوى : تاريخ العالم الإسلامى ص ٣٢٠ .

الفصل السابع
من النواحي الحضارية في مصر الإسلامية

أولاً: الناحية الاقتصادية :

١- الزراعة :

مدخل :

اهتم المسلمون بالزراعة والعناية بالأرض وتنمية الثروة الزراعية ، فقد حث الرسول- صلى الله عليه وسلم - على - الزراعة فقال : " ما من مسلم يغرس غرساً إلا كان ما أكل منه له صدقة وما سرق منه له صدقة ، وما أكل السبع منه فهو له صدقة ، وما أكلت الطير فهو له صدقة ، ولايرزؤه أحد إلا كان له صدقة " (١) ، وعن جابر أن النبى - صلى الله عليه وسلم - دخل على أم مبشر الأنصارية فى نخل فقال لها النبى - صلى الله عليه وسلم - " من غرس هذا النخل ؟ أمسلم أم كافر ؟ فقالت : بل مسلم فقال : لا يغرس مسلم غرساً ولا يزرع زرعاً فيأكل منه إنسان ولا دابة ولا شئ إلا كانت له صدقة " (٢) .

واهتمت الحكومة الإسلامية بزيادة رقعة الأراضى الزراعية فقد قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - " من أحيا أرضاً ميتة فهى له وليس لعرق ظالم حق " (٣) .

وقررت الحكومة الإسلامية أن من أحيا أرضاً ميتة فهى له يزرعها ويزارعها ويؤاجرها ويكرى منها الأنهار ويعمرها بما فيه مصلحته ، فإن كانت فى أرض العشر أدى عنها العشر ، وإن كانت فى

---

(١) مسلم . صحيح مسلم ج ٦٧٨/١ .

(٢) نفسه

(٣) أبو يوسف . كتاب الخراج ٧٠ .

أرض الخراج أدى عنها الخراج ، وإن حفر لها بئراً أو شق لها قناة صارت أرض عشر " (١) .

ونهجت الحكومة الإسلامية نهجاً حكيماً فى رعاية المزارعين وعدم ارهاقهم بالضرائب وتخفيف العبء عنهم ليقبلوا على الزراعة ، فإذا زرع الفلاح أرضه الخراجية عدة مرات فى السنة لم يؤخذ منه إلا خراج واحد (٢) وإذا أصابت المحصولات الزراعية آفة أو تعرضت للغرق سقط الخراج عن صاحبها (٣) بل راعى الخراج نوعية الأرض الزراعية من ناحية الجودة ، فالأرض الجيدة التى يزكو زرعها يزيد خراجها عن الأرض الرديئة التى يقل ريعها (٤).

وقد ساوت الحكومة الإسلامية بين الأرض المزروعة والأرض غير المزروعة فى الخراج (٥) لحث أصحابها على زراعتها . ولقد كانت الزراعة فى مصر منذ أقدم العصور فكانت كشفاً جديداً فى حياة الانسان وحضارته فبعد أن كان مجال الحياة أمامه يكاد ينحصر فى جمع النبات والتقاط الثمار البرية أو فى الصيد والقنص بدأ يزرع الحب ويجنى الحصاد ، وأصبح يعيش بطريقة انتاجية بعد أن كان يعيش على قوت يومه تحت رحمة الطبيعة وما تجود به عليه (٦) ، وصارت الزراعة دعامة أساسية فى حياته .

وقد انفردت أرض مصر بميزة خاصة وهى وجود نهر النيل وفيضانه الذى كان يمدها بالطمى والماء فيعطى الخصب والحياة لأرض مصر الطيبة التى تعارف الفلاحون المصريون على تقسيمها من حيث الجودة إلى عدة أقسام منها الباق وهى الأرض التى اشتهرت بجودتها وخصبها وسهولة ريها وتصلح لزراعة القمح ، وتعتبر أعلى الأرض قيمة وأوفرها سعراً وقطيعة ، ويلى هذا النوع من الأراضى نوع يصلح لزراعة الكتان وبعض النباتات الأخرى ويسمى البرايب ، وهناك أنواع أخرى مثل

---

(١) وليم نظير : الثروة النباتية ص ٧١ .

(٢) البلاذرى · فتوح البلدان ص ٤٣٤ .

(٣) المصدر السابق

(٤) الماوردى : الاحكام السلطانية ص ١٢٩ .

(٥) المصدر السابق ص ١٣١

(٦) وليم نظير : الثروة النباتية ص ٣٣ .

السقماهية والسلايح والنقا وهى أنواع من الأراضى تصلح للزراعة بعد أن يجرى بها قدر من الإصلاح مع وفرة مياه الرى ، ومن الأراضى ما لا تصلح فيها الزراعة إلا بعد تنقيتها مما علق بها من الأوساخ وتسمى أرض الوسخ كما توجد أراضى الشراقى التى لا تصل إليها المياه فى يسر وسهولة ويجب تركيب السواقى اللازمة لرفع المياه إليها (١)

ويرى الأستاذ الدكتور راشد البراوى أن مساحة الأراضى الزراعية فى عصر الفاطميين كانت ثلاثة ملايين من الأفدنة تستغل كلها فى الزراعة إذا ما كان الفيضان عادياً والأمن سائداً ، أما فى عصور الفوضى والاضطراب وانخفاض النيل فلم تكن تستخدم هذه المساحة كلها (٢) .

والزراعة فى مصر لم تكن من النوع الفطرى الذى يعتمد على المطر وإنما اعتمدت على مياه نهر النيل التى كانت تستلزم توحيد الجهود وتنظيمها لحفر الترع وشق القنوات وتنظيم جريان المياه وتوزيعها وإقامة الجسور بين الحياض للإفادة من مياه النهر عند فيضانه (٣) ، ولقد اهتمت الحكومة الفاطمية بحفر الترع وإقامة الجسور ففى سنة ٥٠٦ هـ حفر الفاطميون الخليج الذى أشرف على حفره أبو المنجابن أشعيا متولى ديوان جهات الدلتا الشرقية فى عهد وزارة الأفضل بن بدر الجمالى وكان هذا الخليج يخرج من النيل لرى الأراضى الواقعة شرق فرع دمياط (٤) وفى عهد الأيوبيين أمر صلاح الدين الأيوبى الأمير قراقوش الأسدى برعاية القناطر والجسور والإشراف على عمارتها (٥) .

ويذكر المقريزى أن السنة الزراعية فى مصر قد أنقسمت إلى قسمين هما فصلا الزراعة الشتوية والصيفية ، ومن المحاصيل الزراعية الشتوية : القمح ، الشعير ، الفول ، العدس ، الحمص الجلبان ، الكتان (٦) ، القرط (البرسيم) ، البصل ، الثوم ، الترمس (٧) .

---

(١) المقريزى : الخطط ج ١ / ص ١٠٠ - د . السيد الباز العرينى مصر فى عصر الأيوبيين ص ١٨٨ .

(٢) د . راشد البراوى . حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين ص ٣١ .

(٣) وليم نظير : الثروة النباتية ص ٣٠

(٤) المقريزى : الخطط ج ١ / ص ٧١ - ٧٢ - د . جمال سرور : الدولة الفاطمية فى مصر ص ١٥٣ .

(٥) د . سعيد عاشور : الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام ص ١٦٦ .

(٦) المقريزى : الخطط ج ١ / ص ١٠١ .

(٧) المصدر السابق ص ١٠٢

ومن المحاصيل الصيفية : البطيخ ، اللوبيا ، السمسم القطن ، قصب السكر (١) ، القلقاس الباذنجان ، النيلة ، الفجل الخس ، الكرنب ، الكرم ، التين ، التفاح ، التوت (٢) .

والأشهر الزراعية عند المصريين والتى ما زالت مستعملة حتى اليوم هى : (٣)

١- توت (ويبدأ من ١١ سبتمبر إلى ١٠ أكتوبر)

٢- بابه (ويبدأ من ١١ أكتوبر إلى ٩ نوفمبر)

٣- هاتور (ويبدأ من ١٠ نوفمبر إلى ٩ ديسمبر)

٤- كيهك (ويبدأ من ١٠ ديسمبر إلى ٨ يناير)

٥- طوبة (ويبدأ من ٩ يناير إلى ٧ فبراير)

٦- أمشير (ويبدأ من ٨ فبراير إلى ٩ مارس)

٧- برمهات (ويبدأ من ١٠ مارس إلى ٨ أبريل)

٨- برمودة (ويبدأ من ٩ أبريل إلى ٨ مايو)

٩- بشنس (ويبدأ من ٩ مايو إلى ٧ يونيو)

١٠- بؤونة (ويبدأ من ٨ يونيو إلى ٧ يوليو)

١١- أبيب (ويبدأ من ٨ يوليو إلى ٦ أغسطس)

١٢- مسرى (ويبدأ من ٧ أغسطس إلى ٥ سبتمبر)

---

(١) المصدر السابق .

(٢) المصدر السابق ص ١٠٣ .

(٣) وليم نظير · الثروة النباتية ص ٣٨ – ٤١ .

بعض المزروعات فى مصر

ساعدت الطبيعة مصر على تنوع المحاصيل الزراعية فيها ما بين صيفية وشتوية ، وكثرت المحاصيل الزراعية بمصر وتنوعت من مدينة لأخرى .

وقد أولى الفلاحون جلّ عنايتهم للمحاصيل الزراعية التى يعتمد عليها السكان فى غذائهم ثم زراعة أنواع مختلفة من الفواكه ، والاهتمام ببعض المحاصيل التى لها دور فى الصناعة .

ا - المزروعات الغذائية :

* القمح :

يعتبر القمح من المحاصيل الرئيسية فى العالم ويحتل المكان الأول بين محاصيل الحبوب التى استخدمها الإنسان غذاء له لتفوقه فى القيمة الغذائية (١) ، وكانت زراعته فى مصر تشغل الجزء الأكبر من الأراضى الخصبة الصالحة للزراعة الشتوية (٢) ، ويزرع القمح من نصف شهر بابه إلى آخرها وربما امتد فى بعض الأراضى إلى آخر كيهك ، ومقدار ما يحتاج إليه الفدان الواحد من بذر القمح يختار بحسب قوة الأرض وضعفها ، وتبلغ كمية البذور المستخدمة من أردب إلى خمس ويبات ، وأربع ويبات ، ويوجد فى الصعيد أراض تحتمل دون هذا ، إذ يكفى الفدان منها نحو ويبتين (٣) .

ويدرك الزرع فى شهر بشنس ويختلف ما يخرج من فدان القمح بحسب الأراضى فينتج من أردب إلى عشرين أردباً (٤) .

ويزرع القمح فى كل أنحاء الدلتا والوجه القبلى الذى كان منه معظم متحصل الديوان من

---

(١) وليم نظير . الثروة النباتية ص ٧٣ .

(٢) د . راشد البراوى : حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين ص ٦٧ .

(٣) المقريزى : الخطط ج ١ / ص ١٠١ .

(٤) المصدر السابق .

الغله ومبلغه نحو مليون أردب فى السنة ، وقد اختصت بعض الجهات بأنواع ممتازة من القمح مثل سخا والفيوم (١) ، ومنفلوط التى وصفها ابن جبير بقوله : " هى بلدة فى نهاية من الطيب ليس فى الصعيد مثلها وقمحها يجلب إلى مصر لطيبه ورزانة حبته ، والتجار يصعدون إلى المراكب لاستجلابه (٢)

وقد وصف المقدسى مصر وخيراتها وكثرة القمح بها فقال : " مصر إقليم كرر الله فى القرآن ذكره وأظهر للخلق فضله ، مصر قبة الاسلام ، ونهره أجل الأنهار ، وبخيراته تعمر الحجاز ، وبأهله يبهج موسم الحج وبرّه يعم الشرق والغرب (٣) ، ويعتبر القمح الغلة الرئيسية الأولى فى مصر التى كانت ترسل منه كميات كبيرة إلى بلاد الحجاز لمساعدة أهلها ، ولم تكتف مصر بإرسال القمح وإنما كانت ترسل الدقيق والكعك ، ففى مشتول كانت توجد الطواحين الكثيرة التى يحمل منها أكثر ميرة الحجاز من الدقيق والكعك وقد أحصى المقدسى ذلك فى وقت من أوقات السنة فإذا هو يبلغ ثلاثة آلاف حمل جمل كل أسبوع كلها حبوب ودقيق (٤) .

* الشعيـر :

يزرع الشعير فى الأرض التى شربت الماء الكثير وهى رطبة ، وتتقدم زراعته على زراعة القمح بأيام وكذلك حصاده ، فانه يحصد قبل القمح ويحتاج الفدان منه أن يبذر فيه بحسب الأرض ويكون إدراكه فى برموده (٥) ، وكانت زراعته منتشرة فى جميع البلاد من أسوان جنوباً حتى ساحل البحر الأبيض المتوسط شمالاً (٦) .

* البقـول :

اشتهرت مصر بزراعة البقول منذ أقدم العصور ، وكانت بعض أنواع البقول وبخاصة الفول والعدس تدخل ضمن طعام الفلاحين ، والعمال اليومى ، وأهم البقول التى عرفها المصريون الفول

---

(١) د . راشد البراوى : حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين ص ٦٧ .
(٢) المقريزى : الخطط ج ١ / ص ١٠١ .
(٣) ابن جبير الرحلة ص ٣٥ .
(٣) المقدسى أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ص ١٩٥ ط ٢ ليدن ١٩٠٩ م
(٤) المصدر السابق
(٥) المقريزى · الخطط ج ١ / ص ١٠١ .
(٦) الحميرى . الروض المعطار ص ٤٤٥ ، د . راشد البراوى · حالة مصر الاقتصادية ص ٦٨ .

والعدس والحمص والترمس (١) .

ويزرع الفول فى الحرث من أول شهر بابه ، ويؤكل وهو أخضر فى شهر كيهك ، ويحتاج الفدان من البذر منه إلى ثلاث ويبات ويدرك فى برمودة وينتج الفدان منه ما بين عشرين أردبا إلى ما دون ذلك (٢) ، ويذكر عبد اللطيف البغدادى أن الفول يتواصل نحو ستة أشهر (٣) .

ويزرع العدس والحمص من هاتور إلى كيهك ، ويبذر فى كل فدان من الحمص أردب إلى ثمان ويبات ، ومن العدس من ويبتين إلى ما دونهما وتدرك هذه الأصناف فى برمودة ، ويتحصل من فدان الحمص من أربعة أرادب إلي عشرة ، والعدس من عشرين أردباً فما دونهما (٤) .

ويزرع الترمس فى طوبة وزريعته لكل فدان أردب ويدركه الفلاحون فى برمودة ، وينتج الفدان ما بين عشرين أردباً إلى ما دونهما (٥) وتزرع البقول فى أماكن كثيرة من مصر ومنها قفط وقوص (٦) ، وأسوان (٧) .

* البصل والثوم :

يزرع البصل والثوم من شهر هاتور إلى نصف كيهك ويبذر فى فدان البصل من نصف ويبة إلى ويبة ، والثوم من مائة حزمة إلى مائة وخمسين حزمة ويدرك فى شهر برمودة (٨) ويزرع البصل والثوم فى كثير من قرى مصر منها قرية منية الفيران (٩) وقرية الشاميين بالقرب من شنوان (١٠) .

---

(١) ابن فضل الله العمرى . مسالك الأبصار ص ٨٢ .

(٢) المقريزى · الخطط ج ١ / ص ١٠١ .

(٣) عبد اللطيف البغدادى : الإفادة والاعتبار ص ٢٤ .

(٤) المقريزى . الخطط ج ١ / ص ١٠١ .

(٥) المصدر السابق ص ١٠٢ .

(٦) الإدريسى · نزهة المشتاق ج١/ ص١٣١، العمرى : مسالك الأبصار ص ١٤٧ ، الحميرى : الروض المعطار ص ٤٧٧ ، ٤٨٤ .

(٧) الحميرى · الروض المعطار ص ٥٧

(٨) المقريزى . الخطط ج ١/ ص ١٠٢

(٩) الإدريسى . نزهة المشتاق ج ١ / ص ٣٢٤ .

(١٠) المصدر السابق ص ٣٣١

ب- مزروعات غذائية أخرى :

ذكر المقريزي بعض المزروعات الغذائية الأخرى التي يعتمد المصريون عليها في غذائهم مثل اللوبيا فانها تزرع من نصف برمهات إلى نصف شهر برمودة ، وتدرك في بشنس (١) .

ويذكر البغدادي أن اللوبيا حب مستدير أبيض هش يضرب إلى الحلاوة ، وفيه قبض ولعابية كثيرة ، يطبخ أهل مصر به اللحم بأن يقطع مع قشاره صغاراً ، ويكون طعاماً لا بأس به (٢) .

ويزرع السمسم في برمودة ، وزريعته ربع ويبة للفدان ويدرك في أبيب ومسرى ، وينتج الفدان ما بين أدرب إلى ستة أرادب (٣) ، ويزرع في قرية صحرشت الصغرى (٤) .

ومن ذلك القلقاس (٥) الذى يدرك في هاتور (٦) ، ويزرع المصريون الملوخية ويسميها الأطباء الملوكية ويطبخ بها اللحم (٧) .

ويزرع الباذنجان في برمهات وبرمودة وبشنس وبؤونة ويدرك من بؤونة إلى مسرى ويزرع الفجل طوال السنة وزريعة الفدان من قدح واحد إلى قدحين ، ويزرع اللفت في أبيب ويدرك بعد أربعين يوماً ، ويزرع الخس في طوبة شتلاً ويؤكل بعد شهرين ، ويرى المقدسي أن مدينة قفط يزرع بها اللفت والخس (٨) ، ويزرع الكرنب في شهر توت شتلاً ويدرك في هاتور (٩) ، ويزرع الأرز في إقليم الفيوم (١٠) والجزء الشمالي من مصر السفلي الواقع بين البحيرات التي تحيط بساحلها وبين

---

(١) المقريزي : الخطط ج ١ / ص ١٠٢ .

(٢) البغدادي : الإفادة والاعتبار ص ١٩ .

(٣) المقريزي : الخطط ج ١ / ص ١٠٢ .

(٤) الإدريسي : نزهة المشتاق ج ١ / ص ٣٢٣ .

(٥) البغدادي : الافادة والاعتبار ص ٢٥

(٦) المقريزي : الخطط ج ١ / ص ١٠٣

(٧) البغدادي : الإفادة والاعتبار ص ١٩ .

(٨) الإدريسي : نزهة المشتاق ج ١ / ص ١٢٨ .

(٩) المقريزي : الخطط ج ١ / ص ١٠٣

(١٠) الحميري : الروض المعطار ص ٤٤٥ ، الإدريسي : نزهة المشتاق ج ١/ ص ٣٢٧ .

خط مستقيم يقتسم الدلتا من الرحمانية على الفرع الغربى للنيل حتى المنصورة على الفرع الشرقى لهذا النهر (١) .

جـ - الفاكهة :

اشتهرت مصر بأنواع كثيرة من الفاكهة سواء ما اختصت به البلاد الحارة أو الباردة ، ومن أهم أصنافها : التمر ، الموز ، العنب ، التين ، التوت ، الخوخ ، البرقوق ، النبق ، الرمان ، الكمثرى ، البطيخ ، السفرجل (٢) .

ولقد كان شجر النخيل مغروساً فى مختلف أنحاء البلاد وكانت أغلب القرى تحيط بها أشجار النخيل ، ومنها يحصل القرويون على فاكهة رخيصة لذيذة الطعم ، ويوجد فى أخميم وأسوان وإقليم الشرقية والجهات الشمالية من الدلتا (٣) .

ويروى الرحالة ابن جبير أن البلينة قرية حسنة كثيرة النخل ، وتقع بالشط الغربى من النيل وكذلك دندرة تعرف بالرطب الطيب (٤) .

وفى مدينة الفرما أول مصر من جهة الشمال كما يقول صاحب الروض المعطار يوجد تمر عجيب وجميل (٥) ، ويذكر المقريزى أن إسنا يكثر بها التمر وقد حصل فى سنة منها أربعون ألف أردب تمر (٦) .

ويوجد التمر والنخيل فى كل من الواحات الداخلة (٧) والقيس ، ومدينة الأشمونى (٨) والمراغة وصول (٩) والفسطاط (١٠) .

---

(١) جيرار : وصف مصر ص ٥٣ .

(٢) العمرى · مسالك الأبصار ص ٨٢ ، ناصرخسرو : سفرنامه ص ١٠٣ ، ابن سعيد : النجوم الزاهرة ص ٣١.

(٣) د. راشد البراوى : حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين ص ٧١ .

(٤) ابن جبير · الرحلة ص ٤٠ .

(٥) الحميرى . الروض المعطار ص ٤٣٩ .

(٦) المقريزى : الخطط ج ١ /ص٢٣٧ .

(٧) الادريسى . نزهة المشتاق ج ١ / ص ١٢٢

(٨) المصدر السابق ص ١٢٤ .

(٩) المصدر السابق ص ١٢٥ .

(١٠) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ١٩٧ .

وانتشر العنب فى نواحى كورة مريوط والجيزة (١) ، والإسكندرية جيدة الفواكه والأعناب (٢) وأسوان ، وأخميم (٣) ، وقمولا (٤).

ويذكر الإدريسى أن إسنا بها أعناب كثيرة يعمل منها الزبيب ويحمل إلى جميع أرض مصر (٥) . ويوجد العنب بمنية ابن الخصيب (٦) .

أما الحمضيات فيرى البغدادى أنه يوجد بأرض مصر منها أصناف كثيرة لم يرها فى العراق من ذلك أترج (برتقال) كبار يعز وجود مثله ببغداد ، ومن ذلك أترج حلو ليس فيه حماض ومن ذلك الليمون المختم وهو شديد الحمرة من النارنج وليمون البلسم وهو فى قدر الإبهام ، وكالبيضة المطاولة ، وفيه ما هو مخروط صحيح يبتدئ من قاعدة وينتهى إلى نقطة وأما لونه ورائحته وعصيره وحماضه فمثل الأترج أى برتقال (٧)

وكان من جملة أصناف الليمون بمصر ليمون يقال له التفاحى يؤكل بغير سكر لقلة حموضته ولذة طعمه ، وكذلك كان فيها ما يسمى بالليمون الشتوى والليمون السائل (٨) .

وتقلم أشجار الفاكهة فى طوبة وأمشير إلا السدر وهو شجر النبق فإنه يقلم فى برمودة (٩) ، ويذكر البغدادى أنه يزرع بكثرة في مصر ويتميز بثماره الشديدة الحلاوة (١٠) .

ويذكر المقريزى أن الموز الشتوى يزرع فى طوبة والصيفى فى أمشير (١١) ، وبدمياط وماليليها

---

١) د راشد البراوى . حالة مصر الاقتصادية ص ٧١ .

(٢) المقدسى · أحسن التقاسيم ص ١٩٧ .

(٣) المصدر السابق ص ٢٠١ .

(٤) الحميرى : الروض المعطار ص ٤٧٣ .

(٥) الادريسى نزهة المشتاق ج ١ / ص ١٢٩ .

(٦) الحميرى الروض المعطار ص ٥٤٨

(٧) البغدادى · الإفادة والاعتبار ص ٣٠ .

(٨) آدم متز . الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ج ٢ / ص ٢٢٥ .

(٩) المقريزى الخطط ج ١ / ص ١٠٣

(١٠) البغدادى . الإفادة والاعتبار ص ٣٤

(١١) المقريزى الخطط ج ١ / ص ١٠٣

توجد أشجار الموز بكثرة ومنه تستمد مصر والقاهرة الكثير (١) ، وقد ذكر المقدسى أنه حين زار الفسطاط وجد أن الموز رخيص بها (٢) ، واشتهرت أسيوط والفيوم بالسفرجل (٣) والبطيخ يزرع بمصر من نصف شهر برمهات إلى نصف برمودة ويدرك فى شهر بشنس (٤) ، ويزرع فى أسوان (٥) ، ويوجد بمصر بطيخ يسمى العبدلى ، والعبدلاوى قيل إنه نسب إلى عبد الله بن طاهر والى مصر عن المأمون وأما المزارعون فيسمونه البطيخ الدميرى منسوب إلى دميرة (٦) وقد وصفه المقدسى بأنه بطيخ نادر (٧) ، وجميع أصناف البطيخ بها يباع بالميزان (٨) .

د- بعض المزروعات الطبية :

تحتوى المزروعات الطبية على مواد مؤثرة ذات قيمة علاجية ، وكانت النباتات الطبية تنمو فى وادى النيل ، وقد عرف المصريون خواصها ، وأدركوا مزاياها ، وفوائد الكثير منها (٩) ، وكان صناعها يسمون بالشرابيين ، وكان المحتسب يتولى الإشراف عليهم ويأمر ألا تعقد الأشربة ، وتركب الأدوية من هذه النباتات إلا من اشتهرت معرفته وظهرت خبرته وكثرت تجربته ، وشاهد تجريب العقاقير ومقاديرها من أربابها وأهل الخبرة بها (١٠) ، ومن هذه النباتات :

---

(١) العمرى : مسالك الابصار ص ١٥٨

(٢) المقدسى . أحسن التقاسيم ص ١٩٧ .

(٣) د . راشد البراوى حالة مصر الاقتصادية ص ٧٢ .

(٤) المقريزى : الخطط ج ١ / ص ١٠٢ .

(٥) الحميرى · الروض المعطار ص ٥٧

(٦) البغدادى : الإفادة والاعتبار ص ٣٣ .

(٧) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ١٩٦ .

(٨) البغدادى : الإفادة والاعتبار ص ٣٤ .

(٩) وليم نظير : الثروة النباتية ص ٢١٣ .

(١٠) الشيزرى · نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ص ٥٦

البلسان :

نبات يزرع ببقعة مخصوصة من أرض المطرية بضواحى القاهرة بالقرب من عين شمس (١) فى موضع محاط عليه محتفظ به مساحته نحو سبعة أفدنة ، وارتفاع شجرته نحو ذراع وأكثر من ذلك ، وعليها قشران الأعلى أحمر خفيف ، والأسفل أخضر ثخين ورائحته طيبة فى جميع أجزائه (٢) ، والبئر التى يسقى منها تسمى بئر البلسم ، وماؤها عذب ، ويباع فى مكانه بضعفه فضة (٣) ، ويستخرج منه دهن البلسان (٤) ، ويربى قشرة قبل استخراج دهنه فيكون نافعاً من جميع السموم (٥) ، والبلسان من العقاقير الطبية الشرقية التى نالت شهرة عظيمة فى العصور الوسطى فى الشرق والغرب على السواء (٦) ، ويعرف النوع الجديد فى مصر باسم بلسم مكة لأن شتلاته منها (٧) .

الخيار شنبر :

يقول البغدادى : يكثر بمصر شجر الخيار شنبر وهو شجر ضخم شبيه بشجر الخروب الشامى وزهره كبير أصفر تاجنر (٨) ويحول فى برمهات (٩) ، فاذا عقد تدلى ثمره كالمقارع الخضر (١٠)

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ / ص ٢٨٦ .

(٢) البغدادى : الإفادة والاعتبار ص ٢٢ .

(٣) المصدر السابق ص ٢٤

(٤) الإدريسى · نزهة المشتاق ج ١/ ٣٢٦ ، ابن فضل الله العمرى مسالك الأبصار ص ٨٠ .

(٥) البغدادى : الإفادة والاعتبار ص ٢٥ .

(٦) د . نعيم زكى فهمى · طرق التجارة ومحطاتها الدولية ص ٢٠٦

(٧) المصدر السابق ص ٢١١ .

(٨) البغدادى الافادة والاعتبار ص ٣٤ .

(٩) المقريزى الخطط ج ١ / ص ١٠٣

(١٠) البغدادى الإفادة والاعتبار ص ٣٤

ويستخدم لب ثماره كملين خفيف وشراب مرطب (١) ، ويعتبر الخيار شنبر سلعة عقاقيرية اقتصر استعمالها فى الشرق ، وقد اتيح لتجار الغرب المارين بالاسكندرية أن يروا هذا النبات مزروعاً فى حدائق الإسكندرية ، وحول المدينة ، وهو نبات غريب عنهم وتستعمل الأجزاء العليا من ساقه حتى البراعم ، وتدخل فى صناعة العقاقير الطبية ، وتباع فى أسواق القاهرة والإسكندرية ودمياط كما تجود زراعته فى جميع أراضى مصر (٢) .

المـــن :

وهو من السلع التى تستخدم فى صناعة العقاقير الطبية وكثر الطلب عليها فى الشرق والغرب (٣) ، والمن هو مادة كربوأيدراتية تتخذ من النباتات الدنيئة التى تنمو على الصخور وجذوع الأشجار تجف وتتطاير ويتخلف عنها هذه المادة (٤) ، وتوجد مادة المن فى شبه جزيرة سيناء حيث يجمعه الأهالى ويصدرونه للقاهرة والإسكندرية وأوربا (٥) كما توجد فى شجر الأثل .

وقد ألح صيادلة وأطباء الغرب الأوربى فى طلب المن العربى ، وفى فترة انقطاع الصلة مع العرب كان الغرب يحصل على حاجته منه من جزيرة صقلية (٦) .

هـ - مزروعات لها دور فى الصناعة :

اهتم سكان مصر منذ القدم بزراعة بعض النباتات والأشجار التى استفادوا منها فى الصناعة لرفع مستوى معيشتهم ومن هذه المزروعات : القطن - الكتان - قصب السكر - النيلة - القرظ .

* القطـــن :

يقول المقريزى : " يزرع القطن فى برمودة وزريعته أربع ويبات للفدان ويدرك فى توت فيخرج

---

(١) وليم نظير : الثروة النباتية ص ٢٣٠ .

(٢) د. نعيم زكى . طرق التجارة

(٣) المصدر السابق ص ٢١٥

(٤) د . مصطفى كامل : علوم الزراعة فى القرآن الكريم ص ٦٩

(٥) د . نعيم زكى : طرق التجارة ومحاطتها الدولية ص ٢١٦ .

(٦) المرجع السابق

من الفدان ثمانية قناطير " (١) وكانت تزرع منه مقادير صغيرة فى الجهات التى يتوافر فيها الرى الدائم كالفيوم وعلى جوانب النهر (٢) .

* الكتـان :

يعتبر الكتان من أقدم النباتات التى كانت تزرع فى مصر منذ عصر المصريين القدماء ، وهم أول من زرعوا الكتان ، وغزلوه ، واستخدموا أليافه فى صناعة المنسوجات وقد لقيت زراعته وإعداده اهتماماً خاصاً ، فكانت بذوره تزرع فى الأرض بعد هبوط النيل عقب موسم الفيضان ، ويترك النبات ينمو حتى يتم نضجه (٣) .

ويذكر المقريزى أنه يقلع قضبانا وينشر فى موضعه حتى يجف فرذا جف حمل ، وهدر وعزل جوزه فيخرج منه بذر الكتان ويستخرج منه الزيت الحار ، ويزرع فى شهر هاتور ويحتاج الفدان أن يبذر فيه من البذر ما بين أردب وثلاث إلى مادون ذلك ، ويدرك فى شهر برمودة ، ويخرج من الفدان ما بين ثلاثين شدة إلى ما دون ذلك ، ومن البذر من ستة أدراب إلى ما دونها (٤) .

ويزرع الكتان فى قرية حانوت فيقول الإدريسى : " قرية حانوت قرية ذات مياه جارية وعمارات وهى برسم زراعة الكتان وهو غلتها وعليه يعول أهلها ، ونبات الكتان يجود فيها (٥) وفى مدينة سنباط وكل مزارعها كتان (٦) ، وفى بوصير قريدس الكتان الرفيع (٧) ويزرع الكتان بأرض الصعيد ودلاص (٨) وفى الفيوم يزرع نوع من الكتان أقل من المستوى كما يقول المقدسى (٩) .

---

(١) المقريزى الخطط ج ١ / ١٠٢
(٢) د. راشد البراوى : حالة مصر الاقتصادية ص ٧٠
(٣) وليم نظير الثروة النباتية ص ١٠٢
(٤) المقريزى الخطط ج ١ / ص ١٠٣ .
(٥) الإدريسى نزهة المشتاق ج ١ / ص ٣٣٤ .
(٦) المصدر السابق ص ٣٣٥ .
(٧) المقدسى أحسن التقاسيم ط ٢ ليدن ١٩٠٩ م ص ٢٠٣ .
(٨) المصدر السابق ، آدم متز الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ج ٢/ ص ٢٥٨ .
(٩) المقريزى الخطط ج ١ / ص ١٠٢ .

قصب السكر :

توسع المصريون فى زراعة هذا المحصول كثيراً فى العصر الفاطمى نظراً لشدة الطلب على السكر والحلوى بسبب سياسة الحكومة الفاطمية فى الحفلات الكثيرة (١) .

ويذكر المقريزى أن قصب السكر يزرع من نصف برمهات ويحتاج إلى أرض جيدة قد شملها الرى وعلاها ماء النيل ونظفت وحرثت ، ويكسر القصب فى شهر كيهك (٢) ويزرع القصب فى قرية الشاميين بالقرب من شنوان (٣) ، والواحات الداخلة (٤) ، ومدينة القيس (٥) ، ومنية ابن الخصيب (٦) ، وطحا والمراغة (٧) وأخميم والبلينا (٨) ، وسمسطا (٩) وملوى وكان بها عدة أحجار لاعتصاره (١٠) .

* النيلة :

زرعت أشجار النيلة البرية فى مصر منذ زمن بعيد ، ومن أوراق شجرها تستخلص صبغة زرقاء تستخدم فى صناعة المنسوجات (١١) .

---

(١) د. راشد البراوى · حالة مصر الاقتصادية ص ٧٩ .
(٢) المقريزى : الخطط ج ١ / ص ١٠٢
(٣) الإدريسى · نزهة المشتاق ج ١ / ص ٣٣١ .
(٤) المصدر السابق ص ١٢٢ .
(٥) الحميرى . الروض المعطار ص ٤٨٨ .
(٦) المصدر السابق ص ٥٤٨
(٧) الإدريسى · نزهة المشتاق ج١/ص ١٢٥ .
(٨) المصدر السابق ص ١٢٦
(٩) المصدر السابق ص ١٣٠
(١٠) المقريزى . الخطط ج ١ / ص ١٠٣
(١١) وليم نظير : الثروة النباتية ص ٩٨ .

يقول المقريزى . " تزرع النيلة من بشنس والزريعة للفدان ويبة ويدرك من أبيب " (١) ، وكانت زراعتها مكلفة بحيث لا يقوم على زراعتها إلا ملاك ميسورون أو فلاحون يتعاونون معاً فى زراعتها ويبدو أن المناطق المدارية من الصعيد هى أكثر المناطق صلاحية لزراعة هذا النبات حيث يزرع فيها أكثر مما يزرع فى المناطق الأخرى (٢) ، وتعتبر النيلة من غلات الواحات أيضاً (٣) .

* شجر السنط (القرظ) :

يقول البغدادى تسمى هذه الشجرة بالشوكة المصرية ، وورقها هو القرظ ، وتدبغ به الجلود ، والسنط شجر ضخم له شوك كثير صلب أبيض ، وله ثمر يسمى ضروب القرظ مدور مسطح مشاكل لحبوب الترمس ، وإذا رعته الإبل إحمرت أفواهها وأوبارها فتحسبها عصفراً ، وتسمن عليه ، وما كان من القرظ بأرض مصر فهو السنط وهو ذكى الوقود قليل الرماد (٤) وكانت تلال المقطم تمتلئ بأشجار السنط (٥) .

و - مزروعات غذائية للماشية :

* القرط (٦)(البرسيم) :

يذكر المقريزى أن القرط يزرع عندما يأخذ ماء النيل فى النقصان ، وأول ما يبذر منه فى شهر

---

(١) المقريزى الخطط ج ١ / ص ١٠٣ .

(٢) جيرار ، وصف مصر ص ٩٠ .

(٣) الإدريسى نزهة المشتاق ج١ ص ١٢٢ – الحميرى : الروض المعطار ص ١٧٨

(٤) البغدادى ، الافادة والاعتبار ص ٣٢ ، ٣٣ .

(٥) دكتور راشد البراوى . حالة مصر الاقتصادية ص ١٢٤ .

(٦) البغدادى الافادة والاعتبار ص ٣١ .

بابه . والحراثى [1] منه يزرع فى كهيك وطوبة ، ويزرع أحياناً فى هاتور ، ويدرك الأخضر منه فى آخر شهر كهيك ويدرك الحراثى فى طوبة وأمشير وتحصل من الفدان الحراثى ما بين أردبين إلى أربع ويبات [2] .

ويعد البرسيم الغذاء المفضل للماشية ، وتنتشر زراعته فى مصر حيث لا توجد مراع طبيعية وتخصص له مساحات كبيرة من أراضى الدلتا إلى ماوراء فرشوط فى صعيد مصر [3]

وكان المصريون يعرفون النوع المسمى بالبرسيم الحجازى [4] ويبدو أنه نقل إلى مصر بعد الفتح الاسلامى .

*** الجلبان :**

يبين المقريزى أن الجلبان لا يزرع إلا فى أرق الأراضى حرثاً عن الأرض العالية ويدرك فى شهر برمودة ، ويتحصل من إنتاجه من عشرة أرداب إلى ما دونها [5] ، وقد ذكره المقدسى ضمن ما تزرعه مصر [6] .

والجلبان نوع من العلف الذى يستخدم للماشية ويزرع فى الصعيد والفيوم لملاءمة التربة والمناخ له [7]

وما دمنا نتحدث عن الزراعة فلابد أن نعرض للثروة الحيوانية ونبين أهميتها للفلاح .

---

(١) الحراثى . هو الحشة الثانية من البرسيم التى تترك على ساقها حتى تجف ثم تنقل إلى الجرن حيث تطؤها أقدام الثيران (جيرار : وصف مصر ص ٧١) .

(٢) المقريزى · الخطط ج ١ / ص ١٠٢

(٣) جيرار : وصف مصر ص ٧٠ .

(٤) وليم نظير . الثروة النباتية ص ٩٢ .

(٥) المقريزى : الخطط ج ١ / ص ١٠١ .

(٦) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ٢٠٣ .

(٧) جيرار : وصف مصر ص ٧٤ ، وليم نظير : الثروة النباتية ص ٩١ ، د . راشد البراوى : حالة مصر ص ٦٨ .

* الثروة الحيوانية :

كان الفلاحون فى مصر شديدى العناية بتربية الماشية والحمير والإبل للمساعدة فى الحرث ورفع المياه من النيل ودرس الحبوب ، ونقل الغلات والسباخ وما إلى ذلك من مختلف أعمال الزراعة (١) . ويستخدم الفلاحون البقر فى عملية رفع المياه ودرس الحبوب فى الجزء العلوى من الصعيد لان الحرارة هناك تكون أشد مما ينبغى بالنسبة لتربية الجاموس (٢) وقد وصفها البغدادى بقوله : " وأما بقرهم فعظيمة الخلق حسنة الصور ، ومنها صنف هو أحسنها وأغلاها قيمة يسمى البقر الخيسية ، وهى ذوات قرون كأنها القسى غزيرات اللبن (٣) ، وكان غذاء الأبقار البرسيم والجلبان .

أما قطعان الجاموس (٤) فتوجد فى مصر العليا ، وتربى من أجل الألبان التى توفرها وهى تتغذى على نفس ما تعيش عليه الأبقار (٥) .

وإلى جانب الأبقار اللازمة لاستغلال الأراضى يمتلك المزارعون الأغنام والماعز (٦) التى توفر قدراً من الألبان التى تستهكلها القرى (٧) ، وتوجد الأغنام بالواحات (٨) والصعيد والفيوم (٩) .

أما الجمال فكانت تستخدم فى نقل الحاصلات الزراعية من الحقول إلى الأجران والأسواق وحمل المتاجر من الفسطاط إلى القلزم وما بعدها ومن قوص وأسوان إلى موانى ساحل البحر الأحمر وبخاصة عيذاب مما أدى إلى ازدياد أهمية هذا الحيوان (١٠) .

---

(١) د. راشد البراوى · حالة مصر الاقتصادية ص ٧٥

(٢) جيرار وصف مصر ص ١٠٤ .

(٣) البغدادى الإفادة والاعتبار ص ٣٨

(٤) العمرى مسالك الأبصار ص ٨٣

(٥) جيرار وصف مصر ص ١٠٥

(٦) العمرى . مسالك الأبصار ص ٨٣ .

(٧) جيرار : وصف مصر ص ١٠٦ .

(٨) المقدسى · أحسن التقاسيم ص ٢٠١ ، الإدريسى · نزهة المشتاق ج ١ / ص ١٢٢ .

(٩) جيرار وصف مصر ص ١٠٧

(١٠) د راشد البراوى حالة مصر الاقتصادية ص ٧٥ .

ويذكر الرحالة ناصر خسرو أن السقائين فى مصر كانوا يجلبون مياه الشرب من النيل على الجمال ويقول إن فى القاهرة اثنين وخمسين ألف جمل يحمل السقاءون عليها الروايا [١] .

والحمار من الحيوانات التى لا يستغنى عنها أى فلاح مصرى لصبره وقوة احتماله ، وهو يستخدمها فى نقل بعض المواد الغذائية ، ويركبها لقضاء بعض أعماله ، ويبدو أن اهتمام المصريين بها كان كبيراً إذ يذكر ناصر خسرو أنه رأى كثيراً من الحمر البلق كالخيل ؛ بل أجمل ، وأن أهل السوق وأصحاب الدكاكين يركبون هذه الحمر المسرجة فى ذهابهم وإيابهم من البيوت إلى السوق ، وفى كل حى على رأس الشوارع حمر كثيرة عليها برادع مزينة يركبها من يريد نظير أجر زهيد ، ويقدر عددها بخمسين ألف بهيمة مسرجة تزين كل يوم وتكرى [٢] ، ويصف البغدادى الحمير كذلك بأنها فارهة جداً وتركب بالسروج وهى كثيرة العدد ، ويبلغ ثمن الواحد منها عشرين ديناراً إلى أربعين [٣] .

وتوجد الخيول بمصر [٤] ، ويبدو أن المصريين يقدرونها لحد لا يسمح لهم باستخدامها فى أعمال الزراعة ، وقد جرت العادة على قياس قوة الرجل ومدى نفوذه بعدد الخيول التى يمتلكها [٥].

ويذكر البغدادى أن خيل مصر عتاق سابقة فيها ما يبلغ ثمنه ألف دينار إلى أربعة آلاف [٦] .

---

(١) ناصر خسرو · سفرنامه ص ٩٠

(٢) المصدر السابق ص ١٠٥ .

(٣) البغدادى : الإفادة والاعتبار ص ٣٨

(٤) العمرى : مسالك الأبصار ص ٨٣ .

(٥) جيرار : وصف مصر ص ١٠٨

(٦) البغدادى الإفادة والاعتبار ص ٣٨

مصادر الرى فى مصر

يعتبر نهر النيل المصدر الأساسى لمياه الرى فى مصر وقد استخدمت مصر مياه النيل فى الزراعة وكانت تتبع نظام رى الحياض الذى استمر منذ فجر التاريخ ، وهو نظام كان يتفق مع أحوال النهر ويلائم مناخ البلاد ، ولو أن الفيضان كان مبكراً أو جاء متأخراً لما كان من السهل تطبيق هذا النظام ولما ناسب زراعة الغلات الشتوية أو الصيفية (١) .

والحقيقة أن انتظام ورود ماء الفيضان جعل فى الإمكان رى الأراضى فى مصر وكان أثره عظيماً بالنسبة لرخاء البلاد (٢) وقد عرف المصريون قيمته وأدركوا أهميته وأثره في حياتهم فعلى وفائه وفيضه تتوقف حياة البلاد من الخصب والنماء وإذا أجدب تصاب بالجدب والقحط والجفاف (٣) ، وكما يقول المقريزى : " لولا ما جعل الله فى نيل مصر من حكمة الزيادة فى زمن الصيف على التدريج حتى يتكامل رى البلاد ، وهبوط الماء عنها عند بدء الزراعة لفسد إقليم مصر ، وتعذر سكناه لأنه ليس فيه أمطار كافية ولا عيون جارية تعم أرضه إلا بعض اقليم الفيوم (٤)

فيضان النيل وآثره فى الزراعة :

قال المقريزى . " ويحصل لأهل مصر بوفاء النيل ست عشرة ذراعاً ، فرح عظيم فإن ذلك كان قانون الرى فى القديم واستمر ذلك إلى يومنا هذا " (٥)

ويبدو أن حد الوفاء للنيل كان ست عشرة ذراعاً فإذا قل عن ذلك جاء القحط والجدب ، وقد راعى المصريون ذلك ، ولاهتمامهم بهذا الفيضان يروى ابن إياس عن بن عبد الحكم أنهم قبل الإسلام

---

(١) وليم نظير · الثروة النباتية ص ١٣ .

(٢) د راشد البراوى حالة مصر الاقتصادية ص ٦٣ .

(٣) وليم نظير الثروة النباتية ص ١٩

(٤) المقريزى الخطط ج ١ / ص ٥٧ - ٥٨ .

(٥) المصدر السابق ص ٦١ .

كانوا يلقون فتاة جميلة فى النيل أملاً فى زيادته وفيضانه ، فلما فتح عمرو بن العاص مصر فى عهد عمر بن الخطاب حضر إليه جماعة من الأقباط وقالوا له . أيها الأمير إن لنيلنا فى كل سنة عادة لا يجرى إلا بها فقال لهم : ما هى ؟ قالوا : إذا كان اثنتا عشرة ليلة تخلو من بؤونه من الشهور القبطية عمدنا إلى جارية بكر وأخذناها من أبويها وجعلنا عليها الحلى والحلل ثم نلقيها فى بحر النيل حتى يفيض ، فلما سمع عمرو بن العاص ذلك قال : هذا لا يكون فى الإسلام أبداً ، ولما لم يجر النيل في تلك الفترة ، كتب عمرو بن العاص إلى الخليفة عمر بن الخطاب يخبره بهذه القصة ، فلما وصل كتاب عمرو إلى الخليفة وعلم ما فيه كتب بطاقة وأرسلها إلى عمرو بن العاص وأمره أن يلقيها فى النيل وقد كتب فيها : " بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر بن الخطاب إلى نيل مصر ، أما بعد فإن كنت تجرى من قبلك فلا تجر ، وإن كان الله الواحد القهار هو الذى يجريك ، فنسأل الله الواحد القهار أن يجريك " . وألقى عمرو البطاقة فى النيل فأجراه الله فى تلك الليلة ست عشرة ذراعاً (١) و قضى المسلمون على هذه السنة السيئة التى كانت سائدة فى مصر قبل الاسلام .

ولقد كانت الزراعة قاصرة على شريط ضيق من الأرض ممتد على جانبى النيل والترع التى تخرج منه ومن فروعه فإذا جاء ماء الفيضان غمر الأراضى وظل فوق سطحها مدة كافية من الزمن حتى تتشبع الأرض بالماء وحتى يتيسر رسوب الطمى الذى يكسبها الخصب ويعطيها قوة الإنماء وإذا تم هذا كله أخذ الفلاحون فى صرف الماء تدريجياً عن الأراضى وإرجاعه مرة ثانية إلى النهر ، وبعد الانتهاء من هذه العملية كانوا يتركون المحصول حتى أوان النضج ثم يبدأون الحصاد منه (٢) .

مقاييس النيل :

اهتم المصريون بمراقبة النيل لمعرفة منسوب مياه الفيضان ودفعهم ذلك إلى انشاء المقاييس منذ أقدم العصور . ويذكر المقريزى أن أول من قام بقياس النيل بمصر يوسف عليه السلام – فقد وضع مقياساً بمنف ، وأن القبط كانت تقبس عليه إلى أن بطل ، وبعد الفتح الاسلامى لمصر بنى عمرو

---

(١) ابن إياس . بدائع الزهور ج ١ ق ١ / ص ١١١ ، المقريزى : الخطط ج ١ / ص ٥٨ .

(٢) د . راشد البراوى . حالة مصر الاقتصادية ص ٦٦ .

بن العاص مقياساً بأسوان ، وأقام عبد العزيز بن مروان مقياساً بحلوان ، ثم وضع أسامة بن زيد التنوخي مقياساً بالجزيرة في عهد الوليد بن عبد الملك الأموي (١) ولما تهدم مقياس أسامة بن زيد أقام المتوكل مقياساً آخر بالجزيرة وهو الذي يقاس عليه الماء الآن (٢) .

والمقياس عبارة عن بركة في وسطها عمود طويل عليه علامات الأذرع والأصباع (٣) ، وكانت المقاييس تحت إشراف الحكومة ورقابتها وتسجل أقصى ما يبلغه ارتفاع الفيضان فيذكر الرحالة ناصر خسرو أنه عند زيارته لمصر وجد أن المصريين أعدوا مقاييس وعلامات لمعرفة زيادة النيل ورتبوا عاملاً لتسجيل الزيادة ، ولأهمية وظيفته كان يتناول راتباً يبلغ ألف دينار (٤)

ويذكر المقريزي أنه في سنة ٣٦٢ هـ حين بلغت زيادة الماء الجديد سبع عشرة ذراعاً وإصبعين أطلق المعز لمتولي القياس الجائزة والخلع (٥) .

وقد كانت مصر كلها تروى من ست عشرة ذراعاً غامرها وعامرها لما أحكموا من جسورهم وبناد قناطرها وتنقية خلجانها (٦) .

تحسين الري في مصر :

نظراً لأن تحسين الري في مصر يرتبط بعمق الترع والقنوات ارتباطه بالمحافظة الكاملة على الجسور المقامة في عرض وادي النيل اهتمت الحكومات المصرية القائمة بإقامة الجسور وصيانتها لتنظيم الانتفاع بماء النيل (٧) .

وكانت صيانة الجسور عملاً إجبارياً ، وكانت تنقسم إلى قسمين :

---

(١) المقريزي . الخطط ج ١ / ص ٥٧ - ٥٨ .

(٢) المصدر السابق ص ٥٩ .

(٣) المقدسي . أحسن التقاسيم ص ٢٠٦ .

(٤) ناصر خسرو سفرنامه ص ٨١

(٥) المقريزي . اتعاظ الحنفا ج ١ / ص ١٤٣

(٦) المقريزي . الخطط ج ١ / ص ٦٠ .

(٧) د حسن إبراهيم . تاريخ الإسلام السياسي ج ٤ / ص ٣٨٩ .

ا- الجسور السلطانية :

وتشرف عليها الحكومة المركزية وترعاها [1] وكان لها رسوم تستخرج بأيدى مستخدمين من الديوان ، وتنفق أموالها على صيانة هذه الجسور ، وقد أصبحت هذه الرسوم فى عهد الأيوبيين جزءا من الخراج يدفعه الفلاحون بنسبة ما يزرعه كل منهم [2] .

ب- الجسور البلدية :

وهى تختص بناحية دون أخرى فيتولى إقامتها ورعايتها المقطعون والفلاحون من أصل مال ناحيتهم [3]

وقد نفذت حكومة الحاكم بأمر الله الفاطمى مشروعاً كان ذا أثر عظيم فى تسهيل الرى والمواصلات ، ففى سنة ٤٠٤ هـ طهر خليج الاسكندرية وبلغ ما انفقته الحكومة على هذا العمل خمسة عشر ألف دينار [4] .

وفى عهد وزارة الأفضل بن بدر الجمالى نفذ مشروع مائى عظيم الأهمية إذ أشرف أبو المنجا ابن شعيا وكان علي رأس إدارة الزراعة على حفر خليج يخرج من النيل وقد عرف باسمه فيما بعد ، وكان الغرض منه رى جانب كبير من الأراضى الواقعة شرقى فرع دمياط [5] .

وقد أهتم الأيوبيين بعمارة القناطر والجسور حتى أن صلاح الدين الأيوبى عهد إلى الأمير قراقوش الأسدى بذلك [6]

---

(١) المقريزى · الخطط ج ١ / ص ١٠١ .

(٢) د . راشد البراوى : حالة مصر الاقتصادية ص ٦٥ .

(٣) المقريزى · الخطط ج ١ / ص ١٠١ .

(٤) د. راشد البراوى حالة مصر الاقتصادية ص ١٠٢ .

(٥) د جمال سرور · الدولة الفاطمية ص ١٥٣ ، د. راشد البراوى حالة مصر الاقتصادية ص ١٠٤ .

(٦) د سعيد عاشور · الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام ص ١٦٦ .

أثر الزراعة فى حياة السكان

لقد كان للزراعة فى مصر أثر واضح فى رخص الأسعار وكثرة السلع الغذائية مما أحدث رواجاً اقتصادياً وانتعاشاً اجتماعياً فى حياة السكان باستثناء الفترات التى حدثت فيها أزمات اقتصادية نتيجة القحط والجفاف .

ففى مصر نجد أنها تعتمد فى زراعتها على نهر النيل وإذا نقص فيضان النيل عن المستوى اللازم لرى الأراضى ، كان المصريون يعجزون عن تلافى النتائج الخطيرة المترتبة على هذه الظاهرة الطبيعية نظراً لعدم وجود نظام للرى الثابت يرتكز على قواعد علمية دقيقة .

أما الفيضان العالى فلم يكن يقل خطراً عن الفيضان المنخفض ، وبرغم أنه كان قليل الحدوث إلا أن أثره كان خطيراً لأنه يغرق الأراضى ويفسد المراعى ويهلك الماشية اللازمة للزرع ، وفى كل هذه الحالات كانت الزراعة تتعذر فى كثير من المناطق ، ويترتب على ذلك قلة العرض من المواد الغذائية بالنسبة إلى الطلب وترتفع الأسعار (١) ويسود الغلاء الذى يؤثر فى حياة السكان نتيجة قلة المزروعات الغذائية .

وحينما يصل ارتفاع النيل إلى الحد المناسب والمنسوب الملائم للزراعة يقوم الفلاحون بزراعة الأراضى ، وتنخفض الأسعار وتتوفر المواد الغذائية ، وتهدأ الأحوال ، وتستقر الأمور وتستقبل البلاد الرخاء .

ويذكر الرحالة ناصر خسرو أنه عند زيارته لمصر كان النيل قد بلغ حد الوفاء المناسب (٢) ، فكان الرخاء عظيماً لدرجة أنه رأى فى يوم هذه الفواكه والرياحين : الورد الأحمر والنيلوفر والنرجس والنارنج والليمون والتفاح والياسمين والريحان والسفرجل والرمان والكمثرى والبطيخ والموز والزيتون والبليلج (الاهليلج) والرطب والعنب وقصب السكر والباذنجان والقرع واللفت والكرنب والفول الأخضر والخيار والقثاء والبصل والثوم والجزر ، ثم يذكر أن سبب اجتماع كل هذه الأشياء بمصر أن كل أنواع الجو من البارد والحار موجود بها (٣) ويذكر أن أهل مصر كانوا فى غنى عظيم حين كان هناك (٤) .

ويذكر المقدسى حين زار مصر أن " الفسطاط حسن الأسواق والمعايش ، ويطول الوصف

---

(١) د . راشد البراوى حالة مصر الاقتصادية ص ٧٩

(٢) ناصر خسرو . سفرنامه ص ٩٣

(٣) المصدر السابق ص ١٠٣

(٤) المصدر السابق ص ١٠٥ .

بنعت أسـواقه ، اشـتـريت به الخـبـز الحـوارى ثلاثين رطلاً بدرهـم والبـيض ثمـانية بدانق والموز والرطب رخيص " (١)

ويذكر الإدريسى أن مدينة الفسطاط هى مصر (٢) ، وهى مدينة كبيرة على غاية من العمارة والخصب والطيب الحسن فسيحة الطرقات متقنة البناءات قائمة الأسواق نافقة التجارات متصلة العمارات نامية الزراعات لأهلها همم سامية ، ونفوس نقية عالية ، وأموال مبسوطة نامية وأمتعة رائعة لاتشتغل نفوسهم بهم ، ولا تعقد قلوبهم علي غم لكثرة أمنهم ورفاهة عيشهم (٣) .

والحقيقة أن الإدريسى بين أثر الزراعة الكبير فى حياة سكان مصر من خلال هذا التحليل النفسى العظيم الذى عرض له ، فالزراعة هى مصدر رخاء مصر ومنبع ثرواتها فالمحاصيل الزراعية الغذائية المتوفرة تؤثر تأثيراً إيجابياً على نشاط السكان اليومى فينطلقون لتحقيق التقدم فى شتى المجالات ، وهناك بعض المحاصيل الزراعية مثل : القطن - الكتان - قصب السكر - الزيتون " تستخدم فى الصناعة حيث تساهم في نمو الموارد المالية للبلاد .

وزراعة بعض النباتات الطبية مثل : البلسان الخيار شنبر - شجر الأثل (المن) وتركيب الأدوية من هذه النباتات جعلها مواد مؤثرة ذات قيمة علاجية لأبناء الوطن .

٢- الصناعة :

مدخل :

كان للصناعة حظ كبير من عناية ورعاية الخلفاء والسلاطين والأمراء ، ولما لها من أثر كبير فى رواج التجارة وازدهار الاقتصاد ، فاهتموا باستخدام موارد الثروة المعدنية على اختلافها فاستخرجوا الذهب والفضة والنحاس والحديد ، كما أقاموا الصناعات التى اتخذت مادتها الخام من الزراعة .

ولقد أحسن المصريون الاستفادة من ثرواتهم المعدنية والطبيعية المختلفة ، واتقنوا الكثير من الصناعات واشتهروا بها ، فتقدمت الصناعة المصرية المصرية تقدماً ملموساً ، وكان مما ساعد على تقدمها استقرار الأمور فى البلاد ، فضلاً عن حياة الترف والبذخ التى سادت المجتمع فى بعض المدن المصرية وبخاصة القاهرة والفسطاط وكان لهذه الحياة تأثير كبير فى الانتاج الصناعى .

وسوف نورد أهم المعادن فى مصر والتى اعتمدت عليها بعض الصناعات ثم نعرض للصناعات المختلفة التى قامت فى البلاد ، ونبين أثر هذه الصناعات فى حياة السكان

---

(١) المقدسى . أحسن التقاسيم ص ١٩٧ .
(٢) الإدريسى . نزهة المشتاق ج ١ / ص ٣٢٢ .
(٣) المصدر السابق ص ٣٢٣

أ - المعادن :

توجد في مصر بعض المعادن التي استخدمت في كثير من الصناعات وساهمت في ازدهار الحالة الاقتصادية في البلاد في معظم الأوقات ، ومن هذه المعادن :

* الذهب :

الذهب أكثر المعادن الثمينة شيوعاً بين الناس غنيهم ومتوسطهم وفقيرهم ، وفي مصر توجد مناجمه بالصحراء الحارة التي تقع إلى شرقي النيل في الصعيد بين أسوان وعيذاب وكانت أكبر مدينة لمناجم الذهب هي العلاقي التي تقع على مسيرة خمس عشرة مرحلة من أسوان ، فكان العمال يتجولون في الليالي التي يضعف فيها ضوء القمر ويعلمون على المواضع التي يرون فيها شيئاً مضيئاً علامة يعرفونها ويبيتون هناك فإذا ما أصبحوا حملوا أكوام الرمل التي علموا عليها ومضوا بها إلى آبار هناك فيغسلونها بالماء ويستخرجون التبر منها ويقومون بعد ذلك بسبكه (١) .

ويقول المقدسي : « في الفسطاط جبل فيه معدن الذهب » (٢) ويذكر الإدريسي أن « بجبل المقطم كثير من الذهب الصالح » (٣) ويوجد الذهب في الواحات (٤) ، وفي مدينة قوص (٥) .

الزمرد :

اشتهر الصعيد بوفرة مناجم الزمرد الذي كان يصدر إلى أوربا وآسيا والحبشة (٦) ، ويتفق كل من المقريزي والعمري على أن مناجمه توجد جنوبي أسوان على مسافة ثمانية أيام من قوص في برية منقطعة عن العمارة (٧) ويوجد في صدر مغارة طويلة في حجر أبيض منه يستخرج الزمرد والحجر

---

(١) آدم متز . تاريخ الحضارة الإسلامية ج ٢ / ص ٢٣٥ ، المقريزي : الخطط ج ١ / ص ١٩٧ ، د. نعيم زكي : طرق التجارة ص ٢٥٣ .

(٢) المقدسي : أحسن التقاسيم ص ٢٠٩ .

(٣) الإدريسي . نزهة المشتاق ج ١ / ص ١٣٣ .

(٤) الحميري : الروض المعطار ص ٦٠٠ .

(٥) المقريزي . الخطط ج ١ / ص ٢٣٦

(٦) د . نعيم زكي : طرق التجارة ص ٢٥٠

(٧) المقريزي · الخطط ج ١ / ص ١٩٧ ، العمري . مسالك الأبصار ص ٧٨ .

الأبيض ثلاثة أنواع أحدهما يقال له طلق كافورى والثانى طلق فضى والثالث يقال له حجر حرموه يضرب فى هذه الحجارة حتى يخرج الزمرد وهو كالعروق فيه [1] ويرى آدم متز أن الجبل الوحيد الذى به معدن الزمرد فى المملكة الإسلامية يوجد فى مصر [2] ويرى القلقشندى أنه معدن لا نظير له فى سائر أقطار الأرض [3] .

* معدن النطرون :

يوجد فى بركة النطرون التى بالجبل الغربى غربى عمل البحيرة وهى من أعظم المعادن وأكثرها متحصلاً ويوجد فى الخطارة من الشرقية ويعرف بالخطارى ، ويوجد فى البحيرة بقرية تسمى الطرّانة على مسيرة يوم فيها مائة فدان تشغل نحو مائة ألف دينار [4] وترنوط بها معدن النطرون الجيد [5] .

* الشب :

كان الشب يستخرج من أسوان [6] ، والواحات [7] ، ويحمله العرب إلى ساحل قوص وأخميم والبهنسا وينقل منها إلى الإسكندرية حيث يصدر للخارج [8] ، ويتدرج الشب فى أنواعه من النوع الممتاز الذى يشبه الثلج فى لونه ، وإن شابته أحياناً بعض الألوان الباهتة كالأحمر والأخضر ويستخدم الشب فى بعض الأغراض الطبية وفى تثبيت الألوان والصبغات على الملابس فيكسبها لمعاناً شديداً ، كما كان يستخدم فى الرسم والصباغة والدباغة [9] .

---

(١) العمرى : مسالك الأبصار ص ٧٨ .

(٢) آدم متز : تاريخ الحضارة الإسلامية ج ٢ / ص ٢٤٠ .

(٣) القلقشندى . صبح الأعشى ج ٣ / ص ٢٨٧ .

(٤) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ / ص ، ٤٦٠ .

(٥) الإدريسى : نزهة المشتاق ج ١ / ص ٣٤١ (ترنوط . قرية البقرب من المحلة)

(٦) المصدر السابق ص ٢٨٨ .

(٧) المصدر السابق ص ٤٥٩ .

(٨) د . راشد البراوى : حالة مصر الاقتصادية ص ١٢٤ .

(٩) د . نعيم زكى : طرق التجارة ص ٢٢٨ .

* **معدن النفط :**

يقول القلقشندى : « على ساحل بحر القلزم يسيل دهنه من أعلى الجبل قليلاً وينزل إلى أسفله فيتحصل فى أزياء قد وضعها له العمال وتأتى العرب فتحمله إلى خزائن السلاح السلطانية » (١) .

* **بعض المعادن الأخرى :**

يذكر المقريزى أن معدن الزئبق يوجد فى قفط (٢) ، ويقول الحميرى إنه « فى أرض الواحات الخارجة جبل معترض فيها (٣) سامى الذروة فيه معدن يستخرج منه حجر اللازورد » (٤) ويذكر الإدريسى أنه يحمل إلى أرض مصر فيصنع بها (٥) ومن الأحجار البحرية يستخرج معدن الرخام فى مدينة الإسكندرية (٦) .

وفى الجانب الشرقى من أسوان جبل رخام عظيم تقطع منه العمد التى يسميها أهل مصر الأسوانية وفيها حجارة الطواحين (٧) فى شهر يونيه والشهر الذى يليه ويستخرج منه جوهر نفيس يذهب الغائصون إلى تلك الجزائر فى الزوارق ويقيمون فيها أياماً ثم يعودون بما قسم الله لكل منهم(٨).

وفى وادى هبيب وهو الوادى الذى يقع بالجانب الغربى من أرض مصر فيما بين مريوط والفيوم ويسمى وادى النطرون يجلب منه الملح ، ففيه الملح الأندرانى والملح السلطانى ، وهو على هيئة ألواح الرخام ، وفيه الكحل الأسود (٩) .

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ / ص ٢٨٨ ، ص ٤٥٩ .

(٢) المقريزى : الخطط ج ١ / ص ٢٣٢ .

(٣) الحميرى : الروض المعطار ص ٦٠٠ .

(٤) الادريسى : نزهة المشتاق ج ١ / ص ١٢٢ .

(٥) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ١٩٦ .

(٦) الخطط ج ١ / ص ١٩٧ ، المسعودى : مروج الذهب ج ١ / ص ٣٥١

(٧) المقريزى : الخطط ج ١ / ص ٢٠٣ .

(٨) ابن جبير . الرحلة ص ٤٦ .

(٩) المقريزى : الخطط ج ١ / ص ١٨٦ .

ب - الصناعات :

تعددت الصناعات فى مصر واعتمدت على المواد الخام الزراعية واعتمد البعض الآخر على المعادن والمواد الخام غير الزراعية ومن هذه الصناعات :

* صناعة المنسوجات :

ازدهرت فى مصر صناعة المنسوجات ، وتمتعت برواج كبير وزاد انتاجها وتنوعت أصنافها وكان الكتان هو القماش الذى اختصت به مصر وكانت الفيوم أكبر مكان لزراعته وكان يصدر إلى كثير من البلدان (١) وكان المركزان الكبيران لصناعة نسيج الكتان هما الفيوم وبحيرة تنيس بنواحيها وهى : مدينة تنيس ، ودمياط ، وشطا ، ودبيق ، التى كانت أكبر المدن التى تصنع النسيج واليها كان ينسب أجود أنواع الأقمشة وهو المسمى بالدبيقى (٢) .

ويذكر ابن بسام أنه يوجد بتنيس من المناسج التى تعمل فيها الثياب خمسة آلاف منسج ويعمل فيها عشرة آلاف عامل سوى من يطيب أو يرقم من الذكور والإناث وتنتج أنواعاً مختلفة من الأقمشة الجيدة مثل : الثياب المذهبة والمقاطع والمفارش والستور والسقلاطون الدبيقى والمصمت الدبيقى والعتابى وما لا يمكن وصفه (٣) .

ويذكر المقريزى : أن بتنيس تصنع ثياب الشروب التى لا يصنع مثلها فى الدنيا ، وكان يصنع فيها للخليفة ثوب يقال له البدنه لا يدخل فيه من الغزل سداء ولحمة غير أوقيتين وينسج باقيه بالذهب بصناعة محكمة لا تحتاج إلى تفصيل ولا خياطة تبلغ قيمته ألف دينار (٤) .

وفى القرن الرابع الهجرى أصبحت تنيس ودمياط أكبر مركزين لصناعة النسيج (٥) ، ويذكر

---

(١) آدم متز الحضارة الإسلامية ج ٢ / ص ٢٥٨ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) ابن بسام : أنيس الجليس فى أخبار تنيس ص ١٨٥ .

(٤) المقريزى الخطط ج ١ / ص ١٧٧ .

(٥) آدم ميتز . الحضارة الإسلامية ج ٢ / ص ٢٥٨ .

الإدريسي : أن « بمدينة تنيس ودمياط يتخذ رفيع الثياب من الدبيقي والشروب والمصبغات من الحلل التنيسي التي ليس في جميع الأرض ما يدانيها في الحسن والقيمة » (١) .

وكانت كسوة الكعبة تصنع بتنيس ويروى المقريزي عن الفاكهي أنه رأى كسوة مما يلي الركن الغربي من الكعبة مكتوباً عليها : بسم الله ، بركة من الله لعبد الله المهدي محمد أمير المؤمنين أطال الله بقاءه مما أمر به إسماعيل ابن إبراهيم أن يصنع في طراز تنيس على يد الحكم بن عبيده ورأى كسوة من قباطي مصر مكتوباً عليها : بسم الله ، بركة من الله مما أمر به عبد الله المهدي محمد أمير المؤمنين أصلحه الله محمد بن سليمان أن يصنع في طراز تنيس كسوة للكعبة على يد الخطاب بن مسلمة عامله سنة ١٥٩هـ (٢) .

ويصف الرحالة ناصر خسرو ما ينسج في تنيس فيقول : « وينسج بها القصب الملون من عمامات ووقايات ومما يلبس النساء ولا ينسج مثل هذا القصب في جهة ما غير تنيس ، والأبيض منه ينسج في دمياط ، وما ينسج منه في مصانع السلطان لا يباع ولا يعطى لأحد ، ولتنيس صناع مختصون بنسج ملابس السلطان ، وينسجون في مدينة تنيس البوقلمون الذي لا ينسج في مكان آخر من العالم وهو قماش ذهبي يتغير لونه بتغير ساعات النهار ، وتحمل أثوابه من تنيس إلى المشرق والمغرب » (٣) .

وكان من جملة عمل مدينة تنيس قرية يقال لها « تونة » يعمل بها طراز تنيس ، ويصنع بها من جملة الطراز كسوة الكعبة أحياناً ويروى المقريزي غن الفاكهي أنه قال : « رأيت أيضاً كسوة لهارون الرشيد من قباطي مصر مكتوباً عليها : باسم الله بركة من الله للخليفة الرشيد عبد الله هارون أمير المؤمتين أكرمه الله مما أمر به الفضل بن الربيع أن يعمل في طراز تونة سنة ١٩٠هـ » (٤) .

وقد امتازت مصر بصنع الكتان فاشتهرت به تنيس ودمياط والإسكندرية ، وكانت الدولة تشرف على هذه المصانع (٥) . وكان القماش الذي يصنع بمصر هو الكتان الأبيض ، وكان من ثياب

---

(١) الإدريسي : نزهة المشتاق ج ١ / ص ٢٣٨ .

(٢) المقريزي : الخطط ج ١ ٪ ص ١٨١ .

(٣) ناصر خسرو : سفرنامه ص ٧٧ – ٧٨ .

(٤) المقريزي . الخطط ج ١ / ص ١٨١ .

(٥) ناصر خسرو : سفرنامه (حاشية ص ٧٨) .

الإسكندرية ما يباع الكتان منه نوع من الثياب يسمى الشرب كل وزن درهم منه بدرهم من الفضة (١) .

وفى دبيق (٢) توجد الأقمشة الحريرية المزركشة (٣) وإليها تنسب الثياب المثقلة والعمائم الشرب الملونة والدبيقى العلم المذهب ، وكانت العمائم الشرب المذهبه تعمل بها وقد أحدثت هذه العمائم فى أيام العزيز بالله الفاطمى سنة ٣٦٥هـ (٤)

وإلى مدينة شطا (٥) تنسب الثياب الشوطية وكانت كسوة الكعبة تصنع بها (٦) ، وقد بنى الخليفة المعز لدين الله داراً للكسوة كانت تصنع فيها جميع أنواع الثياب والبزويكسى بها الناس على اختلاف أصنافهم كسوة الشتاء والصيف وكتب بذلك كتباً (٧) .

ويصنع ببهنسة الستور (٨) البهنسية وتنسج الطرز والمقاطع السلطانية والمضارب الكبار ، والثياب المميزة ويقيم بها التجار الستور الثمينة ، ولا يصنع فيها شئ من الستور والأكسية وسائر الثياب إلا وفيها اسم المتخذ له مكتوباً على ذلك مطرزاً جيلاً بعد جيل ، وهذه الأكسية والفرش اشتهرت فى جميع البلدان (٩) .

وكانت صناعة النسيج فى مصر من الرقى بحيث أمكن أيضاً صنع بعض الأقمشة الصوفية(١٠) ، فكانت تصنع بمدينة طحا إحدى قرى الصعيد ثياب الصوف الرفيعة (١١) وفى القيس تصنع الأكسية

---

(١) آدم متز : الحضارة الإسلامية ج ٢ / ص ٢٥٨

(٢) دبيق قرية من قرى دمياط ويمكن القول أنها فى محلة بلدة دبيج الحالية الواقعة على مسافة اثنى عشر كيلو متراً جنوب السنبلاوين (د . راشد البراوى : حالة مصر الاقتصادية ص ٢٨٣) .

(٣) ناصر خسرو . سفرنامه (حاشيه ص ٩٦) .

(٤) المقريزى : الخطط ج ١ / ص ٢٢٦

(٥) شطا : على بعد أميال من دمياط وإلى الجانب الغربى لبحيرة تنيس (بحيرة المنزلة) (د . راشد البراوى : حالة مصر الاقتصادية ص ٢٨٢) .

(٦) المقريزى : الخطط ج ١ / ص ٢٢٦ .

(٧) المصدر السابق ص ٤٠٩ .

(٨) المصدر السابق ص ٤٠٩ .

(٩) الحميرى : الروضى المعطار ص ١١٤ ، الإدريسى : نزهة المشتاق ج ١ ص ١٢٠ .

(١٠) آدم متز : تاريخ الحضارة الإسلامية ج ٢ / ص ٢٥٨ .

(١١) الإدريسى · نزهة المشتاق ج ١ / ص ١٢٥ ، المقدسى : أحسن التقاسيم ص ٢٠٢ .

الصوفية من الصوف العسلى العين المصبوغ والستائر والمضارب (١) .

ولقد تمتعت تجارة المنسوجات برواج عظيم وحصل المشتغلون بها على ثروات عظيمة حتى قيل إن أحد تجار البز ترك تركة قدرها ألف دينار ، وكان فى مصر وحدها مائتا خان لبيع المنسوجات لا يقل إيجار الواحد منها عن اثنى عشر ألف دينار فى السنة (٢) .

* صناعة السفن :

اهتم المصريون بصناعة السفن فيذكر المقريزى نقلاً عن المسبحى أن العزيز بالله الفاطمى بنى دار الصناعة التى بالمقس وأنشأ بها ستمائة مركب لم ير مثلها فى البحر (٣) .

والسفن المصرية كانت على نوعين البحرية والنيلية وتصنع فى الثغور كالإسكندرية وقوص ودمياط وفى جزيرة الروضة والمقس فى القاهرة (٤) .

ويقول المقريزى عن دار صناعة السفن « الصناعة اسم لمكان قد أعد لإنشاء المراكب الحربية التى يقال لها السفن واحدتها سفينة وهى بمصر على قسمين نيلية وحربية فالحربية هى التى تنشأ لغزو العدو وتشحن بالسلاح وآلات الحرب والمقاتلة فتمر من ثغر الإسكندرية وثغر دمياط وتنيس والفرما إلى جهاد أعداء الله من الروم والفرنج ، وكانت هذه المراكب الحربية يقال لها الأسطول ، وأما المراكب النيلية فإنها تنشأ لتمر فى النيل صاعدة إلى أعلى الصعيد ومنحدرة إلى أسفل الأرض لحمل الغلال وغيرها (٥) .

ولقد قويت العناية بالأسطول فى مصر منذ قدم المعز وأنشأ المراكب الحربية واقتدى به خلفاؤه من بعده فكان لهم اهتمام بأمور الجهاد وعناية بالأسطول وواصلوا إنشاء المراكب الحربية بمدن مصر وإسكندرية ودمياط من الشوانى الحربية والشلنديات والمسطحات ، وكانت قطع الأسطول فى أيام المعز

---

(١) المقريزى . الخطط ج ١ / ص ٢٠٤ .

(٢) د . راشد البراوى : حالة مصر الاقتصادية ص ١٣٨ .

(٣) المقريزى : الخطط ج ٢ / ص ١٩٥ .

(٤) المصدر السابق ص ١٨٩

(٥) المصدر السابق

لدين الله تزيد على ستمائة قطعة وفى أواخر الدولة الفاطمية كان الأسطول قد ضعف ووصل عدد قطعه إلى ثمانين شونة وعشر مسطحات وعشر حمالات (١) ، ولم يزل الأسطول على ذلك إلى أن أمر شاور بإحراقه وإحراق الفسطاط حين استولى الصليبيون على بلبيس واستعدوا للزحف على الفسطاط (٢) فلما زالت الدولة الفاطمية على يد صلاح الدين يوسف بن أيوب اعتنى بأمر الأسطول وأفرد له ديواناً عرف بديوان الأسطول ، وعين لهذا الديوان الفيوم بأعمالها والحبس الجيوشى فى البرين الشرقى والغربى وعين له أيضاً الخراج وهو أشجار من سنط لا تحصى كثرة فى البهنساوية وسفط والأشمونين والأسيوطية والأخميمية والقوصية ، وسلم هذا الديوان لأخيه الملك العادل أبى بكر محمد بن أيوب ، فأقام فى مباشرته وعمالته صفى الدين عبد الله بن على بن شكر ، فلما مات صلاح الدين استمر الحال فى الأسطول قليلاً ثم قلّ الاهتمام به وصار لا يفكر فى أمره إلا عند الحاجة إليه (٣) .

ولم يتوقف الأمر على الأسطول الحربى ، بل نشطت صناعة المراكب لأغراض النقل والتجارة نتيجة للتوسع التجارى الذى شاهدته البلاد فى هذا العهد ، فكانت السفن تقلع إلى موانى شمالى إفريقية وجنوب أوربا وجزيرة صقلية والشام وتعود إلى مصر محملة بالسلع الكثيرة ، كما كانت السفن تملأ سطح النيل محملة بالغلال إلى الفسطاط ، والمتاجر الشرقية من أسوان وقوص بعد وصول القوافل (٤) ، وقد أورد ابن بسام أسماء كثير من المراكب المستخدمة لصيد السمك مثل : الجرافات ، والانكيارات والعينات ، والسد ، والطراحين ، والجراجن ، والباريات ومراكب الترعة ، والفلاحين والطباخين ، ومراكب القود والدق ومراكب المضارب ومراكب القرندس ، ومراكب اللبانين ومراكب الدور ، وأكثر ما يحمل المركب منها ستون رجلاً ، وأقله ثلاثة رجال (٥) .

ويذكر ابن جبير طريقة إنشاء نوع من السفن تسمى الجلاب كانت تستخدم فى نقل الحجاج من عيذاب إلى جدة فيقول : والجلاب ملفقة الانشاء لا يستعمل فيها مسمار البته إنما هى مخيطة بأمرا من القنبار وهو قشر جوز النارجيل يدرسونه إلى أن يتخيط ويفتلون منه أمراساً يخيطون منها المراكب

---

(١) المقريزى : الخطط ج ٢ / ص ١٩٣ .

(٢) المصدر السابق ص ١٩٤

(٣) المصدر السابق

(٤) د . راشد البراوى . حالة مصر الاقتصادية ص ١٥٢

(٥) ابن بسام : انيس الجليس ص ١٨٦ .

ويخللونها بدسر من عيدان النخل فإذا فرغوا من إنشاء الجلبة على هذه الصفة سقوها بالسمن أو بدهن الخروع أو بدهن القرش ليلين عودها ويرطب لكثرة الشعاب المعترضة فى هذا البحر (١) ، وفى مدينة الصالحية تصنع سفن كثيرة حمولة كل منها مائتا خروار (حمل حمار) وتنقل البضاعة الى مدينة مصر (٢) .

* صناعة السكر :

ومن الصناعات الهامة التى ازدهرت فى مصر كانت صناعة السكر التى لقيت اهتماما من الخلفاء لكثرة استعمالهم السكر فى مطابخهم ، اذ يقول ناصر خسرو : « ان راتب السكر فى اليوم الذى تنصب فيه مائدة السلطان فى كل من العيدين الخواص والعوام تبلغ خمسين ألف مَنْ ، وقد رأيت على المائدة شجرة أعدت للزينة تشبه شجرة الترنج كل غصونها وأوراقها وثمارها مصنوعة من السكر وعليها ألف صورة وتمثال مصنوعة كلها من السكر » (٣) .

وقد انشأ العزيز بالله الفاطمى دار الفطرة (٤) وقرر لها سبعمائة قنطار من السكر توزع على المصريين فى الأعياد والمواسم (٥) .

وفى اليوم الثانى عشر من شهر ربيع الأول كان الفاطميون يحتلفون بمولد النبى – صلى الله عليه وسلم – ويوزعون الحلوى على جميع الناس من الخاصة والعامة فيقول المقريزى : « إذا كان اليوم الثانى عشر من ربيع الأول تقدم بأن يعمل فى دار الفطرة عشرون قنطاراً من السكر اليابس حلواء يابسة من طرائفها وتعبئ فى ثلثمائة صينية من النحاس وهو مولد النبى – صلى الله عليه وسلم – فتفرق تلك الصوانى فى أرباب الرسوم من أرباب الرتب ، وكل صينية فى قوارة من أول النهار الى

---

(١) ابن جبير : الرحلة ص ٤٧ .

(٢) ناصر خسرو : سفرنامه ص ٨٠ .

(٣) المصدر السابق ص ١٠٨ .

(٤) المقريزى · الخطط ج ١ / ص ٤٢٥ .

(٥) المصدر السابق ص ٤٢٦

ظهره فأول أرباب الرسوم قاضى القضاة ثم داعى الدعاة ويدخل فى ذلك القراء بالحضرة والخطباء والمتصدرون بالجوامع بالقاهرة وقومة المشاهد » (١) .

والحقيقة أن هذه العادة ما زالت موجودة إلى عصرنا هذا مع اختلاف بسيط وهو أن المصانع تقوم بصناعة الحلوى وعرضها فى الأسواق لكى يشتريها الناس بأنفسهم .

وقد انتشرت مراكز صناعة السكر فى شتى أنحاء البلاد ومنها قفط ، وكان فيها أربعون مسبكاً للسكر وست معاصر للقصب (٢) والفسطاط بها مطابخ السكر (٣) وسمهود على الجانب الغربى من النيل وكان بها سبعة عشر حجراً لاعتصار القصب وملوى كان بها عدة أحجار لاعتصار قصب السكر ويصنعون العسل منه ، والبلينا كان فيها عدة مسابك للسكر (٤) ، ومدينة سمسطا فيها مزارع لقصب السكر ، ويعمل بها السكر ما يقوم بأكثر ديار مصر (٥) .

ويذكر العمرى أن السكر بمصر كثير جداً وتبلغ قيمته درهمين ونصف لكل رطل ومنها يجلب السكر على اختلاف أنواعه إلى كثير من البلاد (٦) وفى مصر سوق الحلاويين كان معداً لبيع أنواع الحلوى المختلفة والمصنعة من السكر ، وكان من أبهج الأسواق لما يشاهد فى الحوانيت التى بها من الأوانى وآلات النحاس الثقيلة الوزن البديعة الصنعة ذات القيم الكبيرة ، والكثير من الحلوى المصنعة بمختلف الألوان وتسمى المجمعة ، ويذكر المقريزى أنه شاهد السكر يباع بهذا السوق كل قنطار بمائة وسبعين درهماً (٧) ، وكان منظر هذا السوق فى شهر رجب بهيجاً لما كان يصنع فيه من السكر أمثال خيول وسباع وقطط وغيرها تسمى العلاليق لأنها تعلق بخيوط على الحوانيت فمنها ما يزن عشرة أرطال إلى ربع رطل تشترى للأطفال فلا يبقى جليل ولا حقير حتى يبتاع منها لأهله وأولاده ، وتمتلئ أسواق مصر والقاهرة وأريافها من هذا الصنف (٨) .

---

(١) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٤٣٣ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٣٢ .

(٣) المصدر السابق ص ٣٤٢ .

(٤) المصدر السابق ص ٢٠٣ ، ٢٠٤ .

(٥) الإدريسى : نزهة المشتاق ج ١ / ص ١٣٠ .

(٦) العمرى . مسالك الأبصار ص ١٨

(٧) المقريزى : الخطط ج ٢ / ص ٩٩ .

(٨) المصدر السابق ص ١٠٠ .

ويذكر السكر كأحد محصولات الشرق التى تصدر للغرب ، وينصح أطباء العصور الوسط مرضاهم باستخدامه لأمراض الصدر ، وهو بين المواد العقاقيرية لدى صيادلة العصور الوسطى (١) .

* صناعة الزيت :

تستخدم مختلف أنواع الزيوت التى تصنع فى مصر فى تتبيل بعض المأكولات أو لإنارة الشوارع أو للإضاءة داخل البيوت ، ويستخدم فى صنع الزيوت بذور الخس والقرطم واللفت والكتان والسمسم (٢) ، أما معاصر الزيت فقد انتشرت فى الأقاليم التى كانت تزرع فيها هذه النباتات ، ففى تنيس يذكر ابن بسام أن بها مائة معصرة للزيت أعداد رجالها مختلفة أقلهم اثنان وأكثرهم عشرون(٣)، ويذكر المقدسى أن المحلة الكبيرة بها سوق زيت حسن (٤) .

وكان أهم أنواع الزيوت ما اتخذ من الزيتون وكان رخيص الثمن (٥) ، وأما زيت السمسم المعروف باسم الشيرج فكان قليلاً وثمنه مرتفعاً (٦) وكانوا يستخرجون من بذور البنجر والفجل واللفت زيتا للمصابيح يسمونه الزيت الحار (٧) .

ويذكر القلقشندى أن زيت قناديل مسجد النبى – صلى الله عليه وسلم – كان يصل من مصر من أوقاف بها سبع وعشرين قنطاراً ، كل قنطار مائة وثلاثون رطلاً مصرياً (٨) .

* صناعة الصابون :

يذكر الإدريسى أن مدينة قفط بها مزارع للبقول مثل اللفت والخس ويجمعون بذورها ويطحنونها

---

(١) د . نعيم زكى : طرق التجارة ص ٢٤٣ .

(٢) جيرار : وصف مصر ص ١٩١

(٣) ابن بسام : انيس الجليس ص ١٨٥ .

(٤) المقدسى . أحسن التقاسيم ص ١٩٦ .

(٥) ناصر خسرو . سفرنامه ص ١٠٥

(٦) المصدر السابق ، د . راشد البراوى : حالة مصر الاقتصادية ص ١٨٠

(٧) آدم متز . تاريخ الحضارة الإسلامية ج ٢ / ص ٢٢٧ ، ناصر خسرو : سفرنامه ص ١٠٥ .

(٨) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ / ص ٣٠٤

ويستخرجون أدهانها ويصنعون منها أنواعاً من الصابون يتصرفون به فى جميع أرض مصر (١) ، وصابونها معروف النظافة (٢) ، وبالفسطاط وجدت مطابخ للصابون (٣) .

وكان المحتسب يأمر أصحاب الحمامات بغسل أرضيتها من الصابون لئلا تزلق أرجل الناس فيصابون بالضرر ، إذا كان استخدام الصابون فيها كثيراً (٤) .

* صناعة الشمع :

برع المصريون فى صناعة الشمع وكانوا يرسلون منه إلى بلاد الحجاز فى مكة والمدينة ، وكان الفاطميون يستخدمونه فى ليالى الوقود الأربع وهى ليلة مستهل رجب ، وليلة نصفه وليلة مستهل شعبان، وليلة نصفه ، وفى هذه الليالى يعطى للقاضى خمسون ديناراً يصرفها فى ثمن الشمع (٥) .

ويذكر المقريزى أنه إذا مضى النصف من جمادى الآخرة أمر الفاطميون أن يسبك فى خزائن دار أفتكين (٦) ستون شمعة وزن كل شمعة منها سدس قنطار بالمصرى وتحمل إلى دار قاضى القضاة لركوب ليلة مستهل رجب (٧) .

وتعتبر الإسكندرية من أكبر مراكز هذه الصناعة لأن لرطوبة الجو أثر كبير فى تماسك المواد المصنوع منها الشمع (٨) وكانت خزائن دار افتكين تحتوى على أصناف عديدة من الشمع المحمول من الإسكندرية (٩) ، ولأهمية استخدام الشمع فى حياة المصريين نهى المحتسبون عن غشه وبينوا أن

---

(١) الادريسى . نزهة المشتاق ج ١ / ص ١٢٨

(٢) الحميرى الروض المعطار ص ٤٧٧ .

(٣) المقريزى : الخطط ج ١ / ص ٣٤٢ .

(٤) الشيزرى · نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ص ٨٨ .

(٥) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٤٦٦ .

(٦) أفتكين . هو الأمير نصر الدولة أفتكين أحد مماليك أمير الجيوش بدر الجمالى قتله الأفضل بن بدر الجمالى لمبايعته نزار بن المستنصر (المقريزى · الخطط ج ١ / ص ٤٢٣) .

(٧) المقريزى : الخطط ج ١ / ص ٤٦٧ .

(٨) د . راشد البراوى : حالة مصر الاقتصادية ص ١٨٢

(٩) المقريزى · الخطط ج ١ / ص ٤٢٢

البعض قد يغش الشمع بشحم الماعز وبالقلفونية ، وقد يضعون فيه عند سبكه دقيق الباقلا أو الرمل الناعم أو الكحل الأسود المسحوق ثم يجعل ذلك بطانة فى الشمعة ثم يغطى بالشمع الخالص ومعرفة غشه أنك إذا أشعلت الشمعة ظهر فيها ذلك (١) .

ويذكر القلقشندى أن مصر كانت ترسل إلى المسجد النبوى الشريف بالمدينة المنورة مائة وستين شمعة ما بين كبيرة وصغيرة بالإضافة إلى زيت المصابيح والقناديل كل عام (٢) .

وكانت قافلة الحاج حينما تتحرك من مصر تصطحب معها إلى بلاد الحجاز الطيب والشمع والزيت (٣) .

* صناعة الثلج :

كانت صناعة الثلج من الصناعات التى اهتم بها المصريون وأشار اليها الرحالة ناصر خسرو بقوله : « جرت العادة فى مصر أن يحمل إلى دار الشراب السلطانية كل يوم أربعة عشر حملاً من الثلج وكان لمعظم الأمراء والخواص راتب من هذا الثلج ويصرف منه لمن يطلبه من مرضى المدينة وكذلك كل من يطلب من أهلها مشروباً أو دواء من الحرم السلطانى فإنه يعطاه » (٤) .

* صناعة الورق والتجليد :

أخذت صناعة الورق تتقدم باطراد فى مصر وساعدت سياسة الفاطميين على ذلك وقد دأبوا على جمع أكثر ما يمكن جمعه من الكتب وخاصة النادر منها حتى لا يتاح لمكاتب بغداد وقرطبة اقتناء هذه المؤلفات النفيسة (٥) ، فيذكر المقريزى أن خزانة كتبهم كانت تزيد على مائة وعشرين ألف مجلد ، وبعد استيلاء صلاح الدين على القصر بيعت هذه الخزانة وأخذ القاضى الفاضل منها مائة ألف كتاب

---

(١) الشيزرى : نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ص ٤٥

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ / ص ٣٠٤ .

(٣) المقريزى : اتعاظ الحنفا ج ١ / ص ٢٥٢ .

(٤) ناصر خسرو : سفرنامه ص ١٠٨

(٥) د . راشد البراوى : حالة مصر الاقتصادية ص ١٦٠ .

مجلد للمدرسة الفاضلية التى أنشأها بالقاهرة (١) .

وقد اختصت الفسطاط بالمطابخ التى يصنع فيها الورق المنصورى (٢) ، أما المادة التى استعملت فى عمل الورق فيدل تحليل الخرق التى صنع منها الورق على أنها من الكتان المضروب بالقطن ويبين ابن الحاج أنواع الورق التى كانت تستعمله آنذاك فيقول هناك ورق أبيض ناصع يعمل فى الصيف وهناك نوع يصنع فى الشتاء يكون غير مصقول وبياضه تشوبه سمرة (٣) وهذا الورق الخفيف الذى لا يحتمل الكشط لخفته مما يكتب فيه الرسائل ، والورق الجيد الذى يصلح لنسخ المؤلفات(٤) وقد صاحب صناعة الورق تقدم فن التجليد الخاص بالمصاحف والكتب (٥) فكانت الكتب تجلد بالجلد وتبطن بالورق والحرير (٦) وتذهب ، ويعتبر عمل المجلد استكمالا لعمل الخطاط والمذهب والمصور وكان الجميع يتعاونون تعاوناً كاملاً فى إخراج المخطوطات لتبدو فيها الوحدة والجمال ، وكانت العناية بمظهر الكتاب الخارجى عظيمة ليتحقق جماله ومتانته ، وأقدم نماذج التجليد الجيدة التى عرفت فى الفن الإسلامى صنعت فى مصر (٧) .

ويدل على ما وصل إليه التجليد من رقى ، الهدية التى أرسلها صلاح الدين الأيوبى إلى نور الدين محمود ووصفها المقريزى بقوله : « خمس ختمات إحداهما فى ثلاثين جزءاً مغشاة بأطلس أزرق ومضببة بصفائح ذهب ، وعليها أقفال ذهب مكتوبة بخط ذهب وأخرى فى عشرة أجزاء مغشاة فى ديباج فستقى وأخرى فى جلد بخط ابن البواب بقفل ذهب » (٨) .

---

(١) المقريزى : الخطط ج ١ / ص ٤٠٩ .

(٢) د . راشد البراوى : حالة مصر الاقتصادية ص ١٦١ .

(٣) ابن الحاج : المدخل ج ٤ / ص ٨١ .

(٤) المصدر السابق ص ٨٢ .

(٥) المصدر السابق ص ٨٦ .

(٦) المصدر السابق ص ٨٩

(٧) أبو صالح الألفى : الفن الإسلامى ص ٢٥٢ .

(٨) المقريزى : السلوك ج ١ ق ١ / ص ٥٤ .

* صناعة لوازم الدواب :

انتشرت فى القاهرة عدة أسواق تهتم بصناعة لوازم الدواب منها سوق المرجلين وسوق المهمازيين ، وسوق اللجميين .

ففى سوق المرجلين انتشرت الحوانيت المملوءة برحالات وأقتاب وسائر ما تحتاج إليه الجمال ، وكانت هذه السوق تزدحم بالمشترين فى مواسم الحاج (١) .

وفى سوق المهمازيين كانت تباع المهاميز المطلية بالذهب والفضة ، والبدلات الفضة التى كانت برسم لجم الخيل وسلاسل الفضة ومخاطم الفضة المطلية تحت لجم الحجون من الخيل (٢) .

وفى سوق اللجميين تباع آلات اللجم مما يتخذ من الجلد وفى هذا السوق أيضاً عدة وافرة من الطلائين وصناع الكفت برسم اللجم والركب والمهاميز ، وكانت السروج تعمل ملونة ما بين أصفر وأزرق(٣) .

وبمدينة دلاص تصنع اللجم الدلاصية المنسوبة إليها (٤) ، وفى الفرما تصنع الحبال من الليف(٥) ، ويرجع السبب فى ازدهار هذه الصناعة لاهتمام الفاطميين بالدواب فلقد عمم الخليفة الفاطمى العزيز ركوب الحمير فاقبل عليها الناس من كافة الطبقات من التجار ووجوه القوم وكانوا لا يرون فى ذلك حرجا (٦)

* صناعة الخزف :

يعتبر فن الخزف من أهم الحرف الفنية التى برع فيها الفنان العربى منذ أن استقر الإسلام فى مختلف البلدان العربية ويرجع اهتمام المسلمين به أن روح الاسلام لا تتمشى والترف واستعمال الخامات الثمينة كالذهب والفضة ، لذلك أقبل الفنانون المسلمون والعرب منهم بخاصة على فن الخزف

---

(١) المقريزى : الخطط ج ٢ / ص ٩٥

(٢) المصدر السابق ص ٩٨

(٣) المصدر السابق .

(٤) الإدريسى : نزهة المشتاق ج ١ / ص ١٣١ .

(٥) المقدسى أحسن التقاسيم ص ٢٠٣ .

(٦) المصدر السابق .

اقبالاً عظيماً واستطاعوا أن ينتجوا خزفاً على مستوى عال فى قيمته الفنية ، ولم يكتفوا بذلك ، بل وصلوا إلى أن يكون انتاجهم الخزفى فى الأوانى والتحف المختلفة يصلح من حيث الفخامة والجمال لأن يكون بديلاً لأوانى الذهب والفضة باستعمالهم للبريق المعدنى الذى يعتبر صفة خاصة انفرد بها الخزف الإسلامى (١) إذ يعتبر الخزف ذو البريق المعدنى فخر صناعة الفخار فى عصر الفاطميين والأيوبيين .

وقد أشار ناصر خسرو إلى تطور صناعة الخزف فى مصر فقال « ويصنعون بمصر الفخار من كل نوع وهو لطيف وشفاف بحيث اذا وضعت يدك عليه من الخارج ظهرت من الداخل ، وتصنع منه الكؤوس والأقداح والأطباق وغيرها ، وهم يلونونها بحيث تشبه البوقلمون وتظهر بلون مختلف فى كل جهة تكون بها (٢) .

أما صناعة الفخار غير المدهون فهى صناعة قديمة واسعة الانتشار فكانوا يصنعون منه الأزياء والقلل وأوعية الخل والعسل والسمن والنبيذ .

ولا شك أن المجموعة الكبيرة من شبابيك القلل الموجودة فى المتحف الاسلامى وغناها وتنوع زخارفها ، تدل على مدى ما يتمتع به الخزاف المصرى من حساسية وإخلاص وقدرة فائقة على التعبير الفنى الخالص ، وتنسب شبابيك القلل إلى العصر الفاطمى والأيوبى والمملوكى (٣) .

وصنعوا من الخزف ذى البريق المعدنى الأزيار الكبار والأوانى مما كان يستخدم على المائدة وفى حفظ العطور والبخور وغسل الأيدى بعد تناول الطعام (٤) .

ولقد كانت الأوانى الفاطمية المصنوعة من الخزف طلاؤها أبيض أو أبيض يميل إلى الزرقة أو الأخضر وتعلو الدهان رسوم ذات بريق معدنى ذهبى اللون (٥) .

---

(١) أبو صالح الألفى الفن الاسلامى ص ٢٦٠ .

(٢) ناصر خسرو : سفرنامه ص ١٠٤

(٣) أبو صالح الألفى · الفن الاسلامى ص ٢٧١

(٤) د راشد البراوى . حالة مصر الاقتصادية ص ١٦٧ .

(٥) المرجع السابق ص ١٦٩

* صناعة الزجاج والبللور :

اشتهرت مصر بصناعة الزجاج منذ العصور السابقة للإسلام وقد احتفظت بتفوقها فى هذه الصناعة فى العصور الإسلامية وقد صنعت الأوانى من الزجاج كالقوارير والزهريات والأكواب وقد وصلت صناعة الزجاج إلى قمتها فى مصر منذ عصر الفاطميين فابتكروا أباريق وكئوساً وقنانى وأضافوا إليها البريق المعدنى الذهبى أو الفضى وكانت أهم مراكز الانتاج هى : الفسطاط والأشمونين والفيوم والإسكندرية ، وقد استعمل الفاطميون فى زخرفة الزجاج وتشكيله النفخ والضغط والخيوط الرقيقة والقطع ، وازدهرت صناعة الأوانى البللورية فى العصر الفاطمى ، والبللور الصخرى يوجد فى باطن الأرض ويعد من أنفس المواد التى تعمل منها الأوانى (١) .

ويذكر المقريزى أن قصر الخليفة المستنصر الفاطمى كان يمتلئ من كيزان الفقاع المصنوع من صافى البللور المنقوش والمجرود وأنه سمع أن قدح بلور بيع مجرودا بمائتين وعشرين ديناراً ، وخردادى بلور بيع بثلثمائة وستين ديناراً وكوز بلور بيع بمائتين وعشرة دنانير (٢) وكان للسيدة عبدة ابنة المعز لدين الله تسعون طستاً وتسعون إبريقاً من صافى البللور (٣) .

ويذكر ابن إياس أنه مما وجد عند جوهر الصقلى بعد موته عشرة آلاف زبدية صينى ومن الأوانى البللور مثلها (٤) ، ويذكر ناصر خسرو أنه رأى فى سوق القناديل بالفسطاط معلمين مهرة ينحتون بللور غاية فى الجمال (٥) .

* صناعة الحصر :

كانت الحصير ولا تزال من أهم الصناعات الصغيرة ، وتعتبر من متاع البيت المصرى الذى لا غنى عنه ، وكانت هذه الصناعة تلقى رواجاً كبيراً لا ستخدامها فى المنازل لتغطية الأرضية وبعض

---

(١) أبو صالح الألفى · الفن الإسلامى ص ٢٧٢ – ٢٧٣

(٢) المقريزى الخطط ج ١ / ص ٤١٤ .

(٣) المصدر السابق ص ٤١٥ .

(٤) ابن إياس · بدائع الزهور ج ١ ق ١ / ص ١٩٣

(٥) ناصر خسرو سفرنامه ص ١٠٣ .

المقاعد والأرائك (١) .

ويصف البغدادى طريقة صناعة الحصير بأنها « متخذة من ورق الموز الهندى بأن يؤخذ العسيب فيشقق ويجفف ثم يصبغ وينسج منه هذه الحصر ، ويباع الحصير منها بدينارين » (٢) .

ويذكر المقريزى أن وادى النطرون تصنع فيه الحصر من البردىّ (٣) أما أغلى أنواع الحصر ، والتى يشيع استعمالها فى المدن الكبرى فتصنع من سمار ينتج فى الفيوم بجوار بحيرة قارون كما ينمو فى منطقة الطرانة على شواطئ بحيرات النطرون (٤) .

* الصناعات المعدنية الحرفية :

اشتهرت مصر بالصناعات الحرفية المعدنية الدقيقة الصنع والتى تحتاج جهداً وصبراً ودقة عند صناعتها ومن أشهر تلك الصناعات كانت صناعة السكاكين والمقاريض ، فيذكر ناصر خسرو أن تنيس يصنع بها آلات الحديد كالمقراض والسكين (٥) .

ويذكر المقريزى أنه قد أخرج من خزائن الجوهر والطيب والطرائف الفاطمية سكاكين قدرت بأقل القيم فجاءت قيمتها على ذلك ستة وثلاثين ألف دينار (٦) وكان مركز صناعة هذه الأسلحة مدينة القاهرة ، وكانت تصدر منها إلى الشام (٧) .

أما النحاس فكان يستخدم فى صناعة كثير من الأدوات المنزلية ويذكر ناصر خسرو أنه رأى قدوراً من النحاس الدمشقى كل واحد منها يسع ثلاثين منا ، وكانت من الطلاوة بحيث يظن من يراها أنها من الذهب (٨) .

---

(١) وليم نظير : الثورة النباتية ص ٢٤٧ .

(٢) البغدادى . الإفادة والاعتبار ص ٢٦

(٣) المقريزى : الخطط ج ١ / ص ١٨٦ .

(٤) جيرار : وصف مصر ص ١٨٨

(٥) ناصر خسرو : سفرنامه ص ٨٠ .

(٦) المقريزى : الخطط ج ١ / ص ٤١٥

(٧) المصدر السابق ص ٣٦٧

(٨) ناصر خسرو : سفرنامه ص ١٠٤

وقد راجت صناعة الكفت واشتهرت فى مصر وهى عبارة عن تطعيم الآوانى النحاسية بالذهب أو الفضة وخصص لها سوق بالقاهرة سمى بسوق الكفيتين يشتمل على عدة حوانيت لعمل الكفت ويشير المقريزى إلى رواجه بمصر فيقول : « وكان لهذا الصنف من الأعمال بديار مصر رواج عظيم ، وللناس فى النحاس المكفت رغبة عظيمة أدركنا من ذلك شيئاً لا يبلغ وصفه واصف لكثرته فلا تكاد دار تخلو بالقاهرة ومصر من عدة قطع نحاس مكفت ولابد أن يكون فى شورة العروس دكة نحاس مكفت والدكة عبارة عن شئ شبه السرير يعمل من خشب مطعم بالعاج والأبنوس أو من خشب مدهون وفوق الدكة دست طاسات من نحاس أصفر مكفت بالفضة وعدة الدست سبع قطع بعضها أصغر من بعض » (١) .

أما الذهب والفضة فاستخدموها فى سك النقود الذهبية والفضية ، وصنع الكثير من أدوات الترف والحلى والمصنوعات كالأساور والأقراط والخواتم (٢) والسلاسل الذهبية والفضية وأساور وخلاخيل النساء والقلادات الذهبية والفضية ، وقد تركزت معظم هذه الصناعات بأيدى الصناع من اليهود ، وأصابوا منها ثروات طائلة دفنوا أكثرها فى باطن الأرض خوفاً عليها من المصادرة (٣) .

وقد استخدموا الذهب والفضة فى تحلية السروج والسيوف والمصاحف والتذهيب ، وكانت الملابس الفاخرة يدخل فى صناعتها مقادير من خيوط الذهب تختلف قيمتها حسب قيمة الثوب والشخص المصنوع له (٤) وكانت هذه الثياب تصنع بمدينة تنيس وقد يصل ثمن الثوب المذهب ألف دينار (٥)

وعرفت صناعة الفسيفساء فى مصر ، لكننا لا نجد مصدراً يشير إلى ذلك سوى المقدسى الذى يقول : إن حيطان الأروقة بالكعبة قد ألبست من الظاهر بالفسيفساء الذى حمله إليها صناع الشام ومصر وتوجد اسماؤهم عليه (٦) .

---

(١) المقريزى الخطط ج ٢ / ص ١٠٥

(٢) د راشد البراوى : حالة مصر الاقتصادية ص ١٧٢ .

(٣) جاستون فييت القاهرة مدينة الفن والتجارة ص ١٦٥ - ١٦٨ .

(٤) د راشد البراوى حالة مصر الاقتصادية ص ١٧٢ .

(٥) الإدريسى نزهة المشتاق ج ١ / ص ٣٣٨

(٦) المقدسى أحسن التقاسيم ص ٧٣ ، د راشد البراوى . حالة مصر الاقتصادية ص ١٧٥ .

* صناعة الأخشاب :

تميز عصر الفاطميين بتقدم فن الحفر على الخشب ، ولما كانت الأخشاب المحلية من أشجار الجميز والسنط والنبق لا تمتاز بالصلابة اللازمة لهذه الصناعة فكانت مصر تستورد الأخشاب من السودان وبلاد الهند وشبه جزيرة الملايو ، وكان المصريون يستخدمون هذه الأخشاب فى عمل السقوف والأبواب والمنابر والمحاريب غير الثابتة وربط القوائم والأعمدة ببعضها وصناعة القباب أو تدعيمها (١) .

ويوجد فى متحف الفن الإسلامى مجموعة من الألواح الخشبية الفاطمية وعليها زخارف تمثل مناظر صيد ورقص وطرب وموسيقيين وجمال وطيور وحيوانات ، داخل مناطق تفصلها زخارف متشابكة على أرضية من تفريعات الأوراق والأزهار حفرها أكثر عمقاً من حفر الأشكال الآدمية (٢) .

وتعد صناعة الخشب فى العصر الأيوبى امتداداً لأساليب العصر الفاطمى غير أننا نلاحظ أن الخط النسخ بدأ يحل محل الخط الكوفى ، كما أن الحشوات ذات الزخارف النباتية تزداد دقة ، ومن أجمل تحف هذا العصر تابوت الإمام الشافعى وتابوت المسجد الحسينى بالقاهرة (٣) .

واستخدمت الأخشاب المحلية فى صناعة أثاث البيوت ، وعملت السواقى وغيرها من الآلات رافعة الماء ، وكذلك الطواحين والمحاريث والنوارج والمعاصر والأنوال والمغازل وكثير من الآلات التى كانوا يستخدمونها فى الصناعة (٤) .

* الصباغة والدباغة :

أ - الصباغة :

عرف المصريون الصباغة والتلوين منذ أقدم العصور ولازالت آثارهم محتفظة بجمال ألوانها حتى اليوم ، وتختلف سوائل الصبغة بالنسبة للخامات المصبوغة ، فالقطن والخامات النباتية تصبغ فى

---

(١) د . راشد البراوى : حالة مصر الاقتصادية ص ١٧٠ .

(٢) أبو صالح الألفى : الفن الإسلامى ص ٢٧٧ .

(٣) المرجع السابق : ص ٢٧٩ .

(٤) د . راشد البراوى : حالة مصر الاقتصادية ص ١٧١

سائل قلوى خفيف ، بينما يصبغ الصوف فى سائل حمضى [1] وأهم المواد التى تستخدم فى الصباغة الفوه وهى صبغه حمراء تستخلص من جذور نبات الفوة [2] والنيلة البرية وهى صبغة زرقاء تستخلص بالتخمير من أوراق شجرة النيلة البرية [3] وكانت تزرع فى الصعيد والواحات [4] ويحذر المحتسب الصباغين من الغش وصبغ الثياب بالحناء عوضاً عن النيله لأن الصبغ بالحناء إذا أصابته الشمس تغير لونه وزال إشراقه [5] وكانت الأقمشة التى انتجت فى العصرين العباسى والطولونى ذات زخارف منسوجة متعددة الألوان من الصوف والكتان ، وتألفت الزخارف التى سادت الأقمشة الفاطمية من أشرطة من الكتابة توازيها أشكمال أخرى من أشكال سداسية أو معينة أو بيضية وفى وسط كل رسم طائر أو حيوان أو أكثر فى أوضاع متقابلة أو متدابرة ثم زينت قوائم الحروف بفروع نباتية دقيقة، وفى آخر العصر الفاطمى ظهرت بعض الزخارف الكتابية التى استعمل فيها الخط النسخى[6].

وفى العصر الأيوبى زادت العناية بالمنسوجات الحريرية وابتكروا أسلوباً لزخرفتها بالزخارف المطبوعة باللون البنى وبعض التذهيب [7] .

ب - دباغة الجلد :

برع المصريون فى دبغ الجلود وأهم الألوان التى استخدموها فى تلوين الجلود باللون الأخضر والأحمر والأصفر واستخدموا ثمار شجر السنط (القرظ) فى دبغ الجلود بدلاً من العفص [8] ويكون باغ الجلود الماعز بوزنها من القرظ أما بقية أنواع الجلود فعلى وزن كل مائة جلد صغير أربعون

---

(١) وليم نظير الثروة النباتية ص ٢٨٢

(٢) الشيزرى · نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ص ٧٢ .

(٣) وليم نظير : الثروة النباتية ص ٢٨٣

(٤) الإدريسى . نزهة المشتاق ج ١ / ص ١٢٢ ، الحميرى : الروض المعطار ص ١٧٨ ، جيرار : وصف مصر ص ٣٥ .

(٥) الشيزرى نهاية الرتبة ص ٧٢

(٦) أبو صالح الألفى · الفن الإسلامى ص ٢٩٠ .

(٧) المرجع السابق ص ٢٩١

(٨) وليم نظير · الثروة النباتية ص ٢٨٤

رطلا بالمصرى ، وتقدير كل مائة جلد كبير وزناً ستون رطلاً بالمصرى (١) وينهى المحتسب عن دبغ الجلود بدقيق الحنطة أو النخال (٢) .

* صناعة الرخام :

ينتشر الرخام بمصر فى أماكن مختلفة فيقول المسعودى : « فى الجانب الشرقى من الصعيد جبل رخام عظيم » (٣) .

ويذكر المقدسى أن الاسكندرية بها من الحجارة البحرية معدن الرخام (٤) ، وفى المقطم توجد مقاطع حجارة من الرخام (٥) وبالفرما توجد مقاطع الرخام الأبلق (٦) .

وقد استخدم الفاطميون الرخام فى تزيين المساجد وزخرفتها فالجامع الأزهر تقوم فيه أروقة إيوان القبلة على أعمدة رخامية من طرز مختلفة (٧) والباب الكبير الغربى محلى بكتابات وزخارف دقيقة فى الحجر والرخام (٨) وجامع الصالح طلائع بن رزيك فيه المحراب يكتنفه عمودان من الرخام الأحمر (٩) .

ومن أهم العمائر التى تنسب للعصر الأيوبى مدرسة وضريح الصالح نجم الدين أيوب وتمتاز من الداخل بتكسية جدرانها بالرخام الملون (١٠) ومحراب الضريح زينت بالفسيفساء الرخامية المذهبة (١١).

---

(١) ابن الأخوة معالم القربة فى أحكام الحسبة ص ٢٣٥

(٢) المصدر السابق .

(٣) المسعودى : مروج الذهب ج ١ / ص ٢٥١ .

(٤) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ١٩٧ .

(٥) المصدر السابق .

(٦) المقريزى : الخطط ج ١ / ص ٢١١ .

(٧) أبو صالح الألفى . الفن الإسلامى ص ١٧٨

(٨) المرجع السابق .

(٩) د . كمال سامح · العمارة الإسلامية فى مصر ص ٣١ .

(١٠) المصدر السابق ص ٣٢

(١١) أبو صالح الألفى . الفن الإسلامى ص ١٩٠ .

وفى سنة ٦٠٨ هـ أنشئت قبة مسجد الإمام الشافعى فى عهد السلطان الملك الكامل وكسيت جدران القبة من الداخل بالرخام (١) .

ويذكر المقدسى أن صحن الكعبة المشرفة تدار بأروقة ثلاث على أعمدة رخام حملت من الإسكندرية فى البحر إلى جدة (٢) .

* صناعة الأدوية من الأعشاب :

يعد المصريون من أوائل الشعوب اهتماماً بصناعة الأدوية من الأعشاب الطبية التى كانت تنمو فى وادى النيل والصحارى ، وقد عرفوا خواصها وأدركوا مزاياها وفوائد الكثير منها ، واستخلصوا موادها الفعالة ، وجلبوا بعضها من البلاد المجاورة ولا تزال تستخدم حتى اليوم فى علاج بعض الأمراض (٣) ومن الأعشاب التى استخدمها المصريون فى العلاج ثمرة شجرة السنط والمعروفة (بالقرظ) واستخدمت كعلاج قابض فى حالات الإسهال والدوسنتاريا واستخدم مسحوق الثمار لعلاج الكحة والنزلات الصدرية ، واستخدم الخيار شنبر كملّين خفيف ، واستخدمت العقد الموجودة على أغصان شجرة الأثل فى علاج الجروح واستخدم المن الذى يستخرج من أوراقها كغذاء مقو (٤) ، واستخدم زيت البلسان كعقار طبى يستخرج من عين شمس بمصر (٥) .

وكان صناع الأدوية فى مصر يسمون الشرابيين لأنهم يركبون الأشربة والمعاجين من النباتات الطبية (٦) .

وكان المحتسب يمر عليهم فى أول كل شهر فإذا وجد شراباً حامضاً لتطاول المدة عليه ر متغيراً أمر صاحبه ألا يعيده إلى الطبخ ثانياً لفساده وضرره (٧) .

---

(١) د كمال سامح : العمارة الإسلامية فى مصر ص ٣٤

(٢) المقدسى . أحسن التقاسيم ص ٧٣

(٣) وليم نظير . الثروة النباتية ص ٢١٣ .

(٤) المصدر السابق ص ٢١٧ .

(٥) ناصر خسرو سفرنامه ص ٩٨ - ٩٩

(٦) الشيرزى · نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ص ٥٦ .

(٧) المصدر السابق ص ٥٧

* مطاحن الحبوب :

الخبز هو مصدر للطاقة الحرارية ويصنع عادة من دقيق القمح أو الشعير أو الحبوب الأخرى ، وقد اشتهرت مصر بإنتاج كميات كبيرة من القمح فكان أساس الغذاء في البلاد ، وكانت الطواحين التي تطحن الحبوب تدور بالدواب (١) وكان المحتسب ينصح أصحابها ألا تستعمل الدابة في طحن أكثر من ربع ويبة (٢) وكانت الطواحين منتشرة في عدة أماكن بمصر فيذكر ابن بسام أن في مدينة تنيس مائة وستون طاحوناً منها ما يشتمل على مدار ومنها ما يشتمل على مدارين وعلى خمسة أحجار مقشرة ومعجنة (٣) .

ويذكر المقدسي أن مشتول كثيرة الطواحين ومنها يحمل أكثر ميرة الحجاز من الدقيق (٤) .

٣ - التجارة:

مدخل :

لم يكن اهتمام الخلفاء مقصوراً على الزراعة والصناعة بل عنوا أيضا بتيسير سبل التجارة فنشروا الأمن والطمأنينة في أنحاء دولتهم ، وأقاموا المحطات والآبار في طرق القوافل وكان لعملهم هذا أثر كبير في إنعاش حركة التجارة ، ولهذا أصبحت من أكبر موارد الكسب في الدولة الإسلامية .

وكانت التجارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري مظهراً من مظاهر أبهة الإسلام ، وصارت لها السيادة في بلادها وكانت سفن المسلمين وقوافلهم تجوب كل البلاد والبحار وأخذت تجارة المسلمين المكان الأول في التجارة العالمية .

وسوف نعرض للنشاط التجاري ، والطرق التجارية والأسواق ، واهتمام الحكومات بالتجار ورعاية نشاطهم ، ثم التبادل التجاري بين مصر وغيرها من البلدان ، وأثره على سكان البلاد .

---

(١) ابن الأخوة : معالم القربة في أحكام الحسبة ص ١٥٢ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) ابن بسام . أنيس الجليس في أخبار تنيس ص ١٨٥ .

(٤) المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص ١٩٥ .

الطرق التجارية

١ - شبكة المواصلات البرية فى مصر :

أورد الأستاذ الدكتور/ حسن إبراهيم حسن سبعة طرق برية كانت تسلكها القوافل التجارية وهى:

١) من قلعة الجبل إلى قوص ويمر بالجيزة وزاوية أم حسين ودهروط ، وقلوسنا ، ومنية بنى خصيب والأشمونين وذروة سريام ، وفم الخليج اليوسفى ومنفلوط وأسيوط وطما والمراغة وبلسبورة (وتعرف الآن باسم بلصفورة) وجرجا والبلينا والكوم الأحمر ودندرى وقوص .

٢) من قوص إلى بلاد النوبة ماراً بأسوان .

٣) من قوص إلى سواكن ماراً بقفط وليطة والدريج وحميرة وعيذاب وبنى عامر وسواكن .

٤) من القلعة إلى الاسكندرية عن طريق وردان ماراً بالجيزة وجزيرة القط ووردان والطرانة وطيلاس ودمنهور ولقينة والاسكندرية .

٥) من القلعة إلى الاسكندرية عن طريق قليوب ماراً بقليوب ومنوف العليا والمحلة الكبرى والنحريرية (وتعرف بالنحارية الآن) والإسكندرية .

٦) من القلعة إلى دمياط ماراً بسرياقوس وبئر البيضاء وبلبيس والسعيدية وأشمون الرمان والمرناصية ودمياط .

٧) من دمياط إلى غزة ماراً بالخطارة وقبر الوايلى والصالحية وبئر غزى والقصير والعزابى وقطيا والمطيلب والسوادة والعريش والخروبة والزعقة ورفح والسلفة والجميزة والداروم وغزة (١) .

وكان التجار والحجاج يغدون إلى ثغر عيذاب عن أحد طريقين : أحدهما طريق قوص ويتفرع لى فرعين ، أحدهما يعرف بطريق « العبدين » ويعرف الثانى بطريق « دون » وهى قرية على شاطئ النيل . أما الطريق الثانى فهو طريق مدينة أسوان (٢) وكان يمتاز بقصره ، وكانت القوافل تقطعه فى خمسة عشر يوماً ، كما تميز هذا الطريق بخلوه من الجبال المتشابكة ، أضف إلى ذلك أسوان كانت ثغراً هاماً للتجارة مع بلاد النوبة ، لذلك كان المسافرون يفضلون طريق أسوان على طريق مدينة قوص، وكانت المراكب تسير بالحجاج شرقاً إلى جدة ميناء الحجاز ، أو البضائع جنوباً إلى بلاد اليمن وعدن

---

(١) د . حسن إبراهيم . تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥٩٦ .

(٢) المرجع السابق ص ٥٩٠

حيث تستأنف سيرها إلى سواحل بلاد الهند والصين ، ثم تعود محملة بالبضائع إلى عيذاب ومنها إلى الساحل المصرى [١] .

الأسواق فى مصر

تعتبر السوق من أبرز ميادين تصريف الإنتاج الزراعى والصناعى ، ولقد لعبت الأسواق دوراً واضحاً ومهماً فى حياة البلاد ، سواء الاقتصادية أو الاجتماعية أو السياسية فكانت السوق مركز البيع والشراء ، وبها تعقد الصفقات وتقرر حالة البلاد الاقتصادية .

وقد تحدث المؤرخون عن كثير من الأسواق فى مصر سنشير إلى أهمها كما يلى :

* أسواق مدينة الإسكندرية وكانت كثيرة الاتساع [٢] والازدحام [٣] .
* سوق برمة وهى قرية كبيرة فيها جميع المرافق [٤] .
* أسواق قليوب [٥] .
* سوق أتريب وهى قرية فى الشرقية وكانت سوقها عامرة [٦] .
* أسواق مدينة دمياط [٧] .
* سوق قرية منية غمر [٨] .
* سوق قرية دمسيس ، وهى قرية عامرة آهلة وسوقها يوم السبت ويباع بها ويشترى من الثياب والأمتعة ، والتجار يقصدونها لرواج سلعها [٩] .

---

(١) د. حسن إبراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥٩٠ .

(٢) الإدريسى : نزهة المشتاق ج ١ / ص ٣١٩ .

(٣) ابن جبير : الرحلة ص ١٤ .

(٤) المصدر السابق ص ١٨ .

(٥) المصدر السابق

(٦) الإدريسى : نزهة المشتاق ج ١ / ص ٣٣٣ .

(٧) العمرى : مسالك الأبصار ص ١٥٨

(٨) الإدريسى : نزهة المشتاق ج ١ / ص ٣٣٤ .

(٩) المصدر السابق .

* أسواق مدينة مليج (١) وإلى جهة الغرب منها على مسافة خمسة عشر ميلاً من مدينة طنطنه وهى مدينة متحضرة صغيرة ذات سوق وأرزاق دارة وأحوال صالحة وأهلها فى رفاهة وخصب (٢) .

* سوق مدينة سنباط (٣) .

* سوق الجيزة ويقام يوم الأحد وهو من الأسواق العظيمة التى يجتمع إليها كثير من التجار(٤).

* أسواق منية ابن الخصيب وتقع على شط النيل (٥) ، وعلى الشط الغربى للنيل تقع منفلوط وفيها أسواق كثيرة ، وسائر ما يحتاج إليه من المرافق (٦) .

* أبو تيج وهى بلد فيه الأسواق وسائر مرافق المدن (٧) .

* أسواق قوص وقد وصفها ابن جبير بأنها « حفيلة الأسواق متسعة المرافق ، كثيرة الخلق لكثرة الصادر والوارد من الحجاج والتجار واليمنيين والهنديين وتجار أرض الحبشة وهى ملتقى الحجاج المغاربة والمصريين والاسكندريين ومن يتصل بهم » (٨) .

* أسواق تنيس وهى أسواق فخمة ، وقد يبلغ عدد الدكاكين بها عشرة آلاف دكان (٩) ، ويذكر ناصر خسرو أن الفسطاط بها أسواق وشوارع تضاء فيها القناديل دائماً (١٠) ويقول على الجانب الشرقى لمسجد عمرو بن العاص سوق يسمى سوق القناديل لا يعرف سوق مثله فى أى بلد وفيه كل ما فى العالم من طرائف ورأيت هناك الأدوات التى تصنع من الذبل كالأوعية والأمشاط ومقابض السكاكين

---

(١) الإدريسى : نزهة المشتاق ج ١ / ص ٣٢٤ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٣٥ .

(٣) المصدر السابق .

(٤) ابن جبير : الرحلة ص ٢٩ .

(٥) المصدر السابق ص ٣٢ .

(٦) المصدر السابق ص ٣٥ .

(٧) المصدر السابق .

(٨) المصدر السابق ص ٤٠ - ٤١

(٩) ناصر خسرو : سفرنامه ص ٧٦ .

(١٠) المصدر السابق .

وغيرها »(١) .

ويذكر المقريزى أن بمدينة مصر (الفسطاط) والقاهرة وظواهرها من الأسواق شئ كثير جداً(٢). ومن هذه الأسواق :

* سوق باب الفتوح ، ويقع فى داخل باب الفتوح وهو معمور الجانبين بحوانيت اللحامين والخضريين و والفاميين ، والشرايحية وغيرهم ، ويعد من أجل أسواق القاهرة وأعمرها يقصده الناس من أنحاء البلاد لشراء أنواع اللحوم المختلفة كالضأن والبقر والماعز ولشراء أصناف الخضروات.

* سوق المرحلين ، وهو معمور الجانبين بالحوانيت المملوءة برحالات الجمال وأقتابها وسائر ما تحتاج إليه يقصده الناس من سائر إقليم مصر خاصة فى مواسم الحج ، ولو أراد الإنسان تجهيز مائة جمل وأكثر فى يوم لما شق عليه وجود ما يطلبه من ذلك لكثرة ذلك عند التجار فى هذا السوق .

* سوق خان الرواسين ، تعمل فيه الرؤوس والأكارع وكان من أحسن أسواق القاهرة ويشتمل على عدد من الباعة ونحو العشرين حانوت مملوءة بأصناف المآكل (٣) .

* سوق حارة برجوان ، وكان يعرف فى أيام الفاطميين بسوق أمير الجيوش إذ لما قدم أمير الجيوش بدر الجمالى أقام هذا السوق برأس حارة برجوان وكان هذا السوق معمور الجانبين بعدد وافر من باعة لحم الضأن ، واللحم البقرى ، وعدد كبير من الزياتين والجبانين (باعة الجبن) واللبانيين والطباخين ، والشوايين والعطارين ، والخضريين وكثير من باعة الأمتعة (٤) .

* سوق الشماعين ، وكان يعرف فى الدولة الفاطمية بسوق القماحين ويباع فيه الشموع الموكبية والفانوسية .

* سوق الدجاجين وكان يباع فيه كثير من الدجاج والأوز .

* سوق الزهومه وقد عرف بهذا الاسم نسبة إلى باب الزهومة من أبواب القصر الفاطمى ، وكان موضعه فى الدولة القاطمية سوق الصيارف ويقابله سوق السيوفيين .

---

(١) ناصر خسرو : سفرنامه ص ١٠٢ .

(٢) المقريزى : الخطط ج ٢ / ص ٩٤

(٣) المقريزى : الخطط ج ٢ / ص ٩٥

(٤) المصدر السابق ص ٩٦ .

* سوق اللجميين ويباع فيه آلات اللجم ونحوها مما يتخذ من الجلد (١) .

* سوق الحلاويين وهذا السوق يباع فيه ما يتخذ من السكر حلوى (٢) .

* سوق الجملون الصغير ويعرف بهذا الاسم نسبة إلى يجملون ابن صيرم وهو الأمير جمال الدين شويخ بن صيرم أحد أمراء الملك الكامل وفى السوق كثير من البزازين الذين يبيعون ثياب الكتان من الخام والأزرق وأنواع الطرح وأصناف ثياب القطن وفيه عدة من الخياطين (٣) .

* سوق الكتبيين ، وهو فيما بين الصاغة والمدرسة الصالحية وتباع فيه الكتب (٤) .

* سوق الخراطين ، ويسلك فيه من سوق المهمازيين إلى الجامع الأزهر وتباع فيه أسِرّة الأطفال وبه حوانيت الخراطين وصناع السكاكين (٥) .

* سويقة اللفت وكان تشتمل على عدة حوانيت يباع فيها اللفت والكرنب ويحمل منها إلى سائر أسواق القاهرة .

* سويقة زاوية الخدام وتقع خارج باب النصر وكان فيها عدة حوانيت يباع فيها أنواع كثيرة من الأطعمة المختلفة (٦) .

تعقيب

كان من الطبيعى فى بلد زراعى كمصر أن تقوم حياة المجتمع وتعتمد على الزراعة ، فأهل القرية يزرعون فى حقولهم المواد الغذائية كالحبوب والبقول وغيرها من المواد الأخرى التى تقوم عليها الصناعة ، وأهل المدينة كانوا يعتمدون على القرى فى سد حاجاتهم من الغذاء ، ولابد لأهل القرى من بيع الفائض عن حاجاتهم مما يزرعون ، ومد صناعات المدن بالكثير مما يلزمها من المواد الأولية ، كما

---

(١) المصدر السابق ص ٩٨ .

(٢) المصدر السابق ص ٩٩ .

(٣) المصدر السابق ص ١٠١ .

(٤) المقريزى الخطط ج ٢ / ص ١٠٢ .

(٥) المصدر السابق ص ١٠٣

(٦) المصدر السابق ص ١٠٦ .

كانت المدن تسد بعض مطالب أهل الريف من الإنتاج الصناعى ، ولذا نشأت الحاجة إلى التبادل بين المدينة والقرى المجاورة لها ، ولتيسير هذا التبادل أصبح لكل مدينة سوقها الخاص بها (١) .

ويرى البحث أن الأسواق فى مصر كانت كثيرة ومتعددة نظراً لكثرة الإنتاج الزراعى والصناعى الذى تميزت به مصر ويؤكد ذلك قول ناصر خسرو بأن أسواق مصر كثيرة يصعب حصرها .

ونلاحظ على الأسواق في مصر أنه كانت هناك بعض الأسواق التى تخصصت فى الاتجار فى سلعة معينة ، وقسمت السوق الواحدة إلى عدة متاجر ، تتاجر كلها فى نوع واحد من السلع ، ولذا يطلق اسم هذه السلعة على السوق نفسها (٢) ، ولذا نجد سوق المرحلين (٣) ، سوق خان الرواسين (٤) ، سوق الشماعين (٥) سوق الدجاج ، سوق اللجميين (٦) ، سوق الحلاويين (٧) ، سوق الكتبيين (٨) ، سوق الخراطين (٩) .

وبالإضافة إلى هذه الأسواق كانت هناك الأسواق الشاملة التى تشمل عدداً كبيراً من السلع ولا تختص بسلعة واحدة معينة ونراها فى معظم مدن مصر كأسواق الإسكندرية وقليوب ودمياط ومنية غمر ودمسيس ، ومليج ، وسنباط ، والجيزة وغيرها من المدن التى تقيم سوقاً واحداً يشمل مختلف السلع ، وقد وصفها ابن جبير بأنها حافلة بجميع الفواكه وغيرها من الحبوب وسائر المبيعات الطعامية (١٠) .

وتميزت الأسواق باتساعها فيوجد على جانبى كل سوق افريزان يمشى الناس عليهما فى زمن الشتاء اذا لم يكن السوق مبلطا ، وانشئت المصاطب التى تقام بجانبها واجهة الدكان ويجلس عليها

---

(١) د . راشد البراوى . حالة مصر الاقتصادية ص ١٩٥ - ١٩٦ .

(٢) ناصر خسرو . سفرنامه ص ٨٢

(٣) المقريزى . الخطط ج ٢ / ص ٩٥ .

(٤) المصدر السابق .

(٥) المصدر السابق ص ٩٨

(٦) المصدر السابق .

(٧) المصدر السابق ص ٩٩ .

(٨) المصدر السابق ص ١٠٢

(٩) المصدر السابق ص ١٠٣ .

(١٠) ابن جبير . الرحلة ص ٨٥ .

صاحب الدكان مع زبائنه ، واقيمت السقائف لحماية السابلة من المطر (١) والشمس ، وجعل لكل صنف من أصناف التجارة سوقاً يختص بها (٢) .

وقد وصف ناصر خسرو أسواق تنيس إحدى مدن مصر آنذاك بأنها أسواق فخمة وقد يبلغ عدد الدكاكين بها عشرة آلاف دكان منها مائة دكان عطار (٣) .

وكانت لبعض الأسواق أيام معينة فنجد الإدريسى يذكر أن سوق قرية دمسيس يعقد يوم السبت من كل أسبوع (٤) ، ويذكر ابن جبير أن سوق مدينة الجيزة يعقد يوم الأحد (٥) ويذكر الإدريسى أن قرية قدقوس لها سوق نافقة وهى يوم الأربعاء ، ومنية اسنا لها سوق فى يوم معلوم وكذلك مدينة انتوهى (٦) .

وتتميز أسواق مصر بوجود المحتسب الذى يشرف على الأسواق ويراقب الباعة والصناع ، فقد كان المحتسب يتميز بدوره الكبير فى المرور على الأسواق والإشراف على الباعة والصناع ويجعل لأهل كل صنعة عريفا خبيرا بصناعتهم ، بصيراً بغشوشهم وتدليساتهم مشهوراً بالثقة والأمانة يكون مشرفاً على أحوالهم ويطالعه بأخبارهم وما يجلب إلى سوقهم من السلع والبضائع وما تستقر عليه من الأسعار، ويقوم المحتسب بتنظيم الأسواق وضبط الموازين والمكاييل (٧) .

---

(١) المصدر السابق .

(٢) الشيزرى : نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ص ١١ .

(٣) ناصر خسرو : سفرنامه ص ٧٦ .

(٤) الإدريسى . نزهة المشتاق ج ١ / ص ٣٣٤ .

(٥) ابن جبير · الرحلة ص ٢٩

(٦) الإدريسى : نزهة المشتاق ج ١ / ص ٣٣٢ - ٣٣٤ .

(٧) الشيرزى · نهاية الرتبة ص ١١ ، ١٢ ، ١٥ .

وكان أهل الأسواق يقومون بكنسها وتنظيفها من الأوساخ والطين المتجمع وغير ذلك مما يضر بالناس [1] ويمنعون أحمال الحطب والتبن وروايا الماء وأوعية الرماد وأشباه ذلك من الدخول إلى الأسواق لما فيها من الضرر بملابس من يأتي إلى السوق [2] .

أما الطرقات ودروب المحلات فلا يجوز لأحد إخراج جدار داره ولا دكانه فيها إلى الممر الذى يسير فيه الناس حتى لا يسبب الأذى والضرر لهم [3] .

المنشآت الخاصة بالتجار

أقيمت مجموعة من المنشآت والمرافق مثل الوكالات والقيساريات والخانات والفنادق لخدمة التجارة وتهيئة السبل أمام التجار حتى يستطيعوا ممارسة أعمالهم التجارية دون مشقة .

ويذكر آدم متز أن الفنادق لم تكن تقام إلا للتجار الغرباء ، وكانت أشبه بالأسواق الكبيرة ، وكان التجار يضعون بضائعهم فى أسفلها وينامون فى أعلاها ويغلقون غرفهم بأقفال رومية واسم الفندق مشتق من الكلمة اليونانية pandokeion [4]

وقد سمحت الدولة للتجار الأوروبيين بإقامة الفنادق فى الموانئ الهامة ولكل جالية أوروبية فندقها الخاص تقيم فى الموانئ الهامة ولكل جالية أوربية فندقها الخاص تقيم فيه وتحفظ فيه بضائعها [5] وفى الفندق كانت تعقد الصفقات التجارية ، وفيه تحزم البضائع ثم تنقل إلى البواخر[6] .

---

(١) المصدر السابق ص ١٤ .

(٢) المصدر السابق ص ١٣ .

(٣) المصدر السابق ص ١٤ .

(٤) آدم متز . تاريخ الحضارة الإسلامية ج ٢ / ص ٢٨٤ .

(٥) د . حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام السياسى ج ٤ / ص ٤١٤ .

(٦) د . أنطوان خليل : الدولة المملوكية ص ٢٠٨ .

ولم تكن الفنادق وقفاً على جالية أجنبية دون أخرى إنما حصل الكثير منهم على فنادق ، بخاصة تلك التى كانت رحلاتهم منتظمة (١) .

وتوزعت الفنادق فى الإسكندرية كما يلى : فندقان للبنادقة وفندق للجنويين ، واختصت الجاليات التالية بفندق خاص بها : مرسيليا ، ناريون ، قلطونية ، راجوزة ، الحبشة ، تركيا ، موريتانيا(٢) .

ويبدو أن الفنادق قد انتشرت داخل البلاد ، فقد كانت هناك فنادق بمحلة صرد ، والبجوم والكريون(٣) .

ويذكر المقريزى عدة فنادق مثل فندق ابن قريش الذى أنشأه القاضى شرف الدين إبراهيم بن قريش كاتب الإنشاء فى دولة الملك العادل ، وفندق دار التفاح تجاه باب زويلة وفندق طرنطاى وكان ينزل فيه تجار الزيت الواردون من الشام إلى مصر (٤) .

ويذكر ابن جبير من الفنادق التى نزل بها بالفسطاط فندق أبى الثناء فى زقاق الفناديل بمقربة من جامع عمرو بن العاص (٥) وفى قوص فندق ابن العجمى (٦) ، ويذكر ابن بسام أن بمدينة تنيس ستة وخمسين فندقاً وقيسارية وآدراً (٧) .

ويبدو أن عدد الفنادق قد تضاعف فى مصر بسبب رواج التجارة ووفرة رءوس الأموال ، وشدة

---

(١) المرجع السابق

(٢) المرجع السابق ص ٢٠٩ نقلاً عن : Heyde, II, pp. 433 - 434

(٣) د . حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام السياسى ج ٤ / ص ٤١٤ .

(٤) المقريزى : الخطط ج ٢ / ص ٩٣ – ٩٤ .

(٥) ابن جبير . الرحلة ص ١٩ .

(٦) المصدر السابق ص ٤١ .

(٧) ابن بسام · أنيس الجليس ص ١٨٤ .

إقبال التجار الأجانب على ارتياد أسواق مصر (١) .

وكان التجار المسلمون يقيمون وكالات خاصة بهم لتخزين البضائع وللإقامة بها عند وجودهم بمصر ، وتصبح هذه الوكالات صلة بينهم وبين التجار المصريين الذين كانوايقومون بدورهم بإنشاء وكالات من هذا النوع فى بلاد الشام والعراق والحجاز (٢) .

وكذلك أنشأ المصريون الوكالات بمصر فقد أمر الوزير المأمون البطائحى عام ٥١٦ هـ بإنشاء وكالة بالقاهرة لتجار العراق والشام (٣) .

وأقيمت بمصر القياسر وهى مجموعة من المبانى العامة على هيئة رواق من أروقة الدير ، وبها حوانيت ومصانع ومخازن وأحياناً مساكن ، وقد كثرت القياسر بمصر فى ذلك العهد وعمرت بالتجار الوافدين عليها من كل مكان (٤) .

وقد ذكر المقريزى عدداً من هذه القياسر التى أنشئت فى العصرين الفاطمى والأيوبى ومنها قيسارية أبن قريش : أنشأها القاضى المرتضى ابن قريش (٥) ويسكن بها بعض التجار الأرمن والبزازين (٦) .

* قيسارية ابن أبى أسامة وقد أنشأها الشيخ أبو الحسن على بن أحمد الحسن بن أبى أسامه سنة ٥١٨هـ صاحب ديوان الإنشاء فى أيام الخليفة الآمر بأحكام الله (٧) .

* قيسارية جهاركس : بناها الأمير فخر الدين جهاركس فى سنة ٥٩٢هـ ويقول المقريزى إنه رأى جماعة من التجار يقولون : لم نرَ فى شئ من البلاد مثلها فى حسنها وعظمها وإحكام بنائها » وقد

---

(١) د . حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام السياسى ج ٤ / ص ٤١٤ .

(٢) المرجع السابق ص ٤١٥ .

(٣) د . راشد البراوى حالة مصر الاقتصادية ص ٢٧١ .

(٤) د . حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام ج ٤ / ص ٤١٥ .

(٥) هو القاضى المرتضى صفى الدين أبو المجد عبد الرحمن بن على بن عبد العزيز بن على بن قريش المخزومى أحد كتاب الإنشاء أيام صلاح الدين وقتل شهيدا على عكا سنة ٥٨٦هـ ودفن بالقدس (الخطط ج ٢ / ص ٨٦)

(٦) المقريزى : الخطط ج ٢ / ص ٨٦ .

(٧) المصدر السابق .

بنى بأعلاها مسجد كبير (١) .

* قيسارية ابن يحيى : أنشأها القاضى المفضل هبة الله بن يحيى التميمى كان موثقاً كاتباً فى الشروط الحكمية فى حدود سنة ٥٤٠ هـ فى الدولة الفاطمية (٢) .

* قيسارية ابن ميسر الكبرى : هذه القيسارية أدركها المقريزى بمدينة مصر فى خط سويقة وردان وهى عامرة يباع بها القماش الجديد من الكتان الأبيض والأزرق والطرح وتمضى تجار القاهرة إليها فى يومى الأحد والأربعاء لشراء الأصناف المذكورة (٣) .

* قيسارية عبد الباسط : هذه القيسارية برأس الخراطين من القاهرة (٤) .

أما الخانات فقد كانت عبارة عن مجموعة ضخمة من الحوانيت والمستودعات التجارية فى وسطها بهو كبير مسقوف استعمل لحفظ سلع التجار ، وفى الخان يأخذ التاجر راحته وتستريح دوابه ويستطيع أن يبيت فيه ، وخارج الخان يوجد ساقية للسبيل ، وحانوت يشترى منه المسافر ما يحتاج لنفسه ولدوابه (٥) .

ويذكر ناصر خسرو أنه رأى فى الفسطاط أثناء زيارته لمصر خاناً يسمى « دار الوزير » لا يباع فيه سوى القصب وفى الدور الأسفل منه يجلس الخياطون ، وفى الأعلى الرفاءون وإيجار هذا الخان لا يقل عن اثنى عشر ألف دينار فى السنة ويقول : إن فى هذه المدينة مائتى خان أخرى (٦) .

ويذكر المقريزى عدداً من الخانات مثل :

* خان مسرور : وكانت تنزله أعيان التجار الشاميين بتجاراتهم (٧)

* خان السبيل : ويقع خارج باب الفتوح وقد أنشأه الأمير بهاء الدين أبو سعيد قراقوش

---

(١) المقريزى : الخطط ج ٢ / ص ٨٧ .

(٢) المصدر السابق ص ٩٠ .

(٣) المصدر السابق ص ٩١ .

(٤) المصدر السابق .

(٥) د . انطوان خليل الدولة المملوكية ص ٢١٠ – ٢١١ .

(٦) ناصر خسرو . سفرنامه ص ١٠٦ .

(٧) المقريزى : الخطط ج ٢ / ص ٩٢ .

عبدالله الأسدى لأبناء السبيل والمسافرين .

* خان منكورش : ويقع هذا الخان بالقرب من الجامع الأزهر وقد أنشأه الأمير ركن الدين منكورش أحد أمراء السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب (١) .

نظم المعاملات التجارية

أولا : السكة (العملة) :

يعرف ابن خلدون السكة بقوله : « السكة هى الختم على الدنانير والدراهم المتعامل بها بين الناس بطابع حديد ينقش فيه صور أو كلمات مقلوبة ويضرب بها على الدينار أو الدرهم فتخرج رسوم تلك النقوش عليها ظاهرة مستقيمة » ثم يقول : « ولفظ السكة كان اسماً للطابع وهى الحديدة المتخذة لذلك ، ثم نقل إلى أثرها وهى النقوش الماثلة على الدنانير أو الدراهم ، ثم نقل إلى القيام على ذلك والنظر فى استيفاء حاجاته وشروطه ، وهى الوظيفة فصار علما عليها فى عرف الدول » (٢) .

وتعتبر السكة وسيلة هامة من وسائل التعامل التجارى فى البيع والشراء ، وترجع أهميتها إلى أنها كانت توضح مدى التقدم والازدهار الاقتصادى والحضارى للدولة ، وكانت هذه العملة عبارة عن الدينار ، وهو الاسم الذى كان يطلق على النقود الذهبية ، كما كان اسم الدرهم يطلق على النقود الفضية (٣) .

وكلمة الدينار تقابل كلمة ديناريوس Denarius عند اللاتين وكلمة deniers عند الفرنسيين (٤)، أما الدرهم فهى كلمة مأخوذة من لفظ Derahme اليونانية (٥) .

ولقد ظلت مصر بعد الفتح الإسلامى تستخدم سكة الخلافة ، إلى أن قام أحمد بن طولون بضرب دنانير سميت بالدينار الأحمدى (٦)

---

(١) المصدر السابق ص ٩٢ .

(٢) ابن خلدون : المقدمة ص ٣٢٢ .

(٣) د . عبد المرضى محمد عطوة : العلاقات بين المغرب والأندلس ص ٢٧٨ - ٢٧٩ .

(٤) صامويل برنار : وصف مصر ص ١٥ .

(٥) الشيرزى نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ص ١٦ الحاشية .

(٦) المقريزى : الخطط ج ١ / ص ٤٢ .

ولما فتح جوهر الصقلى مصر سنة ٣٥٨هـ عمل على إصدار عملة جديدة تحمل اسم الفاطميين فأمر بضرب الدينار المعزى ونقش عليه بأحد وجهيه ثلاثة أسطر أحدها « دعا الإمام معد لتوحيد الأحد الصمد » والثانى « المعز لدين الله أمير المؤمنين » والثالث « ضرب هذا الدينار بمصر سنة ٣٥٨هـ » (١).

وفى الوجه الآخر « لا إله الا الله محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » على أفضل الوصيين وزير خير المرسلين » (٢) .

ولما كان الفاطميون من الشيعة فإننا نجد أن عملتهم كانت تحمل صفتهم المذهبية ، وبالتالى فإن الدولة بإصدارها هذه العملة تعلن عن سيادتها وعن عقيدتها الدينية (٣) .

وكانت العملة الفاطمية فى مصر كالعملة فى كل الدول الإسلامية تعرف باسم السكة ، وهذه الكلمة حسب قول ابن خلدون تدل على خاتم الحديد الذى تطبع عليه العملة أو تضرب عليه بالمطرقة ، ولذلك فإن لفظ السكة أطلق على العملة وعلى الدار التى تصنع فيها فسميت دار السكة أو دار الضرب ، وقد صارت مصر بمجئ الفاطميين مقراً لضرب العملة الفاطمية (٤) .

وكثر ضرب الدينار المعزى ، لكن المصريين استمروا يتعاملون بالدينار الراضى ، فلما قدم الخليفة الفاطمى المعز إلى مصر سنة ٣٦٢هـ ونزل بقصره من القاهرة عهد إلى يعقوب بن كلّس وعسلوج بن الحسن بالإشراف على الخراج فامتنعا أن يأخذا إلا ديناراً معزياً فاتضع الدينار الراضى وانحط ونقص من صرفه أكثر من ربع دينار (٥) وبذلك حملت الحكومة الفاطمية المصريين على التعامل بنقودها (٦) .

وبالإضافة إلى الدينار المعزى فقد وجد فى مصر الدينار المغربى الذى أتى به الفاطميون معهم من المغرب .

---

(١) المقريزى : شذور العقود ص ١٣٩ .

(٢) المصدر السابق ص ١٤٠ .

(٣) د . عبد المنعم ماجد : النقود الفاطمية فى مصر ص ٢٢٣ .

(٤) المرجع السابق ص ٢٢٤ .

(٥) المقريزى : شذور العقود ص ١٤١ .

(٦) د . جمال سرور . الدولة الفاطمية فى مصر ص ١٦٠ .

ولم يقف الأمر عند ذلك بل أصدر الفاطميون فى عهد الخليفة الحاكم أمراً بضرب الدراهم الفضية واتخاذها وحدة للتعامل وبذلك أصبحت مصر تسير على نظام المعدنين وأصبحت النقود الفضية عملة قانونية [1] وتقرر أمر الدراهم على ثمانية عشر درهماً بدينار [2] ويبدو أن ضرب هذه الدراهم أريد به تيسير التعامل فى السلع القليلة الثمن [3] .

فلما زالت الدولة الفاطمية ، وتولى الأيوبيون حكم البلاد ضرب صلاح الدين السكة فى سنة ٥٦١هـ باسم الخليفة العباسى المستضئ بأمر الله ، وباسم نور الدين محمود [4] .

ولما توفى نور الدين محمود أمر صلاح الدين فى سنة ٥٨٣هـ بأن يضرب الدينار ذهباً مصرياً ، وضرب الدراهم الناصرية ، وجعلها من فضة مخلوطة بالنحاس على التساوى [5] .

فلما تولى الملك الكامل الحكم أمر بإلغاء الدرهم الناصرى وفى سنة ٦٢٢هـ أمر بضرب دراهم مستديرة سميت باسمه ، وجعل الدرهم الكامل ثلثاه فضة خالصة والثلث نحاس [6] واستمرت هذه الدراهم مدة ملوك بنى أيوب [7] .

ثانياً : الصكوك :

لما كانت المعاملات الضخمة تستدعى وسائل للدفع مأمونة من الضياع خفيفة الحمل بعيدة عن تناول اللصوص [8] ظهرت الحاجة إلى استعمال الصك ، وقد استخدمه التجار فى مصر والحجاز وأقطار أخرى من العالم الإسلامى .

ويعرف الخوارزمى الصك بأنه يجمع فيه أسماء المستحقين وعدتهم ومبلغ ما لهم ويوقع السلطان

---

(١) د . راشد البراوى : حالة مصر الاقتصادية ص ٣٠٤ .

(٢) المقريزى : شذور العقود ص ١٤٢ .

(٣) د . جمال سرور . الدولة الفاطمية فى مصر ص ١٦٠ .

(٤) المقريزى : شذور العقود ص ١٤٣ .

(٥) المصدر السابق ص ١٤٤ .

(٦) العمرى : مسالك الأبصار ص ٨٠٠ .

(٧) المقريزى : شذور العقود ص ١٤٦ .

(٨) آدم متز : الحضارة الإسلامية ج ٢ / ص ٢٧٨ .

فى آخره بإطلاق الرزق لهم (١) .

وقد صار الصك من وسائل التعامل التجارى ، إذ يعتبر فى الأصل سند الدين (٢) ، وهو أشبه بالشيك فى الوقت الحاضر (٣) .

وقد ذكر ناصر خسرو أنه استعمل الصك فى تعاملاته أثناء وجوده بمصر فيروى أنه لما خرج من أسوان متجهاً إلى عيذاب أخذ خطاباً من صديق له كتبه إلى وكيله فى عيذاب ، بأن يعطى ناصراً كل ما يريد ، ويأخذ منه صكاً بالحساب قبل سفره إلى الحجاز (٤) .

ويرى آدم متز أن التعامل بالصك هو أرقى ما وصل إليه التعامل المالى بين التجار المسلمين (٥).

ثالثاً : الموازين :

كانت الموازين المستخدمة فى مصر هى القنطار - الرطل - الأوقية - الدرهم - المن ، وكان القنطار المتعارف عليه مائة رطل ، والرطل المصرى يقدر باثنتى عشرة أوقية والأوقية تقدر باثنى عشر درهماً ، لذا يقدر الرطل المصرى بمائة وأربعة وأربعين درهماً ، ويقدر المن بمائتين وستين درهماً (٦) .

ولقد اختلف وزن الرطل فى جميع مدن مصر ، فكان لكل مدينة ومنطقة رطلها الخاص بها ، ومن النادر أن نجد مدينة يوافق وزن رطلها مدينة أخرى ، ولقد عرض ابن الأخوة لهذه الاختلافات كما يتضح من البيان التالى :

الرطل المصرى	١٤٤ درهم
الرطل الليثى (٧)	٢٠٠ درهم

(١) الخوارزمى . مفاتيح العلوم ص ٨٣ .

(٢) آدم متز : الحضارة الإسلامية ج ٢ / ص ٢٧٩ .

(٣) د . حسن إبراهيم . تاريخ الإسلام ج ٤ / ص ٤١٨ .

(٤) ناصر خسرو : سفرنامه ص ١١٩ - ١٢٢٠ .

(٥) آدم متز . الحضارة الإسلامية ج ٢ / ص ٢٨٠ .

(٦) الشيزرى . نهاية الرتبة ص ١٥ - ١٦ ، العمرى : مسالك الأبصار ص ٨١ .

(٧) الليثى نسبة إلى منية الليث وبنى هاشم من أعمال الغربية فى ذلك العصر وهما مجموعتان كبيرتان ذكرهما ابن مماتى (ابن الأخوة - معالم القربة - حاشية ص ١٣٨ نقلاً عن ابن مماتى : قوانين الدواوين) .

الرطل الجروى	٣١٢ درهم
رطل اللحم والخبز بمدينة قوص	٣١٥ درهم
بقية السلع بمدينة قوص (بالرطل الليثى)	٢٠٠ «
رطل اللحم والخبز بمدينة أسيوط	١٦٠٠ «
بقية السلع بمدينة أسيوط (بالرطل الليثى)	٢٠٠ «
رطل اللحم والخبز بمدينة منفلوط (بالرطل الليثى)	٢٠٠ «
بقية السلع بمدينة منفلوط (بالرطل المصرى)	١٤٤ «
رطل منية ابن الخصيب (الرطل المصرى)	١٤٤ «
رطل اللحم والخبز بمدينة أخميم (ويسمى المن)	١٠٠٠ «
بقية السلع بمدينة أخميم (بالرطل الليثى)	٢٠٠ «
رطل مدينة المحلة	٢٣٦ «
رطل مدينة الإسكندرية	٣١٢ «
رطل مدينة دمياط	٣٣٠ «
(الرطل البلبيسى) رطل مدينة بلبيس	١٨٠ «
رطل مدينة سمنود	٣١٢ «
رطل مدينة الفيوم	١٥٠ « (١)

واختلف كذلك مبلغ ما تحتويه الأوقية من الدراهم فى كثير من مدن مصر على النحو التالى : (٢)

أوقية رطل مصر	١٢ درهم
أوقية رطل قليوب / الفيوم	١٢ ١/٢ درهم

(١) ابن الأخوة : معالم القربة ص ١٣٩ - ١٤٠ .

(٢) د . راشد البراوى : حالة مصر الاقتصادية ص ٢٠٤ نقلا عن : M . H. Sauvaire Matériaux pour serviral'histoire de la numismatique et de la métrologee musulmanes pp 302 - 304 .

والرطل الفلفلى

أوقية الرطل الليثى	٢/٣ ١٦ درهم
أوقية الرطل الجروى	٢٦ »
أوقية الرطل بدمياط	١/٢ ٢٧ »
أوقية الرطل بقوة	٣٠ »
أوقية الرطل بالمحلة	١/٣ ٣٣ »
أوقية الرطل بأسيوط	٣٣٦ »

وطماوطهطا

رابعاً : المكاييل :

كانت المكاييل المستخدمة فى مصر هى : الأردب – الويبة القدح . ويعتبر الأردب أكبر وحدة للمكيال بمصر ويساوى ست ويبات (١) وتليه الويبه وتساوى ستة عشر قدحاً (٢) ، والقدح وتقديره بالوزن من الحب مائتان واثنان وثلاثون درهماً (٣) .

ونظراً لأن الحجاز كانت تعتمد على إنتاج مصر من الغلال والحبوب فإن الأردب المصرى يساوى أربعة وعشرين صاعاً حجازياً والويبة تساوى أربعة وعشرين مداً (٤) .

---

(١) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ٢٠٤ .

(٢) القلقشندى · صبح الاعشى ج ٣ / ص ٤٤١ .

(٣) العمرى . مسالك الأبصار ص ٨١ .

(٤) على بن سليمان   النشاط التجارى ص ٢٦٧ .

خامساً : المكوس :

المكوس هى عبارة عن الرسوم التى فرضها الفاطميون (1) على كل عمليات البيع والشراء حيث كانت تحصل على السلع الصادرة والواردة مهما كان نوعها ، فقد فرضت الرسوم على البضائع التى يجلبها التجار الكارمية فى البحر الأحمر من جهة الحجاز واليمن وما والاهما ويجرى تحصيلها فى أربع جهات : عيذاب وكانت تعج بالنشاط لكثرة السفن العابرة من جدة إليها ، ومن عيذاب يتم نقل البضائع إلى قوص تحمل البضائع عن طريق النيل إلى فندق الكارم بالفسطاط ، أما الجهة الثانية فهى القصير وترددت إليها بعض السفن لقربها من قوص ، وبُعْد عيذاب منها ، ويجرى حمل البضائع إلى قوص ، ثم إلى فندق الكارم بالفسطاط ، إلا أن القصير لم تكن فى نشاط عيذاب ، ويضاف إلى هذين الموضعين الطور والسويس غير أنهما لم ينالا الأهمية المطلوبة فى زمن الأيوبيين بسبب تعرضهما لأخطار الصليبيين (2) .

وقد اختلفت قيمة الرسوم فكان يؤخذ من تجار الروم الواردين على الثغر الخمس ، ومن أجناس الروم من يستأدى منهم العشر ، ولم تكن هناك نسبة ثابتة فأحياناً تصل إلى ٣٥٪ من قيمة البضائع ، وقد تهبط إلى ٢٠٪ ، وكانت الرسوم المفروضة على تجار المسلمين أقل بطبيعة الحال من التى يدفعها التجار المسيحيون ، ويبدو أن حاجة الحكومة إلى الأموال كانت سبباً فى رفع المكوس وخاصة خلال الشدائد والأزمات ، كما أنها قد تزداد على سلع الترف (3) .

أما المكوس التى كان يجرى تحصيلها بالفسطاط والقاهرة فإنها كانت كثيرة ومتعددة شملت الرسوم على البضائع الواردة على المدن والتفتيش والمخازن والأسواق والبضائع الصادرة من المدن وحراسة الغلات بالمقس ورسوم الدلالة وأجور استخدام المعديات على النيل (4) ، وكانت هذه الرسوم تدفع إلى بيت المال فى القاهرة ، أما فى الأرياف فكانت تدفع إلى السلطات المحلية (5) وسنعرض لأهم

---

(1) المقريزى الخطط ج ١ / ص ١٠٤ .

(2) د . السيد الباز العرينى · مصر فى عصر الأيوبيين ص ١٩٤ .

(3) د . راشد البراوى · حالة مصر الاقتصادية ص ٢٦٨ .

(4) المرجع السابق ص ٢٠١ .

(5) المرجع السابق ص ٣٤٥ .

هذه المكوس كما جاءت عند المقريزى (١) فى البيان التالى :

المكس	قيمة التحصيل بالدينار
البهار	٣٣,٣٦٤
البضائع والقوافل	٩,٣٥٠
الوارد من البز والنحاس والقصدير والمرجان	٥,١٩٣
الصادر عن الصناعة بمصر	٦,٦٦٦
مكس البضائع بفندق المنيه	٨٥٦ر
رسوم الخشب الطويل والملح	٦٧٦ر
رسوم التفتيش بالصناعة	٢١٧ر
الوارد إلى خيمة أرمنت	٦٧ر
فندق القطن	١٠٠٠ر
سوق الغنم بالقاهرة والفسطاط والجيزة	٣,٣١١
عبور الأغنام والأبقار بباب القنطرة	١١٠٠
مكس الأغنام الصادر والوارد	٣٢٨ر
الكتان والحطب الوارد للصناعة	١٠٠ر
الحبوب والغلات الواردة للصناعة	٦٠٠٠
البضائع الواردة من الفيوم وغيره	٤,١٦٠
الورق المجلوب إلى الصناعة ورسم التفتيش	١٠٠ر
دار التفاح والرطب بالفسطاط والقاهرة	١٧٠٠
دار الجبن	١٠٠٠
واجب الحلى الوارد من الوجه البحرى والقطن	١٠٢٠
النسيج الشرب والدبيقى	١٥٠٠

---

(١) المقريزى . الخطط ج ١ / ص ١٠٤ - ١٠٥ وقد عرض المقريزى لكل هذه المكوس لكنا آثرنا عرض أهمها إذ يبلغ عدد هذه المكوس ٨٨ مكساً

المكس	قيمة التحصيل بالدينار
مكس الصوف	٢٠٠ر
نفقة الموردة بساحل المقس	١٤ر
سوق السمك بالفسطاط والقاهرة	١١٠٠
سوق الدواب بالفسطاط والقاهرة	٤٠٠ر
سوق الجمال	٢٥٠ر
رسوم الدلالة	٣٠٠ر

ومما سبق يتضح أن الدولة الفاطمية فرضت المكوس على الصادر والوارد من البضائع المختلفة سواء أكانت من الغلات الزراعية ، والمنتجات الصناعية أم السلع الأجنبية الواردة إلى مصر .

وحينما زالت الدولة الفاطمية واستقرّ الأمر لصلاح الدين أمر بالغاء هذه المكوس برغم ما كان يتحصل منها كل سنة من الأموال التى بلغت نحو ١٠٠ ألف دينار (١) رغبة فى التقرب إلى المصريين بعد إنهاء الخلافة الفاطمية فى مصر .

وكان هناك نوع من المكوس يفرض على الحجاج القادمين إلى الحجاز بطريق عيذاب (٢) مقداره سبعة دنانير ونصف من الدنانير المصرية (٣) ، وكانت تلك المكوس تؤدى أحياناً فى عيذاب أو فى جدة(٤) ، ويذكر ابن جبير أن هذا المكس قرر فى عهد الفاطميين وكان الحجاج يلاقون عنتاً شديداً حتى يؤدوا هذا المكس ومن يعجز عن أدائه يتعرض لأنواع شديدة من القهر والتعذيب فى مدينة عيذاب(٥) ، وكان بجدة أمثال هذا التنكيل وأضعافه لمن لم يؤدِ مكسه بعيذاب ، ووصل اسمه غير معلم عليه علامة الأداء (٦) ، بل قد يحبس ويمنع من تأدية الفريضة (٧) ، وكانت هذه المكوس تعود إلى

---

(١) المقريزى : الخطط ج ١ / ص ١٠٥ .

(٢) الجزيرى : درر الفرائد المنظمة ج ١ / ص ٥٧٢ .

(٣) ابن جبير : الرحلة ص ٣٠ .

(٤) ابن فهد : اتحاف الورى بأخبار أم القرى ج ٢ / ص ٥٣٩ .

(٥) ابن جبير : الرحلة ص ٣٠ - ٣١ .

(٦) الفاسى . العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين ج ٧ / ص ٢٧٧ .

(٧) الصباغ : تحصيل المرام لوحة رقم ٢٣٤ .

صاحب مكة لأن جباياته لا تفى بلوازمه وأرزاق من معه من الجند (١) ، وكان لأمير المدينة أيضاً جزء من هذه المكوس (٢) .

المواني والمحطات التجارية:

* الفسطاط :

كانت الفسطاط من أهم المراكز التجارية فى مصر وقد وصفها الإدريسى بقوله : « هى الآن مدينة كبيرة على غاية من العمارة والخصب والطيب والحسن فسيحة الطرقات متقنة البناءات قائمة الأسواق نافقة التجارات » (٣) وترجع أهميتها التجارية إلى أنها تقع على النيل فى مكان متوسط بين الوجهين القبلى والبحرى وعلى مقربة من النقطة التى ينقسم فيها النيل إلى فرعية الرئيسيين ، كما أنها تتصل بالنيل بكافة البلاد من أسوان حتى ساحل البحر الأبيض المتوسط ، وكانت ترتبط بالبلاد بواسطة القوافل حيث تخرج منها طرق برية مباشرة إلى بلاد الحجاز والشام ، وبلاد المغرب ، وبذا وصلت إليها المتاجر من أوربا وآسيا وإفريقية (٤) ومنها كانت ترد المؤن والإعانات إلى مكة المكرمة (٥) .

فلما قدمت عساكر المعز لدين الله إلى مصر وبنى جوهر الصقلى مدينة القاهرة وصارت حاضرة الخلافة ، استمر سكنى الرعية بالفسطاط (٦) وظلت المدينة تؤدى دورها التجارى بنشاط خاصة ، وأن أهل المدينة الجديدة كانوا يعتمدون على الفسطاط وأسواقها الحصول على المواد الغذائية والمصنوعات والسلع الواردة من الخارج ، ولم يؤثر إنشاء القاهرة على مركز الفسطاط التجارى خاصة ، وأن موقعها بالنسبة إلى النيل كان دون موقع الفسطاط مما جعل الأسعار فى الفسطاط أقل منها فى حاضرة البلاد الرسمية (٧) كما وصف ناصر خسرو تجارها بالأمانة والصدق فقال : « وتجار مصر

---

(١) الحميرى . الروض المعطار ص ٤٢٤ .

(٢) الفاسى : العقد الثمين ج ٧ / ص ٢٧٧ .

(٣) الإدريسى : نزهة المشتاق ج ١ / ص ٣٢٣ .

(٤) د. البراوى · حالة مصر الاقتصادية ص ١٩٩ .

(٥) د. عطية القوصى تجارة مصر فى البحر الأحمر ص ٣٨

(٦) المقريزى : الخطط ج ١ / ص ٢٨٦ .

(٧) د. راشد البراوى . حالة مصر الاقتصادية ص ١٩٩ .

يصدقون فى كل ما يبيعون ، وإذا كذب أحدهم على مشتر فانه يوضع على جمل ويوضع جرساً بيده ، ويطوف به فى المدينة وهو يدق الجرس ، وينادى قائلاً : قد كذبت وها أنا أعاقب ، وكل من يقول الكذب فجزاؤه العقاب (١) واستمرت الفسطاط مزدهرة إلى أن أمر شاور بإحراقها فى نهاية العهد الفاطمى خوفاً من استيلاء الصليبيين عليها (٢) وقد شاهد ابن جبير بعضاً من آثار الخراب الذى أحدثه الإحراق إلا أنها جددت مبانيها فى عهد الأيوبيين (٣) وعادت لبعض من النشاط الذى كان يمارسه أهلها .

* القاهرة :

أخذت القاهرة تنافس الفسطاط وتزدهر تجارياً نظراً لوقوعها عند التقاء الطرق التجارية ، فالطريق الذ استعمل لنقل السلع بين إفريقية وآسيا وفى حج المسلمين الافريقيين إلى مكة كان يمر فى وسطها ، فضلا عن أن الطريق الذى كانت تحمل عليه السلع الثمينة من السودان والحبشة كان ينتهى فيها ، وفيها تمركز الجهاز العسكرى والإدارى الحاكم الذى جذب إليه تجارة البحرين الأحمر والمتوسط(٤) وقد وصف المقريزى ازدهار تجارتها ورواجها بقوله : « هى عظيمة أهلة يجبى إليها من الشرق والغرب والجنوب والشمال ما لا يحيط بجملته وتفصيله إلا خالق الكل جلا وعلا » (٥) .

فالسلع التى كانت ترد إلى الاسكندرية ودمياط كانت ترسل بدورها إلى بولاق ميناء القاهرة على النيل وأسواقها كانت مزدهرة ، وعامرة بجميع أنواع السلع المحلية والأجنبية الشرقية والغربية فكان فيها سوق للأقمشة الإيطالية والأوربية ، وأخرى للسلع الفارسية فضلاً عن أسواق التجارة الكارمية (٦)

(١) ناصر خسرو : سفرنامه ص ١٠٥ .

(٢) المقريزى : الخطط ج ١ / ص ٢٨٦ .

(٣) ابن جبير · الرحلة ص ٢٩ .

(٤) د . انطوان خليل : الدولة المملوكية ص ١٨٨ .

(٥) المقريزى : الخطط ج ١ / ص ٣٦٧ .

(٦) تجار الكارمية هم تجار التوابل وغيرها من سلع الشرق الأقصى بين المحيط الهندى ومصر عبر البحر الأحمر ، وقد بنى لهم تقى الدين عمر ابن أخى صلاح الدين الأيوبى فندقاً لهم فى مدينة الفسطاط ، وكانت المحطات الكبرى للتجارة الكارمية فى عدن ، وتعز ، وزبيد ومخازنهم التجارية فى قوص حيث نظموا شئونهم الاقتصادية ، ومن عيذاب والطور والسويس كانت تبدأ رحلاتهم بين البحر الأحمر وقوص والقاهرة والاسكندرية ودمياط وكانوا يغرقون أسواق مكة وجدة فى مواسم الحج بسلعهم المتنوعة وفيهما تعقد الصفقات التجارية الكبرى (أنظر د . صبحى لبيب : التجارة الكارمية وتجارة مصر فى العصور الوسطى - المجلة المصرية للدراسات التاريخية مايو ١٩٥٢ - العدد الثانى / المجلد لرابع / ص ١٢ - ١٩) .

وهكذا صارت القاهرة مستودعاً للسلع التجارية العالمية التى كان يتزود منها التجار العرب والمسلمون(١).

* الإسكندرية :

كانت الإسكندرية مربعة الشكل ولها أربعة أبواب موزعة على الجهات الأربع وفيها طريق رئيسى يصل الباب الشرقى بالباب الغربى ، وينفرج الباب الشمالى على الميناء وبالقرب منه يمتد الحى الأكثر ازدحاماً بالسكان ، حيث الحى التجارى وفيه كانت تنتشر مؤسسات الأجانب التجارية ومراكز قنصلياتهم ، وكانت أسواق الإسكندرية تعد من أكبر وأشهر أسواق البهارات فى العالم ، وكانت تحمل إليها الأقمشة الأوروبية المتنوعة ، والبهارات من آسيا ، والذهب من السودان ، والمعادن والأخشاب من أوربا والسجاد والأحجار الكريمة من بلاد فارس ، وفيها كانت تتم المبادلات التجارية العالمية (٢) .

* عيذاب :

شهد العصر الاسلامى بمصر نشأة ميناء عيذاب على الشاطئ الغربى للبحر الأحمر ، ولقد استمدت شهرتها من أهمية الدور الذى قامت به كقاعدة بحرية تجارية لتجارة الشرق الأقصى عبر مصر إلى أوربا ، وكمرحلة هامة فى طريق قوافل الحجاج إلى المقدسات الإسلامية بالحجاز عبر البحر الأحمر نظراً لموقعها المواجه لميناء جدة (٣) وكانت عيذاب تستخدم فى السفر إلى مكة والحجاز قبيل الفاطميين(٤) ، ثم زادت أهميتها فى العصر الفاطمى ابتداء من سنة ٤٦٠هـ بسبب الشدة العظمى التى قاستها مصر فى عهد المستنصر بالله (٥) نتيجة لخراب الدلتا ، فتحولت قوافل الحجاج المصريين والمغاربة عن طريق شبه جزيرة سيناء إلى عيذاب ، واستمر هذا الطريق طوال العصر الأيوبى بسبب الحروب الصليبية (٦) .

فقد ظل حجاج مصر والمغرب أكثر من مائتى سنة لا يتوجهون إلى مكة إلا من صحراء

---

(١) د . انطوان خليل : الدولة المملوكية ص ١٨٩ .

(٢) المقريزى : الخطط ج ١ / ص ٢٠٢ .

(٣) د . أحمد دراج : عيذاب ص ٥٧ .

(٤) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ق ١ / ٢٠ .

(٥) آدم متز : الحضارة الإسلامية ج ٢ / ص ٣١٩ ، القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ / ص ٤٦٤ .

(٦) د . أحمد دراج : عيذاب ص ٥٧ .

عيذاب[1] فيركبون المراكب فى النيل من الفسطاط إلى قوص ، ثم يركبون الإبل من قوص ، ويعبرون هذه الصحراء إلى عيذاب ثم يركبون السفن إلى جدة ومنها إلى مكة [2]

وكان البحارة والتجار يفضلون الرسو فيها عند قدومهم إليها أو عند رحيلهم عنها بسبب عمق ميناءها وغزارة مياهه وخلوه من الشعاب المرجانية التى تعيق الملاحة [3] .

وكانت تجبى بها الرسوم على البضائع الواردة من الحجاز واليمن وزنجبار والهند والحبشة [4] .

ولقد ازدهرت عيذاب فى العصر الأيوبى ، فيذكر ابن جبير فى رحلته للأراضى الحجازية بأنها كانت من أحفل مراسى الدنيا لأن مراكب الهند واليمن تحط فيها وتقلع منها باستمرار بالإضافة إلى مراكب الحجاج التى تقصدها دائماً فى مواسم الحج [5] وأنه أراد إحصاء عدد القوافل العيذابية الصادرة والواردة فلم يستطع لكثرة عددها [6] .

وقد ساد الأمن والاستقرار فى عيذاب بحيث كانت أحمال البهار كالقرية والفلفل ونحو ذلك توجد ملقاة بها دون أن يتعرض لها أحد حتى يأتى صاحبها ويأخذها [7] .

ونظراً لقرب عيذاب من جدة فقد كانت الغلات الآتية من الحبشة ، وساحل إفريقية واليمن والهند، وما بعدها تصل إلى عدن ، إذ هى نقطة ابتداء البحر الأحمر ثم تنقل منها مباشرة إلى جدة ، ومن جدة تنقل إلى عيذاب [8] .

* **دمياط :**

يعد ميناء دمياط من الموانئ المهمة فى مصر فهو ثالث الثغور التى تقع على ساحل مصر الشرقى وهى تنيس والفرماودمياط [9] ويعتبر مخرج التجارة المصرية إلى البحر المتوسط ويتصل بالقوافل البرية إلى موانئ البحر الاحمر ، ولا تدخل إليه المراكب مباشرة بسبب شدة تيار مياه النيل

---

(١) المقريزى · الخطط ج ١ / ص ٢٠٢

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ق ١ / ٢٠ .

(٣) أدم متز · الحضارة الإسلامية ج ٢ / ص ٣١٩ ، القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ / ص ٤٦٤ .

(٤) ناصر خسرو . سفرنامه ص ١١٨ ، د . راشد البراوى : حالة مصر الاقتصادية ص ٢٨٩ .

(٥) ابن جبير . الرحلة ص ٤٥ .

(٦) المصدر السابق ص ٤٣ .

(٧) المصدر السابق ص ٤٤ – المقريزى · الخطط ج ١ / ١٠٢ / الجزيرى : درر الفرائد ج ٢ / ص ٤٠٠ .

(٨) د . راشد البراوى · حالة مصر الاقتصادية ص ٢٩٢ .

(٩) د . حسن إبراهيم · تاريخ الإسلام ج ٤ / ص ٤٠٦ .

فقد كانت تخرج منه قناة تصل حتى مدينة تنيس حيث كانت ترسو المراكب (١) وقد برزت دمياط فى ميدان التجارة والصناعة ، وصارت فى العصر الفاطمى مركزاً هاماً لصناعة النسيج ، كما كانت تبنى فيها السفن التجارية والحربية (٢) .

* القصير :

ويقع ميناء القصير فى جهة الشمال من عيذاب وكانت بعض المراكب تقصده لقربه من قوص ، وبُعْد عيذاب منها ، وتحمل البضائع منه إلى قوص ، ومن قوص إلى فندق الكارم بالفسطاط (٣) .

* القلزم :

كانت القلزم من الموانئ ذات الصلة التجارية بموانئ الحجاز (٤) ، وفيها كانت تبنى بعض السفن التجارية (٥) ومنها تحمل الحمولات إلى الحجاز واليمن (٦) وقد وصفها المقدسى بأنها خزانة مصر وفرضة الحجاز ومعونة الحاج (٧) وقد استمرت القلزم فى أهميتها التجارية حتى نهاية القرن الرابع الهجرى (٨) .

* الفرما :

صارت الفرما (وكانت مفتاح الديار المصرية) من المراكز التجارية بين الشرق والغرب (٩) ، فقد كانت البضائع تجلب من الموانئ الأوربية المختلفة إلى الاسكندرية والفرما ثم منها إلى الحجاز ، وكانت الفرما حلقة اتصال بين موانئ البحر المتوسط والبحر الأحمر وهى محطة أوربا وسورية (١٠) .

---

(١) د . أنطوان خليل · الدولة المملوكية ص ١٩٢ .
(٢) د . حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج ٤ / ص ٤٠٦ .
(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ / ص ٤٦٩ .
(٤) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ق ١ / ص ٢٧ .
(٥) الحميرى : الروض المعطار ص ٤٦٧ .
(٦) المقريزى : الخطط ج ١ / ص ٢١٣ .
(٧) المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ص ١٩٦ .
(٨) د. عطية القوصى : تجارة مصر فى البحر الأحمر ص ٣٧ .
(٩) د . حسن إبراهيم . تاريخ الإسلام ج ٤ / ص ٤٠٦ ، المقدسى · أحسن التقاسيم ص ١٩٥ .
(١٠) د . عطية القوصى · تجارة مصر فى البحر الأحمر ص ٣٣ .

ثانياً: الناحية الفكرية:

كانت النهضة العلمية بمصر فى بدء عهدها نهضة دينية إسلامية ، فمع الفتح الاسلامى جاء إلى مصر عدد من الصحابة أشهرهم عبد الله بن عمرو بن العاص ، وكان يحدث عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ويدون ما يسمع .

ويعد مؤسس المدرسة المصرية ، وأخذ عنه كثير من أهل مصر ، وكانوا يكتبون عنه ما يحدث(١)، ويذكر المؤرخون أن لأهل مصر عن عبد الله بن عمرو بن العاص قرابة مائة حديث (٢)

واشتهر من بعد عبد الله بن عمرو بن العاص الفقيه يزيد بن أبى حبيب من دنقلة ، وقد أخذ العلم عن بعض الصحابة المقيمين بمصر ، وكان أول من نشر الفقه بمصر ، ومن أشهر تلاميذه أبو عبد الرحمن عبد الله بن لهيعة المصرى ت ١٧٤هـ والليث بن سعد ت ١٧٥هـ (٣) .

ومن أقدم علماء الحديث فى مصر أيضاً عبد الله بن وهب بن مسلم المصرى ت ١٩٧هـ ، وقد رحل عبد الله بن وهب إلى الامام مالك وصحبه (٤) .

وكان للمصريين دور واضح فى علم القراءات ، واشتهر منهم ورش المقرئ واسمه عثمان بن سعيد المصرى ، وكان مولى لآل الزبير بن العوام ، وقد انتهت إليه رياسة القراء بالديار المصرية وقد توفى سنة ١٩٧هـ (٥) .

ومن أئمة القراءات فى مصر أيضاً أبو يعقوب الأزرق يوسف بن عمرو المصرى (ت حوالى

---

(١) عمر كحالة : مقدمات ومباحث فى حضارة العرب والإسلام ص ١٤٧ .

(٢) د . سيده كاشف : مصر فى عصر الولاة ص ١٨٢ .

(٣) عمر كحالة . مقدمات ومباحث ص ١٤٧ .

(٤) د . سيده كاشف · مصر فى عصر الولاة ص ١٨٤ .

(٥) ابن تغرى بردى . النجوم الزاهرة ج ٢ ص ١٥٥ .

٢٤٠هـ) وقد تتلمذ على ورش وأتقن عنه الأداء ، وخلفه فى الاقراء بالديار المصرية (١) .

وقد تأثرت مصر بالمذاهب الإسلامية التى ظهرت وهذا ما سوف نبينه فيما يلى :

أ - نشأة المذاهب الفقهية :

يعرف ابن خلدون الفقه بأنه « معرفة أحكام الله تعالى فى أفعال المكلفين بالوجوب والحذر والندب والكراهة والإباحة وهى متلقاة من الكتاب والسنة وما نصبه الشارع لمعرفتها من الأدلة فإذا استخرجت الأحكام من تلك الأدلة قيل لها فقه » (٢) .

على أن اختلاف أئمة الفقه فى فهم بعض النصوص الفقهية واستنباط الأحكام منها قد أدى إلى تعدد المذاهب ، واشتهر من هذه المذاهب أربعة هى : مذهب مالك بن أنس إمام أهل الحجاز وزعيم الفقهاء الذين يأخذون بطريقة أهل الحديث ، ومذهب أبى حنيفة إمام أهل العراق ، وزعيم الفقهاء الذين يأخذون بطريقة الرأى والقياس ، ومذهب الشافعى ، وكان يسير أولاً على طريقة أهل الحجاز ثم جعل مذهبه وسطاً بين الطريقتين ومذهب أحمد بن حنبل وسمى بالمذهب الحنبلى ، وكان يبعد عن الاجتهاد مما أدى إلى قلة عدد أنصاره (٣) .

ومن ثم ظهرت فى ميدان الفقه مدرستان : مدرسة أهل الحديث فى المدينة وعلى رأسها الإمام مالك بن أنس الأصبحى الذى كان يأخذ بمبدأ التوسع فى النقل عن السنة ومدرسة أهل الرأى فى العراق وعلى رأسها الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت الذى كان يدين بالرأى (٤) .

وقد ولد الإمام مالك بالمدينة سنة ٩٣هـ ، والمدينة المنورة كانت مركز الخلافة منذ بداية الإسلام وبعد وفاة الرسول - صلى الله عليه وسلم - فهى منشأ الأخيار من الأمة ، وأفق شمس المعارف الدينية،

---

(١) السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٠٧ .

(٢) ابن خلدون · المقدمة ص٥٦٣

(٣) د حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج ٢ / ص ٣٣١ .

(٤) المصدر السابق .

منها انتشر النور فى المعمورة ، وأهلها يروون السنة عن آبائهم وأجدادهم ، خلفاً عن سلف ، وجيلاً بعد جيل ، وكانوا متوافرين فيها إلى عصر مالك ، فورث مالك علم هؤلاء العلماء ، ونشأ مجداً فى التحصيل والرواية (١) .

وقد روى عن نافع مولى عبد الله بن عمر وابن شهاب الزهرى وأبى الزناد ، وعبد الرحمن بن القاسم ، وأيوب السختياني ويحيى بن سعيد الأنصارى ، وعائشة بنت سعد بن أبى وقاص وغيرهم وقد توفى الإمام مالك سنة ١٧٩هـ بالمدينة ودفن بالبقيع (٢) .

وكان مالك أول من كتب فى العلوم الدينية فى العصر العباسى ويعد كتابه « الموطأ » أول كتاب ظهر فى الفقه الاسلامى ، ومن كتبه « المدونة » وهى مجموعة رسائل من فقه مالك ، جمعها تلميذه أسد ابن الفرات النيسابورى ، وتشتمل على نحو ست وثلاثين ألف مسألة ، وكان مالك يعتمد على الحديث كثيراً لأن بيئته الحجازية كانت تزخر بالعلماء والمحدثين الذين تلقوا الحديث عن الصحابة رضوان الله عليهم ، وورثوا من السنة ما لم يتّح لغيرهم من أهل الأمصار الإسلامية الأخرى (٣) .

وكان من تلاميذه بمصر ابن القاسم ، وأشهب ، وابن عبد الحكم ، والحارث بن مسكين (٤) ، واستمرت الطريقة المالكية فى مصر من لدن الحارث بن مسكين ، وابن المبشر ، وابن اللهيث وابن الرشيق ، وابن شاس ، وكانت بالإسكندرية فى بنى عوف وبنى سند وابن عطاء الله (٥) .

أما أبو حنيفة النعمان بن ثابت فقد ولد بالكوفة سنة ٨٠هـ (٦) وتوفى سنة ١٥٠هـ ببغداد (٧) وقد روى أنه رأى أنس بن مالك – رضى الله عنه – وأخذ الفقه عن حماد بن أبى سليمان وسمع عطاء بن أبى رباح وأبا إسحاق السبيعى ، ومحارب بن دثار والهيثم بن حبيب الصواف ومحمد بن المنكدر ،

---

(١) مالك بن أنس : الموطأ برواية الشيبانى ص ١٠ .

(٢) ابن خلكان . وفيات الأعيان ج ٤ / ص ١٣٥ – ١٣٨ .

(٣) د . حسن إبراهيم . تاريخ الإسلام ج ٢ / ص ٢٣٣ .

(٤) ابن خلدون . المقدمة ص ٥٦٨ – ٥٦٩ .

(٥) المصدر السابق ص ٥٧٠ .

(٦) ابن خلكان . وفيات الأعيان ج ٥ / ص ٤١٣ .

(٧) المصدر السابق ص ٤١٤

ونافعاً مولى عبد الله بن عمر – رضى الله عنهما – وهشام بن عروة ، وسماك بن حرب وروى عنه عبدالله بن المبارك ، ووكيع بن الجراح والقاضى أبو يوسف ، ومحمد بن الحسن الشيبانى وغيرهم ، وكان عالماً زاهداً عابداً ورعا تقياً كثير الخشوع دائم التضرع إلى الله (١) ، وكان إماماً فى القياس(٢).

ومن تلاميذ أبى حنيفة الليث بن سعد الذى تولى قضاء مصر وقد ولد ببلدة قلقشندة بمصر فى محافظة القليوبية ، واشتهر بالكرم والثراء ، وبلغ دخله خمسة آلاف دينار فى السنة كان يفرقها على أهل العلم من أصحابه وقد أشاد العلماء بعمله وعلمه ، فقد روى عن الشافعى أنه قال : إن الليث أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به (٣) .

ومن أكبر تلاميذ أبى حنيفة القاضى أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم الذى ولد سنة ١١٣هـ وتوفى سنة ١٨٢هـ (٤) وقد نشأ فقيراً ، وكان أستاذه أبا حنيفة يمده بالمال ، وقد تولى أبو يوسف القضاء للمهدى والهادى والرشيد ، ومن مؤلفات أبى يوسف « كتاب الخراج » الذى ألفه للرشيد ، وقد أخذ أبو يوسف الفقه عن أبى حنيفة ، وعمل على نشر مذهبه ومبادئه بعد أن تقلد قضاء بغداد (٥) .

ومن أصحاب المذاهب الفقهية أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعى الذى جمع بين مدرستى النقل والعقل بما أوتيه من سعة العقل والقدرة على الابتكار وهو أول من تكلم فى أصول الفقه ، وأول من أخذ فى وضع مبادئه ، وقد ترك بلاد العراق سنة ٢٠٠هـ وقصد مصر حيث مات بها سنة ٢٠٤ هـ وله كتب كثيرة فى الفقه منها كتاب المبسوط فى الفقه ، وكتاب الأم ، وقد أملاه على تلاميذه فى مصر وروى عنه كثير من الفقهاء ، كأبى ثور وابن الجنيد والبويطى وابن سريج وغيرهم (٦) .

ومن أصحاب المذاهب الإمام أحمد بن محمد بن حنبل الذى ولد فى بغداد سنة ١٦٤هـ وكان إمام

---

(١) المصدر السابق ص ٤٠٦ .

(٢) المصدر السابق ص ٤٠٩ .

(٣) د حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج ٢ / ص ٣٣٤ .

(٤) أبو يوسف يعقوب : كتاب الخراج ص ١ تحقيق قصى محب الدين الخطيب ط ٥ سنة ١٢٩٦هـ ، كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربى ج ٣ / ص ٢٤٥ .

(٥) د . حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج ٢ / ص ٣٣٤ – ٣٣٥ .

(٦) ابن خلكان وفيات الأعيان ج ٤ / ص ١٦٣ – ١٦٦ .

المحدثين ، صنف كتابه المسند وجمع فيه من الحديث ما لم يتفق لغيره ، وكان من أصحاب الامام الشافعي وخواصه ، ولم يزل مصاحبه إلى أن ارتحل الشافعي إلى مصر ، وقد قال الشافعي عنه : خرجت من بغداد وما خلفت بها أتقى ولا أفقه من ابن حنبل (١) وقد توفى سنة ٢٤١هـ ببغداد (٢) .

ب - المذاهب الدينية التي سادت مصر :

انتقلت هذه المذاهب وغيرها إلى مصر ، لكنا نتساءل كيف انتقلت إلى مصر ؟ ، وما مدى انتشارها هنا وهناك ؟

كان مذهب الإمام مالك أول ما عرفته مصر من المذاهب الأربعة ، وقد قدم به إليها عبد الرحيم ابن خالد بن يزيد مولى جُمَح وكان فقيهاً وقد توفى بالإسكندرية سنة ١٦٣هـ واشتهر مذهب مالك منذ ذلك الحين ، ولم يكن مذهب أبى حنيفة معروفاً فى مصر من قبل ، حتى قدم إسماعيل بن إليسع الكوفى قاضياً ، وكان يذهب إلى قول أبى حنيفة ، فعرفت مصر ذلك المذهب ، وإن لم تقبل عليه(٣) .

ولم يزل مذهب مالك منتشراً بمصر حتى قدم محمد بن إدريس الشافعى إلى مصر سنة ١٩٨هـ فصحبه من أهل مصر جماعة من أعيانها وكتبوا عنه ما ألفه وعملوا بما ذهب إليه ، ولم يزل أمر مذهبه يقوى بمصر ، وذكره ينتشر ، واستمر مذهب مالك ومذهب الشافعى يعمل بهما أهل مصر ويولى القضاء من كان يذهب إليهما أو إلى مذهب أبى حنيفة إلى أن قدم جوهر الصقلى سنة ٣٥٨هـ بجيوش المعز لدين الله ، فمن حينئذ فشا بديار مصر مذهب الشيعة وعمل به فى القضاء والفتيا ، وأنكر ما خالفه(٤).

ويختلف المذهب الشيعى عن مذهب أهل السنة ، فالشيعة ينادون فى الآذان بجميع المساجد «حى على خير العمل» ويفضلون على بن أبى طالب على غيره من الصحابة ، ويجهرون بالصلاة عليه وعلى الحسن والحسين وفاطمة الزهراء رضوان الله عليهم ويجهرون بالبسملة فى الصلاة ، وفى صلاة الجمعة يزيدون القنوت فى الركعة الثانية ، وفى الميراث يردون على ذوى الأرحام وأن لا يرث مع البنت

---

(١) المصدر السابق ج ١ / ص ٦٤ .
(٢) المصدر السابق .
(٣) المقريزى : الخطط ج ٢ / ص ٣٣٤ .
(٤) المصدر السابق .

أخ ولا أخت ولا عم ولا جد ولا ابن أخ ولا ابن عم ، ولا يرث مع الولد الذكر أو الأنثى إلا الزوج أو الزوجة والأبوان والجدة ، ولا يرث مع الأم إلا من يرث مع الولد (١) .

ويروى المقريزى أن أبا الطاهر محمد بن أحمد قاضى مصر خاطب القائد جوهراً فى بنت وأخ وأنه كان قد حكم قديماً للبنت بالنصف وللأخ بالباقى فقال : لا أفعل ، فلما ألحّ عليه قال يا قاضى هذا عداوة لفاطمة عليها السلام فأمسك أبو الطاهر ولم يراجعه بعد فى ذلك » (٢) .

وفى الصيام يصومون شهر رمضان ويفطرون على حساب لهم وقد صام القاضى وغيره من المصريين مع جوهر الصقلى كما يصوم وأفطروا كما يفطر (٣) .

ولقد عمل الفاطميون على نشر مذاهبهم بالترغيب حيناً وبالقوة حيناً آخر ، إذ يذكر المقريزى أنه فى سنة ٣٨١هـ ضرب رجل بمصر وطيف به المدينة من أجل أنهم عثروا عنده على كتاب الموطأ لمالك بن أنس (٤) .

ورغم ما كان يلاقيه أهل السنة من العسف والظلم أحياناً على يد الفاطميين لم تنقطع دراسة المذاهب الثلاثة فى مصر فلما قتل الخليفة الآمر بأحكام الله وتولى الوزارة أبو على أحمد بن الأفضل سنة ٥٢٤هـ أعلن مذهب الإمامية والدعوة للإمام المنتظر وضرب دراهم كتب عليها الله الصمد الإمام محمد ، ورتب فى سنة ٥٢٥هـ أربعة قضاة اثنان أحدهما إمامى والآخر إسماعيلى ، واثنان أحدهما مالكى والآخر شافعى فحكم كل منهما بمذهبه ، وورث بمقتضاه ، وأسقط ذكر إسماعيل بن جعفر الصادق وأبطل من الآذان « حى على خير العمل » وقولهم محمد وعلى خير البشر ، فلما قتل سنة ٥٢٦هـ عاد الأمر إلى ما كان عليه من مذهب الاسماعيلية (٥) .

ولما قدم صلاح الدين الأيوبى إلى مصر ، وتولى الوزارة للعاضد سنة ٥٦٤هـ شرع فى تغيير الدولة بأن أسقط الدعوة للفاطميين ودعا للعباسيين ، وأنشأ بمصر مدرسة للفقهاء الشافعية ، ومدرسة للفقهاء المالكية ، وصرف قضاة مصر الشيعة كلهم ، وفوض القضاء لصدر الدين عبد الملك بن درباس

---

(١) المصدر السابق ص ٣٤٠ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) المصدر السابق .

(٤) المقريزى الخطط ج ٢ / ص ٣٤٣

المارانى الشافعى فلم يستتب عنه فى إقليم مصر إلا من كان شافعى المذهب ، فتظاهر الناس من حينئذ بمذهب مالك والشافعى واختفى مذهب الشيعة والاسماعيلية والإمامية حتى فقد من أرض مصر كلها (١) .

وكان نور الدين محمود حنفياً فنشر مذهب أبى حنيفة ببلاد الشام ، ومنه كثرت الحنفية بمصر ، وقدم إليها أيضاً عدة من بلاد الشرق ، وبنى لهم السلطان صلاح الدين الأيوبى المدرسة السيوفية بالقاهرة ، واستمر مذهبهم ينتشر ويقوى وفقهاؤهم يكثرون بمصر والشام (٢) .

وقد اشتهر مذهب أحمد بن حنبل فى أواخر الدولة الأيوبية (٣) .

النهضة العلمية فى مصر الإسلامية :

لقد قامت فى مصر حركة دينية واسعة النطاق مركزها جامع عمرو بن العاص بالفسطاط ، وكانت نواة هذه الحركة الصحابة الذين جاءوا لفتح مصر ، واستوطنوها ، وكان يدرّس فى مصر القرآن والحديث والفقه والقراءات (٤) .

ثم جاءت مرحلة الاستقلال والإعطاء وتشمل العصرين الفاطمى والأيوبى ، وفى هذه المرحلة نجد أن مصر بعد تلقيها للعلوم وتمكنها منها بدأت تعطى غيرها من البلاد الأخرى (٥) .

والحقيقة أن نشاط الحركة العلمية فى مصر بدأ واضحاً منذ اتخذ الفاطميون القاهرة حاضرة لخلافتهم ، فقد فتح الخليفة الفاطمى المعز لدين الله أبواب قصره للعلماء والطلاب وأباح لهم جميعاً الإطلاع على الكتب المختلفة بمكتبة القصر ، وحذا الخلفاء من بعده حذوه فصاروا يعقدون المجالس العلميـة والأدبيـة بقصورهم ، ويدعون الفقهاء والعلماء والأدباء فيتناظرون بحضرتهم ولم تكن هذه

---

(١) المصدر السابق .

(٢) المصدر السابق .

(٣) المصدر السابق .

(٤) عمر كحالة : مقدمات ومباحث ص ١٤٧

(٥) د حسن أحمد محمود : دراسات فى تاريخ مصر ص ١١ .

المجالس تقل فيمتها عن الدروس التى تلقى بالجامع الأزهر أو بدار الحكمة (١) .

وقد شجع الفاطميون علماء النحو واللغة والقراءات والتاريخ بجانب تشجيعهم لغيرهم من علماء الفلك والطب والفلسفة ، وكان لهذا التشجيع أثره فى ظهور طائفة كبيرة منهم فى مصر مثل أبى على محمد بن الحسن بن الهيثم (ت ٤٣٠هـ) الذى أتى من البصرة إلى مصر بدعوة من الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله حين بلغه أن لهذا العالم نظرية مهمة فى توزيع مياه النيل ، وقد ألف هذا العالم نحو مائتى كتاب فى الرياضة والطبيعة والفلسفة (٢) .

واشتهر من الأطباء والفلاسفة أبو الحسن على بن رضوان ت ٤٦٠هـ وهو مصرى ولد بالجيزة ، ونشأ فقيراً معدماً ، وصار بفضل جده واجتهاده رئيس الأطباء فى البلاط الفاطمى ، وقد ألفَ كتبا فى الطب والفلسفة والمنطق (٣) .

ومن الكتاب والمؤرخين الذين ظهروا فى العصر الفاطمى : أبو الحسن على بن محمد الشابشتى الذى اتصل بخدمة الخليفة الفاطمى العزيز وتولى خزانة كتبه ومن مصنفاته كتاب « الديارات » وقد أورد فيه أخباراً طريفه عن أديرة الشام ومصر والعراق والجزيرة وما قيل فى كل منها من الأشعار (٤).

ومن مؤرخى العصر الفاطمى المسبحى (الأمير المختار عز الملك محمد بن عبيد الله بن أحمد الحرانى) ت ٤٢٠هـ/ ١٠٢٩م ، وكان من رجال الدولة وكبارها ، تولى الوزارة للخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله ، وتقلّد الأعمال والولايات ، وقد ألف المسبحى كتباً كثيرة فى موضوعات مختلفة أكثرها فى التاريخ والأدب وعلم النجوم (٥) .

ومن المعاصرين للمسبحى المؤرخ القضاعى (أبو عبد الله محمد بن سلامه بن جعفر)

---

(١) د . جمال سرور : الدولة الفاطمية ص ١٧٨ .

(٢) ياقوت . معجم الأدباء ج ١٥ / ص ٧٩ - ٨٥ .

(٣) ابن أبى أصيبعه : عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ج ٢ / ص ١٠٥ ابن القفطى : أخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ٤٤٣ - ٤٤٤ .

(٤) ابن خلكان . وفيات الأعيان ج ١ / ص ٤٢٦

(٥) السيوطى · حسن المحاضره ج ١ / ص ٣٢٩ ، ابن تغرى بردى : النجو الزاهره ج ٤ / ص ٢٧١ ، الذهبى : العبر ج ٢ / ص ٢٤١ اليافعى : مرأة الجنان ج ٣ / ص ٣٦ ، ابن العماد · شذرات الذهب ج ٣ / ص ٢١٥ ، د . على إبراهيم حسن استخدام المصادر ص ١٠٧ ، جورجى زيدان . تاريخ آداب اللغة العربية ج ٢ / ص ٣٢٣ .

ت٤٥٤هـ/ ١٠٦٢م (١) ، وكان إماماً فى الفقه والحديث ، تولى القضاء بمصر ، وغيره من مهام الدولة فى عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمى وله عدة مؤلفات فى التاريخ منها كتاب فى خطط مصر واسمه «المختار فى ذكر الخطط والآثار» (٢) .

ولقد أقام الفاطميون بعض المدارس فى مصر (٣) ، وأول مدرسة أحدثت بمصر فى عصرهم المدرسة التى بناها الوزير رضوان بن ولخشى فى الإسكندرية سنة ٥٣٢هـ وقرر فى تدريسها الفقيه أبا طاهر بن عوف (٤) وبنى الوزير ابن السلار الكردى مدرسة أخرى بالإسكندرية للحافظ السلفى سنة ٥٤٦هـ (٥) .

بلغت الحياة الفكرية فى مصر الفاطمية درجة كبيرة من النمو والازدهار وأصبحت القاهرة مطمع أنظار العلماء ومحط رجاء الطلاب .

ودخلت مصر فى دور حضارى جديد عقب قيام الدولة الأيوبية على أنقاض دولة الفاطميين التى استطاعت أن تمد سلطانها السياسى والروحى فى هذه المنطقة من العالم الإسلامى ما يزيد على قرنين من الزمان ، وكانت الناحية الفكرية إحدى الوسائل التى لجأ إليها الفاطميون فى توطيد سلطانهم (٦) .

والعصر الأيوبى يتسم بطابعين كان لهما أعظم الأثر فى تاريخ الثقافة العربية فى مصر الأول : أن مصر فى زمن الأيوبيين تزعمت معركة بناء الجبهة الإسلامية الموحدة للقضاء على النفوذ الشيعى فى مصر وغيرها من البلدان بنفس الوسائل التى استغلتها الشيعة من قبل لنشر مذهبهم وبث عقائدهم(٧) .

---

(١) ابن الأثير . الكامل ج ٨ / ص ٣٥٩ ، اليافعى : مرآة الجنان ج ٣ / ص ٧٥ ، الذهبى : العبر ، ج ٢ / ص ٣٠٢ ، ابن العماد شذرات الذهب ج ٣ / ص ٢٩٣ .

(٢) انظر حديثنا عن المؤرخين فى التمهيد .

(٣) يقول المقريزى : « المدارس مما أحدث فى الإسلام ، ولم تكن تعرف فى زمن الصحابة ولا التابعين وإنما حدث عملها بعد الأربعمائة سنة من سنى الهجرة (الخطط ج ٢ / ص ٣٦٣) .

(٤) ابن ميسر . المنتقى من أخبار مصر ص ١٣٠ ، المقريزى . اتعاظ الحنفا ج ٣ / ص ٦٧

(٥) ابن خلكان وفيات الأعيان ج ١ / ص ١٠٥ .

(٦) د . الباز العريني . مصر فى عصر الأيوبيين ص ٢١٩

(٧) د . حسن محمود . دراسات فى مصر الإسلامية ص ٧٧ .

لذا حين قدم صلاح الدين الأيوبى إلى مصر ، وتولى الوزارة للعاضد سنة ٥٦٤هـ شرع فى تغيير الدولة بأن أسقط الدعوة للفاطميين ودعا للعباسيين ، وأنشأ بمصر مدرسة للفقهاء الشافعية ومدرسة للفقهاء المالكية ، وصرف قضاة مصر الشيعة كلهم وفوّض القضاء لصدر الدين بن درباس الشافعى الذى لم يستنب عنه فى إقليم مصر إلا من كان شافعى المذهب (١) وبنى صلاح الدين المدرسة السيوفية بالقاهرة لأصحاب المذهب الحنفى (٢) .

وقد اقتدى بالسلطان صلاح الدين فى بناء المدارس بالقاهرة والفسطاط وغيرهما من أعمال مصر أولاده وأمراؤه (٣) حتى بلغ عدد المدارس المنشأة فى العصر الأيوبى أربعاً وعشرين مدرسة فى الفسطاط والقاهرة ومدرستين بالفيوم (٤) .

وكما أنشئت المدارس بمصر فقد قام المصريون بإنشاء بعض المدارس بالحجاز فى عهد الأيوبيين مثل مدرسة الزنجبيلى التى وقفها سنة ٥٧٩هـ فخر الدين الزنجبيلى نائب صلاح الدين بعدن(٥) ، وقد تولى التدريس بهذه المدرسة الفقيه أبو الوفاء الحنفى صديق بن يوسف بن قريش ، وقد تلقى تعليمه بمصر وأقام بها فترة طويلة (٦) .

ومن المدارس التى أنشئت زمن الأيوبيين بالحجاز مدرسة الأرسوفى ، وكانت الدراسة بها على مذهب الإمام الشافعى (٧) وكان يدرس بهذه المدرسة علماء من مصر نذكر منهم الشيخ أبى الفتوح الحصرى والشيخ أبى الفتوح ناصر بن عبد الله العطار وكان معيداً بهذه المدرسة (٨) .

ومن الجدير بالذكر أن الأرسوفى كانت له بمصر أيضاً مدرسة تعرف باسم مدرسة ابن

---

(١) المقريزى الخطط ج ٢ / ص ٣٤٣ .

(٢) المصدر السابق

(٣) المصدر السابق ص ٣٦٣

(٤) أحمد فكرى . مساجد القاهرة ومدارسها ج ٢ / ص ١٥٣ .

(٥) الفاسى العقد الثمين ج ١ / ص ١١٧ ، شفاء الغرام ج ١ / ص ٣٣١ .

(٦) الفاسى العقد الثمين ج ٥ / ص ٣٩ .

(٧) الفاسى · شفاء الغرام ج ١ / ص ٣٣٠ – ٣٣٦ ، العقد الثمين ج ٥ / ص ٤٢٢ – ٤٢٣ ، ابن فهد : اتحاف الورى ج ٢ / ص ٥٦٢ ، ناجى معروف · المدارس الشرابيه ص ٣٤٨ .

(٨) الفاسى : العقد الثمين ج ٧ / ص ٣١٧ .

الأرسوفى ، ويذكر المقريزى أن هذه المدرسة كانت بالبزازين التى تجاور خط النخالين بمصر وكان بناؤها فى سنة ٥٧٠هـ (١) .

ولقد اشتهر الأيوبيون بحبهم للعلم وتقريبهم للعلماء ، لذا لا تعجب إذا اشتهر من بينهم أعلام فى صنوف المعرفة المختلفة مثل المؤرخ الشهير أبى الفداء (إسماعيل بن على بن عماد الدين ت ٧٣٢هـ/ ١٢٣١م) صاحب حماه وله كتاب « المختصر فى أخبار البشر » وبهرام شاه بن فرخشاه صاحب بعلبك (ت ٦٢٨ هـ/ ١٢٣١م) وكان شاعراً أديباً .

والملك الناصر بن الملك المعظم عيسى (ت ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م) وكان يهتم بالحصول على الكتب النفيسة ويجيز الأدباء ؛ بل إن الملك المعظم عيسى (ت ٦٢٤هـ/ ١٢٢٧م) شرط لكل من يحفظ المفصل للزمخشرى مائة دينار وخلعه (٢)

وقد ظهر اهتمام الأيوبيين بالمكتبات ، ومما يدل على ذلك مكتبة الملك الكامل التى نقلها إلى القلعة سنة ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م وكانت تضم ثمانية وستين ألف مجلد (٣) .

وخلاصة القول أن الأيوبيين اهتموا بالعلم اهتماماً شديداً وأسسوا الكثير من المدارس التى تدرس العلوم الدينية وغيرها حتى صارت مراكز الحياة العلمية نشطة فى زمنهم (٤) .

---

(١) المقريزى · الخطط ج ٢ / ص ٣٦٤

(٢) د . سعيد عاشور . الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام ص ١٥٣ .

(٣) المرجع السابق .

(٤) المرجع السابق .

المصادر والمراجع

أولاً: المخطوطات:

ابن أبى الهيجاء :

١ - **الأول فى تاريخ ابن أبى الهيجاء**

مخطوط مصور بمعهد المخطوطات العربية بالميكروفيلم تحت رقم ٩٤٥

أحمد بن محمد النيسابورى :

٢ - **كتاب استتار الإمام**

مخطوط مصور بمعهد المخطوطات العربية بالميكروفيلم تحت رقم ٣١٧٥

ابن بسام : (محمد بن أحمد المحتسب التينيسى)

٣ - **أنيس الجليس فى أخبار تنيس**

مخطوط مصور بالميكروفيلم رقم ٣٠١٨٧ بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٠٠ بلدان تيمور

سبط ابن الجوزى : (أبو محمد يوسف سبط أبى الفرج عبد الرحمن بن الجوزى ت ٦٥٤هـ)

٤ - **ج ٨ من مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان**

(٤٩٥هـ - ٦٤٥هـ)

نسخه مصورة تصويراً شمسياً بمكتبة الجامعة الامريكية بالقاهرة تحت رقم 0.152.55

الصباغ المكى : (محمد بن أحمد بن سالم بن محمد)

٥ - **تحصيل المرام فى أخبار البيت الحرام والمشاعر العظام** مخطوط مصور بالميكروفيلم رقم ٤٣٢٣١ بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢١٦٣ تاريخ

الطبرى : (محمد بن على بن فضل بن عبد الله بن المحب الطبرى ت ١١٧٣هـ)

٦ - **اتحاف فضلاء الزمن بتاريخ ولاية بنى الحسن** مخطوط مصور بدار الكتب المصرية بالميكروفيلم رقم ١٤٢٣٣ تاريخ تيمور برقم ٢٢٠٦

محمد بن محمد اليمانى

٧ - **السيرة الإسماعيليه** (سيرة جعفر الحاجب) مخطوط مصور بمعهد المخطوطات العربية بالميكروفيلم رقم ٣١٧٤

القاضى النعمان : (ابو حنيفة بن أبى عبد الله محمد بن منصور بن أحمد بن حيون ت ٣٦٣هـ)

٨ - **المجالس والمسايرات**

مخطوط مصور بالتصوير الشمسى بمكتبة جامعة القاهرة برقم ٢٦٤٠٨

ثانيا: المصادر العربية المطبوعة:

ابن الأبار (أبو عبد الله محمد عبد الله بن أبى بكر القضاعى ٦٥٨هـ)

٩ - الحلة السيراء

ج١ تحقيق د . حسين مؤنس - ط أ ١٩٦٣م

ابن أبى أصيبعه (موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم ت ٦٦٨هـ)

١٠ - عيون الأنباء فى طبقات الأطباء

بيروت - ١٩٦٥م تحقيق نزار رضا

ابن الأثير (على بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيبانى ت ٦٣٠هـ)

١١ - الكامل فى التاريخ

راجعه وصححه د / محمد يوسف الدقاق - الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م دار الكتب العلمية - بيروت

ابن الأخوة (محمد بن محمد بن أحمد القرشى ٧٢٩هـ)

١٢ - **كتاب معالم القربة** فى أحكام الحسبة تحقيق محمد محمود شعبان وصديق المطيعى - الهيئة المصرية العامه للكتاب١٩٧٦م

الإدريسى (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إدريس من أعلام ق ٦ هـ)

١٣ - **كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق** - عالم الكتب ط ١٤٠٩ هـ/١٩٨٩م ونسخه أخرى نشر مكتبة الثقافة الدينية بالظاهر

ابن إياس (محمد بن أحمد ت ٩٣٠هـ/١٥٢٤م)

١٤ - بدائع الزهور فى وقائع الدهور

ج ١ ق ١ تحقيق محمد مصطفى - القاهرة ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م

ابن بطوطة (أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتى ٧٠٣هـ)

١٥ - رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار

تحقيق د . على المنتصر الكتانى - الطبعة الرابعه ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م مؤسسة الرسالة

البغدادى (عبد اللطيف البغدادى بن يوسف ٥٥٧ - ٦٢٩هـ)

١٦ - الإفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر

الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ/١٩٨٣ دار قتيبة - دمشق

البلاذرى (أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر ت ٢٧٩هـ/٨٩٢م)

١٧ - فتوح البلدان

تعليق رضوان محمد رضوان - دار الكتب العلمية بيروت ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م

البلوى (أبو محمد عبد الله بن محمد المدينى)

١٨ - سيرة أحمد بن طولون

تحقيق محمد كرد على - الناشر مكتبة الثقافة الدينية بالقاهرة

ابن تغرى بردى (جمال الدين أبو المحاسن يوسف ٨٧٤هـ)

١٩ - النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة - مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٣٥٢هـ/١٩٣٣م

ابن جبير : (أبو الحسين محمد بن أحمد ٥٣٩ - ٦١٤هـ)

٢٠ - رحلة ابن جبير

دار بيروت للطباعة والنشر ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م

الجزيرى (عبد القادر بن محمد بن عبد القادر بن إبراهيم الأنصارى ت ٩١١هـ)

٢١ - الدرر الفرائد المنظمة فى أخبار الحاج وطريق مكة المعظمه

الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م أعده للنشر حمد الجاسر - دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر بالرياض

ابن الجوزى (أبو الفرج عبد الرحمن بن على ت ٥٩٧هـ)

٢٢ - المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم

الطبعة الأولى - مطبعة دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد سنة ١٣٥٨هـ

ابن حجر العسقلانى (شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن على ت ٨٥٢هـ)

٢٣ - كتاب الإصابة فى تمييز الصحابة

ج ٣ المطبعة الشرفيه ١٣٢٥هـ - ١٩٠٧م

٢٤ - تهذيب التهذيب

حيدر أباد - الدكن ١٣٢٥هـ - ١٩٠٧م

ابن حزم (أبو محمد على بن أحمد بن سعيد ٣٨٤ - ٤٥٦هـ)

٢٥ - جمهرة أنساب العرب

تحقيق . عبد السلام هارون - ط ٣ - دار المعارف بمصر ١٣٩١هـ - ١٩٧١م

ابن حماد (أبو عبد الله محمد بن على ت ٦٢٨ هـ - ١٢٣١م)

٢٦ - أخبار ملوك بنى عبيد وسيرتهم

تحقيق ودراسة د/ التهامي نقرة - د/ عبد الحليم عويس دار الصحوة للنشر والتوزيع

الحميرى (محمد عبد المنعم الصنهاجي ت ٩٠٠ هـ)

٢٧ - الروض المعطار فى خبر الأقطار - معجم جغرافى تحقيق د / إحسان عباس - ط ٢ مكتبة لبنان ١٩٨٤م

ابن خلدون (ولى الدين أبو زيد عبد الرحمن بن محمد ٧٣٢هـ/٨٠٨م)

٢٨ - تاريخ ابن خلدون المسمى العبر وديوان المبتدأ والخبر فى تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوى الشأن الأكبر

تحقيق خليل شحادة - مراجعة د سهيل زكار دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - الطبعة الأولى ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م

ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد ٦٠٨هـ/٦٨١هـ)

٢٩ - وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان

نسخة تحقيق د . إحسان عباس - دار الثقافة - بيروت ١٩٧٠م ، دار صادر بيروت ١٩٧٧م

ونسخة أخرى تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد - مكتبة النهضة المصرية ط أ ١٣٦٧هـ/١٩٤٨م

الخوارزمى (محمد بن أحمد بن يوسف ت ٣٨٧هـ)

٣٠ - مفاتيح العلوم

تحقيق إبراهيم الإبيارى

الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م بيروت

الداعى المطلق (إدريس عماد الدين القرشى ت ٨٧٢هـ)

٣١ - عيون الأخبار وفنون الآثار فى فضائل الأئمة الأطهار - تحقيق د . مصطفى غالب السبع الرابع والخامس والسادس

دار الأندلس للطباعة والنشر - بيروت - بدون تاريخ

ابن دقماق (صارم الدين إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائى ت ٨٠٩ هـ)

٣٢ - الجوهر الثمين فى سير الملوك والسلاطين

تحقيق محمد كمال عز الدين على - بيروت - عالم الكتب ط أ ١٤٠٥هـ سنة ١٩٨٥م

٣٣ - الانتصار لواسطة عقد الأمصار

منشورات دار الآفاق الجديدة - بيروت (بدون تاريخ)

الذهبى (الحافظ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد ت ٧٤٨هـ)

٣٤ -العبر فى خبر من غبر

تحقيق أبو هاجر محمد السعيد - بيروت ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م

ابن رسته (أبو على أحمد بن عمر)

٣٥ - كتاب الأعلاق النفيسه

ليدن ١٩٨١م

ابن زولاق (الحسن بن إبراهيم ت ٣٨٧هـ)

٣٦ - كتاب أخبار سيبويه المصرى

نشر / محمد إبراهيم أسعد - حسين الديب - ط ٢ سنة ١٤١٠هـ

ابن الساعى الخازن (أبو طالب على بن أنجب تاج الدين ٦٧٤هـ)

٣٧ - ج ٩ من الجامع المختصر فى عنوان التواريخ وعيون السير تحقيق مصطفى جواد - المطبعة

السريانيه الكاثوليكيه ببغداد ١٣٥٣هـ - ١٩٣٤م

السخاوى (شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن ت ٩٠٢هـ)

٣٨ - الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع

نشره حسام القدسى - القاهرة ١٣٥٣هـ

ونسخه أخرى من منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت - بدون تاريخ

ابن سعيد (على بن موسى بن محمد ت ٦٧٣هـ)

٣٩ - المغرب فى حلى المغرب والمشرق فى حلى المشرق

ليدن ١٨٩٨ - ١٨٩٩م

٤٠ - النجوم الزاهرة فى حلى حضرة القاهرة (القسم الخاص بالقاهرة من كتاب المغرب فى حلى المغرب)

تحقيق د. حسين نصار - مطبعة دار الكتب ١٩٧٠م

السيوطى (جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن أبى بكر ت ٩١١هـ/١٥٠٦م)

٤١ - تاريخ الخلفاء

تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد

دار الفكر - بيروت - بدون تاريخ

٤٢ - حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة

تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - دار إحياء الكتب العربيه / عيسى الحلبى ط أ سنة ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م

٤٣ - نظم العقيان فى أعيان الأعيان

تحقيق فيليب حتى - نيويورك ١٩٢٧م

أبو شامة (شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن بن اسماعيل ت ٦٦٥هـ)

٤٤ - الروضتين فى أخبار الدولتين

القاهرة ١٢٨٧هـ - ١٨٧٠م

ابن شاهنشاه (محمد بن تقى الدين عمر ٥٦٧ - ٦١٧هـ)

٤٥ - مضمار الحقائق وسر الخلائق

تحقيق د. حسن حبشى - عالم الكتب سنة ١٩٦٨م

ابن شداد (القاضى بهاء الدين ت ٦٣٢هـ - ١٢٣٤م)

٤٦ - النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفيه تحقيق د. جمال الدين الشيال - الطبعة الأولى ١٩٦٤م الدار المصرية للترجمة والتأليف والنشر

الشهرستانى (أبو الفتح محمد بن الكريم ت ٥٤٨هـ/١١٥٣م)

٤٧ - الملل والنحل

تحقيق محمد سيد كيلانى – مطبعة مصطفى الحلبى ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م

الشوكانى (محمد بن على ت١٢٥٠هـ)

٤٨ – **البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع** – بيروت – دار المعرفة للطبع والنشر – بدون تاريخ

الشيرزى (عبد الرحمن بن نصر عبد الله ت حوالى ٥٨٩هـ/١١٩٣م)

٤٩ – **نهاية الرتبة فى طلب الحسبة**

تحقيق السيد الباز العرينى – مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٦٥هـ/١٩٤٦م

ابن الصيرفى (أبو القاسم على بن منجب بن سليمان)

٥٠ – **الإشارة الى من نال الوزارة**

تحقيق عبد الله مخلص (عن النسخة الوحيده المحظوظة فى خزانة الكتب الخالدية ببيت المقدس) طبع المعهد العلمى الفرنسى بالقاهرة ١٩٢٣م

الطبرى (أبو جعفر محمد بن جرير ٢٢٥هـ – ٣١٠هـ)

٥١ – **تاريخ الرسل والملوك**

تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم – الطبعة الرابعة – دار المعارف بمصر – بدون تاريخ

ابن الطقطقى (محمد بن على)

٥٢ – **الفخرى فى الآداب السلطانية**

تحقيق محمد عوض إبراهيم – على الجارم

الطبعة الثانية – دار المعارف بمصر – بدون تاريخ

ابن ظافر الأزدى (جمال الدين على)

٥٣ – **أخبار الدول المنقطعه**

دراسة تحليليه للقسم الخاص بالفاطميين مع مقدمة وتعقيب أندريه فرية – مطبوعات المعهد العلمى الفرنسى بالقاهرة ١٩٧٢م

ابن ظهيرة (جمال الدين محمد جاد الله بن محمد نور الدين)

٥٤ – **الجامع اللطيف فى فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف**

الطبعة الثانية ١٣٧٥هـ/١٩٣٨م مطبعة عيسى البابى الحلبى بمصر

ابن عبد البر (أبو عمر بن يوسف بن عبد الله ت ٤٦٣هـ)

٥٥ – **الاستيعاب فى معرفة الأصحاب**

ج ٢ تحقيق على البجاوى – الطبعة الأولى مكتبة نهضة مصر – بدون تاريخ

ابن عبد الحكم (أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله ت ٢٥٧هـ/ ٨٧١م)

٥٦ – **فتوح مصر والمغرب**

تحقيق عبد المنعم عامر – لجنة البيان العربى – بدون تاريخ

ابن العربى (القاضى أبو بكر ٤٦٨ – ٥٤٣هـ)

٥٧ – **العواصم من القواصم فى تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبى – صلى الله عليه وسلم**

تحقيق محب الدين الخطيب ١٣٨٩هـ

عبد القاهر (أبو منصور عبد القاهر بن طاهر البغدادى ت ٤٢٩هـ)

٥٨ – **الفَرْق بين الفِرق**

تحقيق طه عبد الرءوف – الناشر مؤسسة الحلبى بالقاهرة بدون تاريخ

العصامى (عبد الملك بن حسين بن عبد الملك ١٠٤٩هـ – ١١١١هـ)

٥٩ – **سمط النجوم العوالى فى أنباء الأوائل والتوالى** – المطبعة السلفية – بدون تاريخ

عريب بن سعد (عريب بن سعد القرطبى)

٦٠ – **صلة تاريخ الطبرى**

تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم – ذخائر العرب (١١)

دار المعارف بمصر – بدون تاريخ

الفتح بن على البندارى

٦١ – **سنا البرق الشامى** اختصار كتاب العماد الأصفهانى البرق الشامى ٥٥٢ – ٥٨٣هـ

تحقيق د/ فتحيه النبراوى – مكتبة الخانجى بمصر ١٩٧٩م

٦٢ – **تاريخ دولة آل سلجوق**

الطبعة الثانية – دار الآفاق الجديدة – بيروت ١٩٧٨م

ابن العماد الحنبلى (أبو الفلاح عبد الحى ت ١٠٨٩هـ)

٦٣ – **شذرات الذهب فى أخبار من ذهب** – الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م دار الفكر للطباعة والنشر ونسخة أخرى من منشورات دار الآفاق الجديده بيروت – بدون تاريخ

ابن عنبه (جمال الدين أحمد بن على الحسنى ت ٨٢٨هـ)

٦٤ – **عمدة الطالب فى أنساب آل أبى طالب** – الطبعه الثانيه ١٣٨٠هـ/١٩٦١م النجف

الفاسى (تقى الدين محمد بن أحمد ٧٧٥ – ٨٣٢هـ)

٦٥ – **شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام** (جزءان) دار الكتب العلميه – بيروت – بدون تاريخ

٦٦ – **العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين** (ثمانية أجزاء) ج ١ تحقيق محمدحامد الفقى ط ٢ (١٤٠٦هـ/١٩٨٦م) مؤسسة الرسالة

ج ٢ – ج ٧ تحقيق فؤاد سيد ط ٢ (١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م) مؤسسة الرسالة

ج ٨ – تحقيق محمود الطناحى ط ٣ / ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م مؤسسة الرسالة .

أبو الفدا (عماد الدين اسماعيل ت ٧٣٢ هـ)
٦٧ - المختصر فى أخبار البشر
ج ١ ط أ المطبعة الحسينيه المصريه - بدون تاريخ
ابن فضل الله العمرى
٦٨ - مسالك الابصار فى ممالك الامصار (شهاب الدين أحمد بن يحيى ت ٧٤٩هـ - ٣٤٩م)
نسخه تحقيق أيمن فؤاد سيد - المعهد العلمى الفرنسى بالقاهرة سنة ١٩٨٥م ونسخة تحقيق دوروتيا كرافوتسكي - بيروت ط أ ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م
ابن فهد (محمد بن محمد بن فهد ت ٨٨٥هـ)
٦٩ - إتحاف الورى باخبار أم القرى
(ثلاثة أجزاء) تحقيق فهيم محمد شلتوت - جامعة أم القرى بمكة المكرمة ١٩٨٣م
ابن فهد (عز الدين عبد العزيز بن عمر بن محمد ت ٩٢٢هـ)
٧٠ - غاية المرام باخبار سلطنة البلد الحرام
ج ١ تحقيق فهيم محمد شلتوت - جامعة أم القرى بمكة المكرمة ط أ ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م
ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم ت ٢٧٦ هـ)
٧١ - الإمامة والسياسة
الطبعة الأخيرة ١٣٨٨هـ/١٩٦٩م شركة مصطفى البابى الحلبى
القرمانى (أبو العباس أحمد بن يوسف)
٧٢ - أخبار الدول وآثار الأول فى التاريخ - عالم الكتب بيروت - مكتبة المتنبى بالقاهرة - بدون تاريخ
ابن القفطى (جمال الدين أبو الحسن على بن يوسف (ت ٦٤٦هـ/١٢٤٨م)
٧٣ - أخبار العلماء باخبار الحكماء
ط بغداد - مكتبة المثنى - بدون تاريخ
ابن القلانسى (أبو يعلى حمزة بن أسد ٤٧٠ - ٥٥٥ هـ)
٧٤ - ذيل تاريخ دمشق (٣٦٠ - ٥٥٥ هـ)
ط أ ١٩٨٣م - تحقيق د . سهيل زكار - دمشق
القلقشندى (أبو العباس أحمد بن على ت ٨٢١هـ/١٤١٨م)
٧٥ - صبح الأعشى فى صناعة الإنشا
المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٣٣٢هـ/١٩١٤م
٧٦ - مآثر الإنافة فى معالم الخلافة
تحقيق عبد الستار أحمد فراج - عالم الكتب - بيروت ط أ سنة ١٩٦٤م

ابن كثير (عماد الدين أبو الفد إسماعيل بن عمر ت ٧٧٤هـ)
٧٧ - البداية والنهاية فى التاريخ
ط ٢ ١٩٧٧م مكتبة المعارف بيروت ونسخة أخرى لمطبعة السعادة بمصر
الكندى (أبو عمر محمد بن يوسف ت ٣٥٠هـ)
٧٨ - تاريخ ولاة مصر ويليه كتاب لتسمية قضاتها ط أ سنة ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧ مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت
مالك (مالك بن أنس ت ١٧٩هـ)
٧٩ - الموطا
برواية محمد بن الحسن الشيبانى ط ٢ تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف - المكتبة العلميه - بدون تاريخ
الماوردى : أبو الحسن على بن محمد بن حبيب البصرى ت . ٤٥٠هـ)
٨٠ - الأحكام السلطانية والولايات الدينيه
ط أ دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ١٤٠٤هـ - ١٩٨٣م
المسبحى (الأمير المختار عز الملك محمد بن عبيد الله ت ٤٢٠هـ)
٨١ - الجزء الأربعون من أخبار مصر تحقيق أيمن فؤاد سيد وتيارى بيانكى المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقيه بالقاهرة القسم التاريخى - بدون تاريخ .
المسعودى (أبو الحسن على بن الحسين ت ٣٤٦هـ)
٨٢ - مروج الذهب ومعادن الجوهر
تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد
المكتبة العصريه - بيروت - ١٤٠٧ هـ/١٩٨٧م
مسلم (الإمام)
٨٣ - صحيح مسلم
ج ١ ، ٢ مطبعة عيسى البابى الحلبى بمصر - بدون تاريخ
المقدسى (شمس الدين أبو عبد الله بن محمد ت ٣٨٠هـ)
٨٤ - أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم
ط ٢ ليدن ١٩٠٩م وطبعة أخرى ١٩٦٧م
المقريزى (تقى الدين أبو العباس أحمد بن على ت ٨٤٥هـ)
٨٥ - كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية - دار صادر بيروت - بدون تاريخ
٨٦ - السلوك لمعرفة دول الملوك
ج ١ ق ١ تحقيق د / محمد مصطفى زيادة - دار الكتب المصرية ١٩٣٤م
٨٧ - اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ج ١ تحقيق د . جمال الدين الشيال القاهرة ١٩٦٧م ج

٢ تحقيق د . محمد حلمى القاهرة ١٩٧١م ج ٣ تحقيق د . محمد حلمى محمد القاهرة ١٩٧٣م

٨٨ - كتاب المقفى الكبير (تراجم مغربيه ومشرقيه من الفترة العبيديه)

اختيار وتحقيق محمد اليعلاوى - دار الغرب الإسلامى بيروت ط أ ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م

٨٩ - اغاثة الأمه بكشف الغمة

نشر محمد مصطفى زيادة - جمال الدين الشيال

القاهرة ١٣٥٩هـ/١٩٤٠م لجنة التاليف والترجمه والنشر

٩٠ - شذور العقود فى ذكر النقود

تحقيق د . محمد عبد الستار عثمان ط أ ١٤١٠هـ سنة ١٩٩٠م مطبعة الأمانة بالقاهرة

ابن ميسر : (تاج الدين محمد بن على ت ٦٧٧ هـ)

٩١ - المنتقى من أخبار مصر

تحقيق أيمن فؤاد سيد - المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة - بدون تاريخ

ابن النديم (أبو الفرج محمد بن اسحاق ت ٣٨٥هـ)

٩٢ - الفهرست

نشر دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت ١٣٩٨ - ١٩٧٨م

القاضى النعمان (أبو حنيفة النعمان بن أبى عبد الله محمد بن حيون ت ٣٦٣هـ)

٩٣ - رسالة افتتاح الدعوة

تحقيق وداد القاضى - دار الثقافة - بيروت ط أ سنة ١٩٧٠م

ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم ت ٦٩٧هـ)

٩٤ - مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب

ج ٢ تحقيق د . جمال الدين الشيال - المطبعة الأميريه بالقاهرة ١٩٥٧ م

اليافعى (أبو محمد عبد الله بن أسعد ت ٧٦٨هـ)

٩٥ - مرآة الجنان وعبرة اليقظان فى معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان

ج ٢ ط أ ١٣٣٨هـ مطبعة دائرة المعارف بحيدر أباد ونسخه أخرى ط ٢ ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م بيروت

ياقوت (شهاب الدين أبو عبد الله بن عبد الله الحموى)

٩٦ - معجم البلدان

دار صادر - بيروت - بدون تاريخ

٩٧ - معجم الأدباء تصحيح د . س مرجليوث ط القاهرة سنة ١٩٢٤م

اليعقوبى (أحمد بن يعقوب ت ٢٨٤ هـ)

٩٨ - تاريخ اليعقوبى

بيروت ١٣٧٩هـ - ١٩٦٠م
أبو يوسف (القاضى أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم ١٨٢هـ)
٩٩ - كتاب الخراج
ط ٥ المطبعة السلفيه ١٣٩٦هـ

ثالثاً: المراجع العربية الحديثه :

آمال محمد الروبى (دكتور)
١٠٠ - مصر الرومانيه القاهرة ١٩٧٩/١٩٨٠م
إبراهيم أحمد العدوى (دكتور)
١٠١ - تاريخ العالم الإسلامى مطبعة جامعة القاهرة ١٩٨٢م
١٠٢ - مصر الإسلامية
مكتبة الانجلو المصرية ١٩٧٥م
١٠٣ ابن عبد الحكم (رائد المؤرخين العرب)
مكتبة الانجلو المصرية ١٩٦٣م
١٠٤ - نهر التاريخ الإسلامى
دار الفكر العربى - بدون تاريخ
١٠٥ - المجتمع المغربى - مقوماته الإسلامية والعربيه
مكتبة الانجلو المصريه - بدون تاريخ
أحمد ابراهيم الشريف (دكتور)
١٠٦ - دور الحجاز فى الحياة السياسة العامة فى القرنين الأول والثانى للهجرة
ط ٢ - ١٩٧٧م دار الفكر العربى
أحمد شلبى (دكتور)
١٠٧ - موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية
ج ٣ ط ١٩٧٠/٤م مكتبة النهضة المصرية ج٥ ط ٢ / ١٩٧٢م مكتبة النهضة المصرية ١٠٩
أحمد فكرى (دكتور)
١٠٨ - مساجد القاهرة ومدارسها - دار المعارف بمصر ١٩٦٩م
أحمد مجاهد (دكتور)
١٠٩ - مصر فى ظلال العباسيين - ط ٢ ١٤٠٤هـ/١٩٨٤ - دار الطباعه المحمدية
أنطوان خليل (دكتور) ١١٠ - الدولة المملوكية بيروت - الطبعة الأولى - ١٩٨٠م
جمال الدين الشيال (دكتور) ١١١ - مجموعة الوثائق الفاطمية

المجلد الأول – مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٥٨م

جورجي زيدان

١١٢ – **تاريخ آداب اللغة العربية** (أربعة أجزاء) دار الهلال - بدون تاريخ

حسن إبراهيم حسن (دكتور)

١١٣ – **تاريخ الدولة الفاطميه فى المغرب ومصر وسورية وبلاد العرب**

الطبعة الثانيه من كتاب « الفاطميون فى مصر » ١٩٥٨ – مكتبة النهضة المصرية

١١٤ – **تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى** (أربعة أجزاء)

مكتبة النهضة المصرية – القاهرة ١٩٨٢م

١١٥ – **المعز لدين الله**

بالأشتراك مع د . طه أحمد شرف ط ٢ سنة ١٩٦٤م مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة

حسن أحمد محمود (دكتور)

١١٦ – **دراسات فى تاريخ مصر فى العصور الوسطى والحديثه** بالاشتراك مع د/ محمد انيس ، د/ السيد رجب حراز دار النهضة العربيه ١٩٧٣م

١١٧ – **مصر فى عصر الطولونيين والاخشيديين** بالاشتراك مع د/ سيدة إسماعيل كاشف – سلسلة الألف كتاب رقم ٢٨٥ .

حسن على حسن (دكتور)

١١٨ – **دراسات فى تاريخ مصر الإسلامية** بالاشتراك مع د/ عبد الله جمال الدين دار الهانى للطباعة ١٤١١هـ/١٩٩٠م

حسنين ربيع (دكتور)

١١٩ – **دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطيه** – القاهرة ١٩٨٢م

حسين مؤنس (دكتور)

١٢٠ – **مصر ورسالتها الحضارية** – الطبعه الخامسه ١٩٧٦م مطبوعات الشعب

خير الدين الزركلى

١٢١ – **الأعلام**

الطبعة الرابعة – دار العلم للملايين – بيروت ١٩٧٩م

راشد البراوى (دكتور)

١٢٢ – **حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين** – الطبعة الأولى – مكتبة النهضة المصرية ١٣٦٨هـ/ ١٩٤٨م

سعيد عاشور (دكتور)

١٢٣ - الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب - أعلام العرب (٤١) المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر
١٢٤ - الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام دار النهضة العربية ١٩٧٠م
السيد الباز العرينى (دكتور)
١٢٥ - مصرفى عصر الأيوبيين-سلسلة الألف كتاب رقم ٢٦٩ الناشر مطبعة الكيلانى الصغير ١٣٧٩هـ سنة ١٩٦٠م
سيد على الحريرى
١٢٦ - الحروب الصليبية - ط أ سنة ١٩٨٨م تحقيق د عصام شبارو دار التضامن - بيروت
سيدة إسماعيل كاشف (دكتور)
١٢٧ - مصرفى فجر الإسلام من الفتح العربى إلى قيام الدولة الطولونية
دار الفكر العربى ١٩٤٧م
١٢٨ - مصرفى عصر الاخشيديين
طبعة أولى ١٩٥٠م وطبعة ثانية ١٩٧٠م دار النهضة العربيه
شاكر مصطفى (دكتور)
١٣١ - التاريخ العربى والمؤرخون - ج١ ط أ سنة ١٩٧٨ ، ط ٢ سنة ١٩٨٢ ج ٢ ط أ سنة ١٩٧٩ و ط ٣ سنة ١٩٨٧م بيروت
صابر دياب (دكتور)
١٣٢ - سياسة الدول الإسلامية فى حوض البحر المتوسط - عالم الكتب ١٩٧٣م
أبو صالح الألفى
١٢٣ - الفن الإسلامى أصوله - فلسفته - مدارسه - الطلعة الثالثة - دار المعارف بمصر
عبد المنعم ماجد (دكتور)
١٣٤ - السجلات المستنصرية - دار الفكر العربى - القاهرة - بدون تاريخ
١٣٥ - الحاكم بأمر الله الخليفة المفترى عليه - القاهرة ١٩٥٩م
١٣٦ - الناصر صلاح الدين يوسف - مكتبة الانجلو المصريه ١٩٥٨م
عزيز سوريال عطيه (دكتور)
١٣٧ - الحروب الصليبية وتاثيرها على العلاقات بين الشرق والغرب
الطبعة الثانية - دار الثقافة - بدون تاريخ
عطية القوصى (دكتور)
١٣٨ - تجارة مصر فى البحر الأحمر منذ فجر الإسلام حتى سقوط الخلافة العباسية-القاهرة ١٩٧٦م
على إبراهيم حسن (دكتور)
١٣٩ - استخدام المصادر وطرق البحث - الطبعة الثالثة ١٩٨٠م مكتبة النهضة المصرية

علي بن الحسين السليمان (دكتور)
١٤٠ - النشاط التجارى فى شبه الجزيرة العربية أواخر العصور الوسطى- ط أ مكتبة الانجلو المصريه-بدون تاريخ
عمر رضا كحاله
١٤١ - مقدمات ومباحث فى حضارة العرب والإسلام - دمشق ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م
١٤٢ - معجم المؤلفين - مطبعة الترقى بدمشق ١٣٧٧هـ/١٩٥٨م
قاسم عبده قاسم (دكتور)
١٤٣ - ما هية الحروب الصليبية - عالم المعرفة ١٤٩ - ١٤١٠هـ/١٩٩٠م
كمال الدين سامح (دكتور)
١٤٤ - العمارة الإسلامية فى مصر - مطبعة جامعة القاهرة ١٩٧٠م
محمد جمال الدين سرور (دكتور)
١٤٥ - الحياة السياسة فى الدولة العربية الإسلامية خلال القرنين الأول والثانى بعد الهجرة - دار الفكر العربى - القاهرة ١٩٦٠م
١٤٦ - قيام الدوله العربيه الإسلامية فى حياة محمد - صلى الله عليه وسلم- دار الفكر العربى-القاهرة ١٩٥٢م
١٤٧ - سياسة الفاطميين الخارجية ط ٤ دار الفكر العربى ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م
١٤٨ - النفوذ الفاطمى فى جزيرة العرب ط ٤ دار الفكر العربى ١٩٦٤م
١٤٩ - الدولة الفاطمية فى مصر
دار الفكر العربى ١٩٧٠م ونسخة أخرى ١٩٧٩م
محمد حلمى محمد أحمد (دكتور)
١٥٠ - مصر والشام والصليبيون ط أ (١٤٠١هـ/١٩٨١م) وط ٢ (١٤٠٢هـ/١٩٨٢م)
محمد الخضرى (الشيخ)
١٥١ - محاضرات فى تاريخ الأمم الإسلامية (الدولة الأموية) دار القلم - بيروت ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م
١٥٢ - محاضرات فى تاريخ الأمم الإسلامية (الدولة العباسية) المكتبة التجارية الكبرى بمصر - بدوت تاريخ
محمد عبد الله عنان
١٥٣ - مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية القاهرة ١٩٣١م
محمد ضياء الدين الريس (دكتور)
١٥٤ - النظريات السياسه الإسلامية الطبعة السادسة ١٩٧٦م دار التراث
محمد فريد أبو حديد
١٥٥ - صلاح الدين الأيوبى وعصره - القاهرة ١٩٢٧م
ناجى معروف

١٥٦ - المدارس الشرابيه ببغداد وواسط ومكه - بغداد ١٩٦٥م

نعيم زكى فهمى (دكتور)

١٥٧ - طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى الهيئة المصرية العامه للكتاب ١٩٧٣م

وليم نظير

١٥٨ - الثروة النباتية عند قدماء المصريين - الهيئة المصرية العامة للتاليف والنشر ١٩٧٠م

رابعاً: الرسائل العلمية:

أحمد كامل محمد صالح

١٥٩ - الحاكم بأمر الله فى عصره - رساله ماجستير - كليه دار العلوم جامعة القاهرة ١٤٠١هـ - ١٩٨١م

١٦٠ - مصر بين المذهب السنى والمذهب الاسماعيلى فى العصر الفاطمى

رسالة دكتوراه - كلية دار العلوم - جامعة القاهرة ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م

عبد المرضى محمد عطوه

١٦١ - العلاقات بين المغرب والأندلس من الفتح الإسلامى إلى قيام الدوله الفاطميه بالمغرب - رسالة دكتوراه - كلية دار العلوم - جامعة القاهرة ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م

على بن الحسين السليمان

١٦٢ - النشاط التجارى فى شبه الجزيرة العربية أواخر العصور الوسطى ١٢٥٠ - ١٥١٧م

رسالة دكتوراه - آداب القاهرة ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م

خامساً: مصادر افرنجيه مترجمة إلى اللغة العربية:

بتلر (ألفرد)

١٦٣ - فتح العرب لمصر

ترجمة محمد فريد أبو حديد - القاهرة ١٩٣٣م مطبعة دار الكتب المصرية .

بروكلمان (كارل)

١٦٤ - تاريخ الشعوب الإسلامية

ترجمة بنيه فارس - منير البعلبكى - دار العلم للملايين بيروت - الطبعة التاسعة ١٩٨١م

١٦٥ - تاريخ الأدب العربى

ج ٣ ترجمة د/ عبد الحليم النجار - ط ٤ دار المعارف بدون تاريخ

برنار (صامويل)

١٦٦ - الحياة الاقتصادية فى مصر فى القرن الثامن عشر ج ٣ الموازين والنقود - مكتبة مدبولى ١٩٨٠م الكتاب السادس من وصف مصر - ترجمة زهير الشايب

جب (هاملتون)
١٦٧ - التاريخ الإسلامى فى العصور الوسطى - المركز العربى للكتاب - دمشق - بدون تاريخ
جروينباوم (جوستاف)
١٦٨ - حضارة الإسلام
ترجمة عبد العزيز جاويد - سلسلة الألف كتاب رقم (٥)
جيرار (ب س)
١٦٩ - الحياة الاقتصادية فى مصر فى القرن الثامن عشر ج ١ (الزراعة - الصناعات والحرف - التجارة) مكتبة مدبولى ١٩٧٨م ترجمة زهير الشايب - الكتاب الرابع من وصف مصر
حتى (فيليب)
١٧٠ - تاريخ سوريه ولبنان وفلسطين ترجمة د. كمال اليازجى - دار الثقافة - بيروت ط سنة ١٩٧٢م
سيديو (ل . أ)
١٧١ - تاريخ العرب العام - ترجمة عادل زعيتر - ط ٢ سنة ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م مكتبة عيسى البابى الحلبى
شاندور (البير)
١٧٢ - صلاح الدين الأيوبى
البطل الأنقى فيى الإسلام
ترجمة سعيد أبو الحسن - دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر - دمشق - بدون تاريخ
علوى (ناصر خسرو)
١٧٣ - سفرنامه
ترجمة د. يحيى الخشاب ط ٣ دار الكتاب الجديد بيروت ١٩٨٣م
على (سيد أمير)
١٧٤ - مختصر تاريخ العرب
ترجمة عفيف البعلبكى - دار العلم للملايين ط ٤ بيروت ١٩٨١م
فييت (جاستون)
١٧٥ - دليل موجز لمعروضات دار الآثار العربية ترجمة د/زكى محمد حسن - القاهرة ١٩٣٩م
١٧٤ - القاهرة مدينة الفن والتجارة - مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر - بيروت ١٩٦٨م
كاهن (كلود)
١٧٦ - تاريخ العرب والشعوب الإسلامية ترجمة د . بدر الدين القاسم ط ٣ دار الحقيقه - بيروت ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م
لويس (برنارد)
١٧٧ - الدعوة الإسماعيلية الجديده - ترجمه د. سهيل زكار ط أ دار الفكر ١٣٩١هـ سنة ١٩٧١م
متز (آدم)
١٧٨ - الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ط ٢ ترجمة محمد عبد الهادى أبوريده ١٣٦٦هـ/١٩٤٧م لجنة التأليف والترجمة و النشر

سادساً: الدوريات:

أحمد دراج

١٧٩ - عَيْذاب

مقال بمجلة نهضة إفريقية - السنة الأولى العددان التاسع والعاشر - يوليو - أغسطس ١٩٥٨م

جمال الدين الشيال

١٨٠ - أنيس الجليس فى أخبار تنيس لابن بسام مقال (نشر وتحقيق) بمجلة المجمع العلمى العراقى المجلد الرابع عشر - ١٩٦٧م

١٨١ - الفتح الفاطمى لمصر - مقال بمجلد تاريخ الحضارة المصرية - مكتبة مصر بالفجالة - بدون تاريخ

صبحى لبيب (دكتور)

١٨٢ - التجارة الكارمية وتجارة مصر فى العصور الوسطى مقال بالمجلة المصرية للدراسات التاريخية - العدد الثانى المجلد الرابع مايو ١٩٥٢م

حسين مؤنس (دكتور)

١٨٣ - تاريخ مصر من الفتح العربى إلى أن دخلها الفاطميون مقال بمجلد تاريخ الحضارة المصرية مكتبة مصر بالفجالة - بدون تاريخ

عبد المنعم ماجد (دكتور)

١٨٤ - النقود الفاطمية فى مصر

مقال بمجلة كلية الآداب - جامعة إبراهيم (عين شمس) المجلد الثانى مايو ١٩٥٣م

محمد مصطفى زيادة (دكتور)

١٨٥ - الدولة الأيوبية - مقال بمجلد تاريخ الحضارة المصرية مكتبة مصر بالفجالة بدون تاريخ

سابعاً: المراجع الأجنبية:

1 - Cahen : La Syrie du Nord. Paris 1940 .

2 - Hogarth (D. G) Ahistory of Arabia . Oxford 1922 .

3 - Nicholson, Prof, peynold A.: Literary History of the Arabs. london, 1914 , Cambridge 1930 .

4 - O'leary, Delacy, Ashort of the Fatimid khalifate, london 1923 .

5 - Stanly lane poole : Ahistory of Egypt in the Middle Ages . London . 1901 .

موضوعات الكتاب

الموضـــــــــوع	الصفحة

رقم الايداع : ٩٤/٢٥٩٥

I . S . B . N
977-5040-24-8